مآساة أقلية

«شعب الموريسكيين»

الطبعة الأولى
1445 هـ / 2024 م

اسم الكتـــاب: مأساة أقلية «شعب الموريسكيين»
المـــؤلـــــف: د: عبداللطيف عبدالغني مشرف
د: خضر عيد السرحان
موضوع الكتاب: تاريخ
عدد الصفحات: 192 صفحة
عدد المـــلازم: 12 ملزمة
مقاس الكتـاب: 17 x 24
عدد الطبعـات: الطبعة الأولى
رقـــم الإيـــداع: ؟؟؟؟؟ / 2024
الترقيم الدولي: ؟ - ؟؟؟ - 278 - 977 - 978 ISBN:

التوزيع والنشر

القاهرة - جمهورية مصر العربية
هاتف: 01012355714 - 01152806533
E - mail: elbasheer.marketing@gmail.com
elbasheernashr@gmail.com

©copyrights

جميع الحقوق محفوظة

جميع حقوق الطبع والنسخ والترجمة محفوظة لدار البشير للثقافة والعلوم، حسب قوانين الملكية الفكرية، ولا يجوز نسخ أو طبع أو اجتزاء أو إعادة نشر أية معلومات أو صور من هذا الكتاب إلا بإذن خطي من الناشر

مآساة أقلية

« شعب الموريسكيين »

تأليف

د: عبداللطيف عبدالغني مشرف

محاضر في التاريخ والفكر السياسي يالجامعة الإسلامية بكينيا -
باحث بجامعة إسطنبول صباح الدين زعيم

د: خضر عيد السرحان

أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية - جامعة آل البيت الأردن

دار البشير للثقافة والعلوم

تقديم:

يُمثل شهر أيلول/ سبتمبر، حالة مميزة في حياة الأندلسيين بشكلٍ عام، والموريسكيين بشكل خاص، فقد رسم تطاير أوراق الخريف صورة لخروجهم من موطنهم، وطردهم بطريقة تعسفية من قِبَل الإسبان، الذين ربما أرادوا مع مَطلع القرن السابع عشر الميلادي أنْ يبعثوا رسالة للجوار، وللعالم في ذلك الوقت، أن قوتهم، ومكانتهم كما هي، لا تتأثر بحرب خاضتها هنا أو اتفاقية وقعتها هناك، ما يهمنا في الأمر كباحثين؛ أنّ عملية الطرد تمت، وبصورة وحشية، ولا يزال الكثير من الباحثين ينتقدون الإسبان على هذا الفعل، ويُطالبهم بالاعتذار الرسمي لهذا المكون الأساسي في التاريخ الإسباني شاء من شاء، وأبَى من أبَى، كما، وأنّ مرور ما يزيد على أربعة قرون على عملية الطرد، لم يطفئ جذوة البحث عن الحقوق لدَى الموريسكيين، والمهتمين بالقضايا الإنسانية، مع ذلك لايزال حجم الاهتمام العربي، والإسلامي لم يرْقَ إلى مستوى تلك المسألة، ولم يتم تَبنِيهَا حتى لدى المحافل العلمية، والبحثية وإن ما يُسجل لبعض الباحثين، - وهم قِلة - اهتمامهم بهذه القضية، وطرحها لتكون مدار اهتمام النُخب العلمية لعلّ هذا الصوت العلمي يجد أذنٌ صاغية لدَى مختلف الأطراف المعنية بهذا الأمر، حيث تبنَى هذا الطرح الكثير من الباحثين، والمؤرخين الأوروبيين، وأحدثت أبحاثهم حول موضوع الموريسكيين ردة فعل إيجابية لدى المجتمع العالمي، حيث يتبين مما أورده الباحث الإسباني ماريا برسفال: إن القرار ينم عن انتهازية السلطات الإسبانية آنذاك، التي سعت إلى تحويل الانتباه عن مشاكلها، والظهور بمظهر القوي، والانتقام لكبريائها الجريحة؛ فقررت التنكيل بطائفة من رعِيتها لا حول لها ولا قوة، مع أنّ هناك آراء ترى أنّ إسبانيا لم تُهجر الموريسكيين بشكل عام، وبقيت نسبة منهم

في موطِنهم الأصلي؛ مهما تكن هذه الآراء إلا أنّ هناك قضية، ومأساة حصلت بحق الموريسكيين يجب بحثها، وطرحها للنقاش، وهذا ما يتبناه هذا الكتاب بجهد مشترك مني، وبجهد مميز، وبحث عميق من الباحث، والمُفكر الشاب عبداللطيف مشرف الذي يسير بخطى ثابته نحو نَقش اسمه بين نُخبة من العُلماء، والمُفكرين العالميين، وليس على مستوى الوطن العربي فحسب، حيث يستعرِض بمهنية علمية دقيقة، ورصينة بعض من المِحَن التي تعرَض لها الموريسكيين ليطلع عليها الباحثون، والمهتمون في هذا المجال، بالإضافة الى الأجيال القادمة.

الدكتور خضر عيد السرحان
أستاذ التاريخ والحضارة الإسلامية
جامعة آل البيت الأردن

أهدي هذا العمل إلى كُل مَن كان له الفضل عليّ، إلى:

– والدَيّ: أبي رحمه الله، وجعل الجنة مثواه، وأمي أطال الله في عمرها، وأمدها بالصحة، والعافية؛ اللذين قدّما كل ما بأيديهم، وما باستطاعتهما لكي أسلك طريق العلم، وأُكمله.

– كل أحرار العالم، والمُستضعفين في شتّى بِقاع الأرض، إلى شعب الموريسكيين في كل بقاع العالم، وإلى الأقليات الإسلامية المظلومة، التي تتشابه في واقعها مع واقع شعب الموريسكيين قديمًا.

– كل من علمني حرفًا، وأضاء دروب العِلم في طريقي.

– إلى أم عمر الغالية، والصابرة.

– إلى أساتِذَتي، وتاج رأسي البروفيسور محمد حرب، والأستاذ الدكتور خلف الميري، والأستاذة الدكتورة هبة رؤوف عزت، والبروفيسور: سيف الدين عبدالفتاح.

– إلى كل من قدّم لي نصيحة، وكان سندًا لي في شدتي، وفرحي.

مقدمة:

الموريسكيون، هم الأندلسيون المُبعدون من بقايا الأمة الأندلسية المغلوبة، الذين عاشوا تحت الحكم الإسباني؛ بعد إجبارهم على اعتناق المسيحية زهاءَ قرن من الزمن؛ منذ أن سقطت آخر مدينة أندلسية غرناطة، إلى أن أصدر الملك فيليب الثالث سنة 1609 قرارًا، بطردهم من إسبانيا بعد محاولات متعددة، ويائسة لإخراجهم من دينهم، واعتناقهم المسيحية، ولكن دون جدوى، الأمر الذي اضطرهم إلى مغادرة أراضيهم، والاتجاه نحو الجنوب، حيث استقروا بأنحاء مختلفة من إسبانيا، والبرتغال، وشمال إفريقيا، ومصر، وإسطنبول، بل وصل بعضهم إلى فرنسا، والقارة الأمريكية.

يَشيع استعمال مصطلح «الموريسكي» بين المؤرخين المُعاصرين، وحسب تعريف ليفي بروفينسال، في الطبعة الأولى من موسوعة الإسلام، الموريسكي: «اسم يطلق في إسبانيا، على المسلمين الذين بقوا في البلاد، بعد أن استولى المِلكَان الكاثوليكيان فرديناند، وإيزابيلا على غرناطة يوم 2 كانون الثاني عام 1492، وبعد زوال حكم آخر أمراء بني نصر» هذا التعريف على أهميته يقتصر على جانب واحد فقط من معنى المصطلح، لذا قد يكون من المفيد التوقف عند ما يورِده معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية، والذي نقرأ أن لفظة الموريسكي: «تطلق على «الموروس» الذين بقوا، وتَعمَّدوا بعد سقوط غرناطة»، ويذكر هذا التعريف ميزة الموريسكيين الأساسية: وهي أنهم تعَمدوا بوصفهم مسيحيين، وحتى هذا التعريف يتفادى الإشارة إلى أن تعميد هؤلاء «الموروس» (أي المسلمون) لم يحدث بناءً على إرادة حرة من جانبهم، فلا غرابة أن تبقى غالبية هؤلاء على إسلامها، أو كما ورد في اتهام إحدى محاكم التفتيش: «لا يقِلون إسلامًا عن مُسلمي الجزائر»

لكنهم كانوا مسلمين من نوع شديد الخصوصية: مسلمين سرًا[1].

وطوال ما يقرب من قرنين من الزمان قبل عام 1492م كان المسلمون في إسبانيا ينقسمون إلى قسمين، القسم الأول يعيش في مملكة غرناطة المستقلة المسلمة العربية اللِسَان في عهد بني نصر، والقسم الثاني يعيش في كَنف ممالك مسيحية شتى، يطلق عليهم اسم المدجنين، وكانت شروط استسلام غرناطة عام 1492م تكرر بتعديلات بسيطة، شروط الاستسلام التي فرضت على كثير من المدن، والحواضر الأخرى عبر القرون، وبوجه عام، كانت المدن التي تقاوم حتى النهاية يتم اجتياحها، ويُطرد سكانها، كما حدث في مالقة عام 1487م.

بينما المدن التي كانت تبدأ فيها المفاوضات قبل أن تشرع القوات المسيحية في هجومها الأخير، كان المسلمون في العادة يسمح لهم بالعيش في كنف المسيحيين لو اختاروا ذلك.

وفي نهاية القرن التاسع الهجري – الخامس عشر الميلادي، كانت ثمة جماعات كثيرة من المدجنين في جميع الممالك المسيحية، وليس فقط في مملكة غرناطة[2].

ولكن وجود مملكة مستقلة في غرناطة كان يمثل الضمانة الأخيرة لحقوق المسلمين في جميع أرجاء شبه الجزيرة الإيبيرية، وكانت هذه المملكة بوصفها دولة إسلامية تعني أن الحكام المسيحيين بل المسيحيون على جميع المستويات يتوجب عليهم معاملة المسلمين باحترام، لقد كان بين جموع المسيحيين في جميع الأوقات من يود لو يرى مزيدًا من المساعي لحمل زملائهم المواطنين المسلمين على اعتناق المسيحية، لكن مثل ذلك الحماس كان لابد أن يُكبح، لأن المسيحيين كان يمكن أن يجدوا أنفسهم في قبضة حكام مسلمين.

لقد كان ثمة موريسكيون، منذ العام 1500م فصاعدًا، يعيشون في الأقاليم القشتالية (قبل أن يُوجدوا في أراضي أراغون، ونافارا) وهم المسلمون سابقًا، الذين تعمَدوا، وغَدوا مسلمين في السر، تحت حكم المسيحيين، لكن كلمة

«موريسكي» لم تكن قد أُدرجت في الاستعمال بعد، بل إنها لم تغدُ كذلك حتى أواخر ذلك القرن، وتتحدث الوثائق عن «الناس الذين اعتنقوا المسيحية حديثًا بعد أن كانوا مسلمين»، ومثل ذلك من العبارات الخرقاء؛ وهنا يبرز السؤال إن كان لنا أن نستخدم هذا المصطلح هذه الأيام في الكلام عن أحداث جرت بعد عام 1501 مثلًا، وهذه مفارقة تاريخية، ولا شك، لكن الاعتراض الأقوى على تعميم استخدام المصطلح، يجب أن يصدر عن كونه وسيلة استخدمها أولئك الذين أرادوا تهميش هذه الجماعة، وحرمانها من حقها في الاستمرار في إخلاصها للإسلام، فإزاء إعادة تصنيف الناس تحت اسم موريسكيين دون الموروس (أي المسلمون)، كانت السلطات قد أخضعتهم لسلطة محاكم التفتيش (التي يستثنى منها جميع غير المؤمنين)، وهكذا يكون المصطلح نفسه قد تفادى مقدمًا.

البحث في مسألة خطيرة: هل كان المسلمون أحرارًا في ممارسة دينهم في إسبانيا في القرن السادس عشر؟ ومهما يكن من أمر، فإن مصطلح الموريسكي قد اتخذ موقعًا راسخًا في الكتابات التاريخية، بحيث غدَا تجنبه مُدعاة لإثارة سوء الفهم.

وقد غدت كلمة الموريسكيين شائعة الاستعمال حتى في الكتابات العربية[3]، وربما يكون قد فات الأوان اليوم لمحاولة استبدالها، ولكن من الواجب بذل كل جهد لتجنب ما قد تُحدثه الكلمة من مزالق مَذهبية.

تحول هذا الشعب الأندلسي إلى أقلية مقهورة، بعد أن كانوا أصحاب حضارة، وأصحاب الكلمة في أراضي إسبانيا، ومعها البرتغال، فأصبح شعب الموريسكيين مأساة حقيقية، لذلك تم تسمية الكتاب مأساة أقلية «شعب الموريسكيين»، فعند التدقيق في العنوان نتساءل كيف يُصبح شعب أقلية؟ الحقيقة صور الإسبان الموريسكيين على أنهم أقلية، رغم عند دراستنا للموضوع؛ وجدنا أن الموريسكيين إلى أن صدر قرار الطرد في حقهم عام1609م لم يكونوا أقلية، بل كانوا شعب صاحب حضارة، وتجارة، واقتصاد قوي، لكنه أصبح بدون سلطة

أو حكم سياسي إسلامي، وذلك بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين على أراضي إسبانيا عام 1492م، فبدأت سلسلة اضطهادات من السلطة، والكنيسة الإسبانية تجاه المسلمين، فبسبب التعذيب، والاضطهاد، والتضييق على معاشهم؛ هاجر الكثير منهم بعد سقوط غرناطة، فكانت هي ملامح التهجير الأولى، فرويدًا رويدًا، بدأ التضييق يزداد من قِبل محاكم التفتيش، فبدأ الكثير منهم يترك الوطن لينجوا بنفسه، وبعائلته، ودينه، فمن هنا أصبح عددهم يقِل، ومع ذلك ظل الكثير منهم متمسك بوطنه، ودينه، وعقيدته لآخر لحظة، إلى أن طُردوا جميعًا من إسبانيا الكاثوليكية، فأصبحوا أقلية بعد أن كانوا أعظم شعوب الأرض عِلم، وحضارة، ولعلنا اليوم نرى سيناريو الموريسكيين في واقع أمتنا، وواقع الأقليات الإسلامية في بلدان العالم، فنرى شعب فلسطين، وسيطرة الصهيونية على أرضه، ونرى سوريا، ولبنان، واليمن، والعراق، وتمدد الشيعة بهما، فمن هنا سنسرد أهم أحداث الموريسكيين، ونستخرج منها مآسي واقعنا الحالي لتتعلم الأجيال من التاريخ، لعلها تعي، وتفهم واقعها.

فلذلك يتناول الكتاب هذه المأساة بشكل مترابط مع أحداث اليوم، بل يستخرج العِبر من مأساة شعب الموريسكيين حتى تتعلم الأجيال، وتعرف تاريخها لكي تقرأ واقعها، وتصنع مستقبلها برؤية، وعبرة من الماضي، فهل من معتبر يا قارئ، وكاتب التاريخ.

تأتي بعض أوجه الأهمية في دراسة موضوع الموريسكيين، وبالتحديد دراسة «الموريسكيون في إسبانيا، واتجاهات هجرتهم» والذي يفتح أيضًا مجالًا رحبًا لدراسة التاريخ الأوروبي في علاقته بالتاريخ العربي، والإسلامي.

المأساة الأولى:
صفحات منسية من التاريخ

الموريسكيون: صفحات من قضايا التاريخ المنسي[4].

مع أن قضايا الموريسكيين تُعتبر من القضايا المهمة، والمؤلمة في التاريخ الحديث، كما أنها من القضايا التي لا تُنسى - ولا يجب أن تُنسى - من الذاكرة العربية، والإسلامية، فإن المدرسة التاريخية العربية لم تهتم بها إلا نادرًا، حتى يمكن القول بأن الموضوع تعرض لشبه الإهمال، مع أنه حَظِيَ باهتمام الإسبان بشكل خاص، وباهتمام بعض المؤرخين، والباحثين المغاربة بشكل عام.

مع أن قصص الموريسكيين هي من القصص التي حدثت بالفعل منذ أواخر القرن الخامس عشر الميلادي، واكتملت نهايتها مع النصف الأول من القرن السابع عشر، فمن المثير أنها تكررت - مع بعض الاختلافات - في سبتة، ومليلية، وأبخازيا، وفلسطين، وجامو، وكشمير، وفي غيرها من مناطق، وبلاد العالَمَين العربي، والإسلامي؛ حيث ضاعت مناطق شاسعة من الأراضي، وهاجرت ملايين البشر من أوطانها لأسباب عديدة، نحن في حاجة إلى دراستها، بل؛ وإلى التذكير بها، لأنها تُعد أكبر مأساة لشعب في التاريخ الحديث، وهذا الشعب هو مُسلمي الأندلس، الذين أُجبروا على التنصير بل، وترك الدار، والوطن، مأساة لشعب مسلم لم تتوقف، بل متكررة نراها بأعيُننا في واقع أمتنا اليوم في اليمن، والعراق، وسوريا...وإلخ.

إن الموريسكيين هم المسلمون الذين أُجبروا على اعتناق المسيحية بعد سقوط الأندلس، وتحديدًا عند سقوط غرناطة سنة 1492م، ومع أن الإسبان قصدوا

بمصطلح «الموريسكيين» تصغير شأن هذه الفئة المسلمة داخل أراضيهم، فإن مصطلح «الموريسكي» استقر خلال القرنين السادس، والسابع عشر الميلاديين، وأصبح الاسم المعتاد لهم، مع أن الموريسكيين في نظر الإسبان هم في الأصل مسلمين وإن أصبحوا «مسيحيين جددًا»، ومن هنا يستخدم المصطلح على أولئك الذين طُردوا من إسبانيا، وعلى أحفادهم، خاصة في بلاد المغرب العربي.

المهجرون الأندلسيون المَنَصَّرون»الموريسكيون»، هم بقايا المسلمين الذين بدأت عمليات تهجيرهم من الأندلس، بعد سقوط الدولة الإسلامية بالأندلس 1492م

وكانت حياة هؤلاء الموريسكيين في إسبانيا مجال لكل أنـواع الظلم، والإرهاب الفكري، والجسدي، والنفسي، وبالتحديد قصتهم من سقوط غرناطة عام1492م، وكيف سقطت، وكيف تغيرت حياة هذه الفئة المسلمة بعد سقوط آخر ممالك الإسلام في إسبانيا، وكيف تغيَّر بهم الحال بعد أن كانوا هم الفئة الغالبة في ظل دولة الإسلام في الأندلس، إلى أن أصبحوا بالتدريج فئة مُهدر حقها، وأقلية ليس لها أي حقوق تحت مظلة الحكم الكاثوليكي الإسباني؛ حيث عاش هؤلاء أحلك فترات الظلم في حياتهم من قِبَل الإسبان، بعد أن أُهدرت كرامتهم، ووقع الظلم عليهم في المال، والولد، وكان الظلم الأكبر في إجبار هؤلاء عن التخلي عن دينهم الإسلامي، وأُقيمت محاكم التفتيش من أجل هذا، حيث ذاقوا من قساوسة تلك المحاكم الظالمة أشد، وأقسى صنوف، وأنواع العذاب التي لا يتحملها بشر من قِبل محاكم التفتيش، وأيضًا من قبل وُلاته في الولايات الإسبانية المختلفة.

ومن هنا ضاقت أنفسهم بالظلم الذي طالهم في كل شيء من حياتهم، فتوحدت الآراء الموريسكية، واتفقت العقول، والقادة على القيام بثورة؛ ومن هنا قامت ثورة البشرات (1569 – 1571م) بقيادة الزعيم محمد بن أمية قائد المسلمين الأندلسيين في هذه الثورة، لكنها لم يُكتب لها النجاح، بل؛ وكان من عواقبها أن زاد الظلم أضعافًا على المسلمين الأندلسين، وهُجِّروا من غرناطة إلى الولايات

الإسبانية المختلفة، وزادت محاكم التفتيش في التنكيل بهم، وزاد العذاب أضعافًا.

هكذا استمرت مأساة الموريسكيين داخل المجتمع الإسباني المتعصب لدينه المسيحي الكاثوليكي، إلى أن جاء الظلم الأكبر، الذي وقع على هذه الفئة المغلوبة على أمرها، بأن أُجبروا عن التخلي عن أموالهم، وأولادهم الصغار، وديارهم، ومجتمعهم الذي قطِنوه، ووُلدوا فيه، وتربوا على أرضه، وحلِموا بأن يموتوا على أرضه، إلا أن مأساة طردهم حالت دون ذلك، وكانت فاصلة، وعازلة بين طموحاتهم، وأحلامهم، من خلال قرار طرد المسلمين الأندلسيين (الموريسكيين) الذي أصدره الملك فيليب الثالث عام م1609م، وكان سبب في تشريد أكثر من ثلاثة ملايين موريسكي، وتركهم لوطنهم، وتخليهم عن ثرواتهم، وذكرياتهم، وكل أصيل في وطنهم، حتى منهم من أجبروه التخلي عن طفله؛ من أجل تنصير هؤلاء الأطفال، فكان إرهاب لا يقدر علي وصفه كل الأدباء.

كان هذا القرار بمثابة بدء النهاية للمسلمين الأندلسيين في إسبانيا، وبداية حياة جديدة لهم، وذلك عن طريق اتجاهات هجراتهم في البلدان المختلفة من بلاد المغرب العربي، وبلاد البحر الأبيض المتوسط.

الموريسكيين هاجروا إلي المغرب العربي (المغرب – تونس – الجزائر) وأيضًا أماكن مختلفة من مناطق البحر الأبيض المتوسط (تركيا – البلقان – مصر – ليبيا. وغيرها)، وأيضًا في دول أوروبية (مثل فرنسا، وإيطاليا).

المهجرون الأندلسيون المنصرون «الموريسكيون» هم بقايا المسلمين الذين بدأت عمليات تهجيرهم من الأندلس، بعد سقوط الدولة الإسلامية بالأندلس 1492م، واستمرت طوال القرن السادس عشر، نتيجة لعمليات الاضطهاد، التي كانت تتبعها محاكم التفتيش إزاء المسلمين من أبناء الأندلس، حتى توجهت هذه العمليات في آخر الأمر بقرار الطرد النهائي في عام 1609م، الذي نصّ على تهجير هؤلاء الموريسكيين إلى الموانئ المغربية، مع السماح لهم بحمل ما يستطيعون

من أموالهم المنقولة، وأن يحظر عليهم إخفاء أي شيء من أموالهم لا يستطيعون حمله، كما يحظر عليهم إتلاف بيت أو مزرعة أو أي شيء من الممتلكات، ومن يتخلف عن تنفيذ القرار، يُعرض نفسه للموت المحقق.

وقد كان تأثيرهم في مختلف، وشتى أنواع الحياة، والمجالات المختلفة في مجتمعاتهم الجديدة؛ وانخرطت هذه الفئات المتشبعة بالثقافة الإسبانية، والقشتالية لدرجة أن لغاتهم، وكتاباتهم كانت بالقشتالية داخل بعض مجتمعات إسلامية إلى أن أصبحوا فئات تشبه ثقافة، وحياة هذه المجتمعات الجديدة.

وبرصد طرق، ومعاناة هؤلاء المسلمين من إسبانيا إلى الأماكن المختلفة في شتى أنحاء العالم، وتوطّن كل مجموعة منهم في مكان مختلف، وبلد مختلف عن بلد؛ سنرى أن كل مجموعة من هذه الهجرات، تحتاج لدراسة خاصة، ومفسرة لأماكنهم، وكيفية انخراطهم في مواطنهم الجديدة، ومدى تأثيرهم في حياة شعوب هذه الأماكن الجديدة لهؤلاء الموريسكيين؛ فعلى سبيل المثال هاجروا إلى المغرب العربي (المغرب – تونس – الجزائر) وأيضًا أماكن مختلفة من مناطق البحر الأبيض المتوسط (تركيا – البلقان – مصر – ليبيا. وغيرها)، وأيضًا في دول أوروبية (مثل فرنسا وإيطاليا).

كما كان هناك وجود للموريسكيين في أماكن أخرى، مثل أمريكا الجنوبية وفقًا لدراسات، وإثباتات أكدها بعض المؤرخين، والكُتَّاب أمثال «اغيلير بلغيثويلو»، و«ماريا الفيرا ساغاثاثو» وغيرهم.

وفى تعاملهم مع أبناء المجتمع المصري، وأبناء الجاليات الأخرى التي كانت تتواجد بالمجتمع المصري بعامة، ومجتمع الإسكندرية بخاصة، كما أن بعضها ينص على كيفية وصول أبناء الجالية الأندلسية إلى الإسكندرية، وكيف أن بعضهم وقع في الأسر «على يد نصارَى» وكيف أنهم عملوا على افتداء أنفسهم باقتراض بعض النقود من أبناء» جزيرة جربة» التي كانت دائمًا تتم فيها عملية الافتداء،

فلما توفى هؤلاء؛ طالب الدائنون الورثة بمالهم في ذمة المتوفين، وكذلك عن طريق هذه الوثائق، يظهر مدى اندماج هؤلاء الأندلسيين اجتماعيًا مع أبناء المجتمع عن طريق التزاوج مع الجاليات الأخرى، وبخاصة الجالية المغربية، وواضح تمامًا أنهم كانوا منفتحين على بقية طوائف المجتمع، ولم يحاولوا أن يفرضوا على أنفسهم عزلة اجتماعية.

من هنا المأساة....

ما أصعب أن يترك الإنسان وطنه، وماله، وذكرياته عنوة، أن يسلب منه ذاته، وتاريخه، أن يبصر إلى مستقبله، ومستقبل أولاده يجده مجهول، بل الأصعب من كل هذا؛ أن تجد نفسك بدون وطن، بعد أن كنت تملك الحضارة، والتاريخ، والثروة، والأرض، والوطن، تجد نفسك مشرد بدون وطن أو هوية تحمل معاني الانتماء، فإن مأساة الموريسكيين من أشد مآسي التاريخ، وأصعبها، فهل من معتبر يا قارئ التاريخ؟

بل نجد دومًا هذه المآسي، والشتات من نصيب الدول المسلمة، فلننظر حولنا؛ سنجد شتات شعب فلسطين، ومن ثم بجاو، وكشمير، ومن ثم شتات أهل سوريا، والعراق؛ ومع الأسف الشديد لم تتعلم الدول الإسلامية من التاريخ، ولا من مآسي الموريسكيين أو الأصح الأندلسيين المُنصَّرين شيئًا، حتي ذكراهم، وتاريخهم أهملناه، بل الصدمة الأكبر أن تجد العديد من المتخصصين في مجال التاريخ لا يعرفون إلى الآن ما هي مأساة شعب الموريسكيين، إذًا ما ذنب التاريخ في أمة لا تقرأه، وإن قرأته جعلته مادة للتسلية لا للعبرة، وإذا جعلته منهجًا جعلت منه حبرًا على ورق، إذا من هنا المأساة، ويا تُرى ما المأساة القادمة على شعوب، وأقليات العالم الإسلامي؟

المأساة الثانية:
أزمة مصطلح الموريسكي، والمدجن

التاريخ الخفي.. الفرق بين مُصْطلحي المدجنين، والموريسكيين في التاريخ الحديث[5].

المدجنون هم المسلمون الذين عاشوا في حماية الممالك المسيحية في إسبانيا، بعد أن اشتدت حركة الاسترداد في شبه الجزيرة الأيبيرية، منذ سقوط طليطلة عام 478هـ/ 1085م وحتى سقوط غرناطة سنة 897هـ/ 1492م، والمدجنون هو مصطلح مشتق من دجن؛ أي: قام خاضعًا، غير أنه تَحرف على ألسنة الإسبان في بعض الأحيان إلى «دجل» و«دجر»، وصار الموصوف به يُسمى «مدجلًا» أو «مدجرًا»، فقيل موديخار «Mudejar»[1]: وقد شاع استعمال لفظ الدجن، والمدجنين في الكتابات العربية، واحتلت حالة المدجنين حيزًا لا بأس به من اهتمام كتب النوازل، وعلى رأسها «المعيار» للونشريسي[2].

لم تكن وضعية المدجنين سيئة حتى بعد سقوط طليطلة، ولكن وضعهم تدهور بعد معركة الزلاقة سنة 479هـ/ 1086م، وما تلاها من صراع مرير بين المسلمين في الأندلس، والممالك النصرانية، ففقد المدجنون حقوقهم، وضماناتهم،

---

(1) عبد الواحد طه دنون: أهمية الكتب الفقهية في دراسة تاريخ الأندلس نموذج تطبيقي عن كتاب المعيار، ضمن أعمال الندوة الدولية حول حضارة الأندلس في الزمن والمكان، الرباط 1992، ص138.

(2) مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير المورسكي في المغرب، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، المغرب 2010، ص32.

واجتهد رجال الدين النصارى في التأليب عليهم؛ فتعرضوا لمختلف الأذى، والاضطهاد، وكان عليهم أداء ضريبة Cenas reales عن محلاتهم السكنية[1].

والمعروف أن هذه الجماعات الإسلامية أدت دورًا فعالًا مؤثرًا في البيئة المسيحية الإسبانية، ومثلت صورة حية للإسلام، والمجتمع الإسلامي بنظمه، وتقاليده، وعاداته بعد زوال الهيمنة السياسية، والعسكرية للمسلمين، فقد أبقى عليهم النصارى الإسبان، واستخدموهم في ممالكهم؛ إدراكًا منهم لأهمية هذه الجماعات، وبراعتهم في الفنون، والصناعات، في الوقت الذي حافظت فيه هذه الفئات على عروبتها، وتقاليدها، فبقيت أثارها ماثلة للعيان، لا سِيما في مجال العمران[2].

لم تكن عبارة الموريسكيين موجودة في القرن الخامس الهجري/ الحادي عشر ميلادي، إلا أن عددًا من المسلمين الأندلسيين، وقعوا تحت الاحتلال المسيحي في الأندلس نفسها منذ القرن الخامس الهجري، وقد أطلق عليهم المؤرخون المسلمون لفظ المدجنين، فمصدر المدجنين من دجن، ومعناه أقام بالمكان، إلا أن هذه العبارة لا تعكس الحقيقة لهذه المجموعة، كما أنها لا تعتبر جوانبها المختلفة، والمعقدة، ولا أبعادها المأساوية، التي تتشابه إلى حد كبير مع وضعية الموريسكيين منذ سنة 1492م[3].

أول إشكالية تصادف أي باحث في هذه الفترة التاريخية، هي قضية لقب «الموريسكي» كصفة للدلالة على الأندلسي المتنصر، وإذا حاولنا البحث في أصل المصطلح سنجد بأن أصله من اللغة البربرية من كلمة «أمور»، وتعني البلد، أو الدولة، أو القسمة، ودخلت هذه الكلمة إلى اللغة اللاتينية، وأصبحت «Mauri

(1) عبد الواحد دنون: المرجع السابق، ص251.

(2) محمد قشتيلو: الفن المعماري الإسلامي في المعابد المسيحية بإسبانيا، مجلة دعوة الحق، عدد1، ص243.

(3) المرجع السابق، ص69.

Maurus» وتعني سكان المغرب[1]، وهي أيضًا كلمة تشير في العهد الروماني إلى سكان المغرب الأوسط، والغربي «المناطق الساحلية في المغرب بالإضافة إلى مساحة الجزائر بأكملها»، وموريتانيا[2].

كلمة «الموريسكوس» تصغير لكلمة Moros، وهو اللقب الذي أطلقه الإسبان على جميع المسلمين الذين كانوا يحكمون الأندلس، ثم غُلبوا على أمرهم؛ فصغر اسمهم على سبيل التهوين من شأنهم[3].

على أنه، ورغم شيوع اللقب، وعده مصطلحًا تاريخيًّا متداولًا، فإن القبول به فيه نوع من الإجحاف في حق العناصر الأندلسية، وإقرار بوضاعتهم التي يعتقدها من أطلق عليهم هذا اللقب، بما يحويه من تحقير لهم، وانتقاص من قدرهم؛ إذ إنهم ما عُرفوا بذلك إلا بعد أن اضطُهدوا بصفتهم مسلمين أصاغر أذلاء، وما الحرص على استعماله للدلالة عليهم إلا في المؤلفات المسيحية، وبالمقابل لم يجرِ الوقوف – من خلال المؤلفات العربية المعاصرة للقرنين السادس عشر، والسابع عشر الميلاديين – على ما يذكرهم من دون لقب الأندلسيين، أو بلقب الغرباء، عند الرغبة في الإشارة إلى من أجبروا على التنصير بالأندلس، وبلقب المدجنين في المؤلفات التركية[4].

إن جل المؤرخين يرون بداية تاريخ الموريسكيين عند اكتمال عملية الاسترداد المسيحي، بقيادة الملك فرناندو، والملكة إيزابيلا سنة 1492م؛ ونتيجة لذلك درس

(1) الحسن السائح: الحضارة المغربية: البداية والاستمرار، منشورات عكاظ، الرباط 2000، ص69.

(2) ميكيل دي إيبالثا: المورسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال عبد الرحمن، الطبعة الأولى، حقوق الطبع والنشر المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2005 ص24.

(3) مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: التأثير المورسكي في المغرب، المرجع السابق، ص34.

(4) حسن اميلي: الجهاد البحري بمصب أبو رقراق – رد فعل أندلسي، ضمن أعمال ندوة المغرب وإسبانيا، خلال القرن السابع عشر، كلية الآداب – الرباط 1997، ص10.

المتخصصون هذه الظاهرة من خلال زوايا مختلفة، وفي أماكن مختلفة، وذلك بعد سنة 1492م، وفي الإطار الزماني وقع تركيزهم بالدرجة الأولى على نهاية القرن الخامس عشر إلى النصف الأول من القرن السابع عشر الميلاديين، أما جغرافيًّا، فلم ينحصر تاريخ الموريسكيين في الأندلس أو مناطق شبه الجزيرة الأيبيرية التي حكمها المسلمون، لقد استقر الموريسكيون في أنحاء مختلفة من إسبانيا، والبرتغال، والمغرب، وتونس، والجزائر، وفرنسا، وغيرها، بل وصل بعضهم إلى العالم الجديد «الأمريكتين»[1].

علاوة على هذا فإن عبارة الموريسكيين تحتوي على أحكام مسبقة؛ لأنها كانت مستعملة من قِبل المسيحيين الإسبان، لتعريف الأندلسيين المسلمين الذين اعتنقوا المسيحية، والذين فُرضت عليهم شرطًا أساسيًّا، وضروريًّا لاستمرارهم في بلادهم إسبانيا بعد احتلالها من قبل المسيحيين؛ بعبارة أخرى نظر المسيحيون الإسبان إلى مجموعة الموريسكيين نظرتهم إلى «الآخر»، ومع ذلك فإن الموريسكيين لم يعدوا أنفسهم كذلك، كما لم يشرِ إليهم إخوانهم في الدين فيما وراء العدوة في المغرب، وفي أقطار العالم الإسلامي بتلك العبارة[2].

ومن هنا نضع تعريف «الموريسكيين» مصطلحًا يستخدمه المؤرخون الحاليون، بصفتهم مسلمو الممالك الأيبيرية «قشتالة، وأراغون، ونابارا» الذين أُجبروا على اعتناق المسيحية في أوائل القرن السادس عشر، وبهذا يمكن تمييزهم عن «المدجنين» من الأندلسيين، والذين كان بمقدورهم ممارسة شعائر الإسلام في الأراضي المسيحية على مدى العصور الوسطى قبل عمليات التعميد الإجباري في القرن السادس عشر.

أما «المدجنون» هم أبناء الأندلسيين أو المسلمين ممن كانوا يعيشون تحت

(1) لوي كارديك: المورسكيون الأندلسيون والمسيحيون - لمجابهة الجدلية، ترجمة: عبد الجليل التميمي، ط2، منشورات المجلة المغربية التاريخية، زغوان 1989، ص145.

(2) مولاي أحمد الكامون - هاشم السقلي: التأثير المورسكي في المغرب، المرجع السابق، ص36.

الحكم المسيحي في شبة جزيرة أيبيريا، ونظرًا لأصلهم الإسباني، فإن الموريسكيين يختلفون عن البربر الذين يسمون الآن «مغاربيين» أو مواطني شمال أفريقيا الغربية في القرنين السادس عشر، والسابع عشر – كما كان الحال في العصور الوسطى في إسبانيا – حين كان المسلمون يسمون sarracenos أو moros وهي كلمة اشتق منها لفظ «موريسكي»[1].

أما كلمة موريسكي morisco فمشتقة من كلمة «مسلم»، أما «مورو moro» فهي تصغير لها، وتحمل معنى الشأن الضئيل في كثير من الأحيان، ويُقصد بها تصغير، وتحقير شأن هؤلاء، وكلمة موريسكي معناها أن الشخص يختلف عن المسلم العادي moro الوثني؛ إذ جرى تعميده، وينظر إليه المجتمع الإسباني على أنه مسيحي، وبناءً على ما سبق فإن كلمة «موريسكي» مشتقة من كلمة مورو moro، ومعناها «المسيحي الجديد الذي كان مسلمًا قبل ذلك»[2].

يشيع استعمال مصطلح «الموريسكي» بين المؤرخين المعاصرين؛ وحسب تعريف ليفي بروفينسال: «اسم يُطلق في إسبانيا على المسلمين الذين بقوا في البلاد بعد أن استولى الملكان الكاثوليكيان فرديناند، وإيزابيلا على غرناطة يوم 2 يناير 1492 بعد زوال حكم آخر أمراء بني نصر، وهذا التعريف على أهميته يقتصر على جانب واحد فقط من معنى المصطلح؛ لذا قد يكون من المفيد التوقف عند ما يورده معجم الأكاديمية الملكية الإسبانية، والذي نجد فيه أن لفظة الموريسكي: تُطلق على «الموروس الذين بقوا وتعمدوا بعد سقوط غرناطة».

ويذكر هذا التعريف ميزة الموريسكيين الأساسية: وهي أنهم تعمدوا بوصفهم مسيحيين[3].

---

(1) ميكيل دي إيبالثا: المورسكيون في إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال عبد الرحمن، الطبعة الأولى، حقوق الطبع والنشر المركز القومي للترجمة، القاهرة 2005 ص24.

(2) ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص24.

(3) ليفي بروفنسال: حضارة العرب في الأندلس، ترجمة: ذوقان قرقوط، مكتبة دار الحياة، بيروت لبنان، 85.

ومن هنا نرى أن هذا التعريف يتفادى الإشارة إلى أن تعميد هؤلاء «الموروس» (أي المسلمين) لم يحدث بناء على إرادة حرة من جانبهم، فلا غرابة أن تبقى غالبية هؤلاء على إسلامها، أو كما ورد في اتهام إحدى محاكم التفتيش: «لا يقلون إسلامًا عن مسلمي الجزائر»، لكنهم كانوا مسلمين من نوع شديد الخصوصية، أي مسلمين سرًّا.

من هنا المأساة....

أننا نعيش إلى الآن أزمة مصطلح، نعيش أزمة حقيقية في المفاهيم التي ورثها لنا الاستعمار، بل جَمَّلها، وجَعَلنا نرددها بدون أن نفهم ما تخفيه هذه المفاهيم في بطنها، فبث لنا السم في العسل، فجعل المسلمين المنصرين موريسكيين، فموريسكس هي تصغير، وتحقير للمسلمين، الذين ظلوا في وطنهم الأندلسي بعد سقوط غرناطة عام 1492م، أو بمعنى البربري، رغم أنهم أصحاب الأرض، والحضارة، بل المأساة أن إسبانيا إلى الآن تعيش على أمجاد تراثهم، وتستغله في مجال السياحة، لتجني منه الملايين، ومع ذلك ترفض عودتهم أو الاعتراف بهم؛ فهل هناك مأساة أكبر من ذلك...؟

ولكي يخدعوا أجيال المسلمين، والمؤرخين تناولوا الموريسكيين كأنهم مدجنين عاشوا بسلام تحت ظل الدول المسيحية، وعندما طالبوا بحقهم، وتمسكوا بوطنهم، وعقيدتهم تحولوا إلى متمردين، وموريسكيين؛ فهذه المأساة نراها في يومنا إلى الآن، عندما تطالب أقلية مسلمة بحقها في أي بلد من بلدان العالم... فهل هناك مأساة أكبر من ذلك؟

وللأسف الشديد فرضت علينا كلمة الموريسكيين كتعريف لأقلية مسلمة، عاشت تحت إرهاب حقيقي من محاكم التفتيش، وبدعم السلطة الحاكمة، وما زالوا بكل جرأة يتهمون الإسلام، والمسلمين بالإرهاب.... فهل يوجد مأساة أكبر من ذلك! بأن تكون مظلوم، ومقهور، ويشار إليك بكل خبث أنك أنت

القاتل، والفاسد الذي يعيث في الأرض فسادًا؟ هل هناك مأساة أكبر من أن نطلق على المحتل أنه مستعمر، فالاستعمار هو البناء، والتشيد، فهل كل المحتل يبني أم ينهب الثروات، ويمص دم الأبرياء من أبناء الشعوب المحتلة، والمقهورة؟

فمن مأساة شعب الأندلسيين المُنصرين، علينا أن نأخذ العبرة، والدرس في التدقيق في المصطلحات وردِّها إلى أصلها، حتى لا تنتشر بين المثقفين أنفسهم كأنها مفاهيم إصلاحية، بل الحقيقة هي مفاهيم جدلية تحمل في طياتها التصغير، وتجعل أفعالهم الخبيثة طيبة، وصالحة، أو ينشروا من خلالها كل المفاسد باسم الحداثة، فهل هناك مأساة من أن يتلاعب بأمة بأكملها بمفاهيم مغلوطة زرَعها المُحتل إلى الآن؟ هل من مأساة أكبر من أن أمة إقرأ لا تقرأ، ولا تعي ما تقرأ، بل العجيب أن تجد الدارسين، والمتخصصين يرددون هذه المفاهيم دون أن يدرون مَردها، وأصلها، وماذا تعني، بل أكبر مأساة وجدها أن الكثير من المتخصصين، والأكاديمين في الجامعات الكثير منهم لا يعرف من هم الموريسكيين «الأندلسيين المنصرين» وإذا عُرف من هم الموريسكيين لا يعرف مأساة هذا الشعب، وإذا عرف لا يعرف الفرق بين المدجن، والموريسكي، ولماذا ردد الإسبان كلمة مجن رغم أنهم فئة مسلمة واحدة، فهل سيأتي يومًا مثل هذا، ولا نعرف مأساة شعب فلسطين، والأقصي، وشعب سوريا، والعراق، وكشمير، وننساهم كما نسينا مأساة شعب الموريسكيين..... فهل من معتبر يا قارئ التاريخ؟

المأساة الثالثة:
بداية النهاية

ابن حيان مؤرخ الأندلس وصف تداعيات سقوط العرب قديمًا، وحديثاً[6].

يقدم لنا تاريخ الأندلس في مراحله الأولى صفحات باهرات من ضروب المجد الحربي، والسياسي، والتمدن، والعرفان، ولكنه يقدم إلينا في مراحله الأخيرة صفحات شجية مؤثرة؛ من تقلب الحدود، وتعاقب المحن، والانحدار البطيء المؤلم إلى معترك الهزيمة، والذلة، والسقوط؛ قصة الأندلس لا تمثل سوى حقيقة تاريخية خالدة بخصوص تبادل الحضارات، والدول كما أن الصراع الطويل الذي خاضته الأندلس قبل أن تستسلم، فضلًا عما يحف به من ألوان البطولة الخالدة، صفحة رائعة من الاستشهاد المؤثر قَلما يقدمها إلينا تاريخ أمة من الأمم التي اشتهرت بالذود عن حياتها، وحريتها.

إن مصير الأندلس كان يهتز في يد القدر منذ ظهور دول الطوائف، وغلب عليها الخلاف، والتفرق، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية.

لقد سقطت قواعد الأندلس الشهيرة في سلسلة من المعارك، والمحن الطاحنة، التي تقلبت فيها الأمة الأندلسية، منذ انهيار صرح الخلافة الأموية في الأندلس، في أواخر القرن الرابع الهجري، فقامت دول الطوائف الصغيرة المفككة على أنقاض دولة عظيمة شامخة، وكان سقوط كل قاعدة من هذه القواعد الشهيرة يمثل ضربة مميتة للدولة الإسلامية في الأندلس، ويحدث أعمق صدى في جنباتها.

كانت الأمة الأندلسية كلما سقطت قاعدة من قواعدها الشهيرة في يد عدوتها القديمة المتربصة بها - إسبانيا - أَلِفت عزاءها في قواعدها الأخرى، وهرع معظم السكان المسلمين إلى القواعد الباقية؛ استبقاء حياتهم، ودينهم، وكرامتهم، حتى لم يبقَ

من تلك القواعد الشهيرة سوى غرناطة، وأعمالها، تؤلف مملكة إسلامية صغيرة أبيه، استطاعت عبقرية بُنَاتها النصيرين أن تسير بها خلال العاصفة أكثر من مئتي عام.

إن مصير الأندلس كان يهتز في يد القدر منذ ظهور دول الطوائف، وغلب عليها الخلاف، والتفرق، وانحدرت إلى معترك الحرب الأهلية، تفسح لعدوها الخطِر مجال التفوق عليها، والضرب، والتفريق بينها، وقد استطاع بعض ذوي النظر الثاقب من رجالات الأندلس، حتى في ذلك العصر الذي كان الإسلام يسيطر فيه على معظم أنحاء شبه الجزيرة الإسبانية، أن يستشف ما وراء هذا التفرق من الخطر الداهم.

ومن هنا يقول «ابن بسام الشنتريني» نقلاً عن ابن حيان، مؤرخ الأندلس في القرن الخامس الهجري، وبعد أن يصف حوادث خروج أهل بلنسية في قتال عدوهم، نجده، وقد ذكر: «وقد استوفينا في شرح هذه الفادحة مصائب جليلة، طالما حذر أسلافنا لحاقها، بما احتملوه عمن قبلهم من آثاره.»

ولم يكن هذا التنديد من جانب المؤرخ الأندلسي، بتواكل أهل الأندلس، وتخاذلهم عن نصرة دينهم، وإخوانهم، إلا أحد أشكال التعبير عن الحقيقة في عصر الطوائف.

ولا شك عند أولي الألباب أن ذلك مما دهانا من داء التقاطع، وقد أخذنا بالتواصل، والألفة، فأصبحنا من استشعار ذلك، والتمادي عليه على شفا جرف يؤدي إلى الهلكة لا محالة.

وأضاف: «نشأ من الناس هالع يعللون أنفسهم بالباطل، من أول الدلائل على فرط جهلهم، اغترارهم بزمانهم، وبُعدهم عن طاعة خالقهم، ورفضهم وصية نبيهم، وغفلتهم عن سد ثغرهم، حتى أطل عدوهم الساعي لإطفاء نورهم، يتبجح دورهم، ويستقري بسائط بقاعهم، يقطع كل يوم طرفًا، ويبيد أمة، ومن لدينا، وحوالينا من أهل كلمتنا صموت عن ذكراهم، لهاة عن بثهم، فنبذوا السلاح، وكلفوا بالترقيح، ونافسوا في النشب، وعطلوا الجهاد، وقعدوا

فوق الأرائك مقعد الجبابرة المتفاتنين من أهل موسطة الأندلس!

ينتظرون من ينبعث من أهلها للقتال عنهم حسبة، ولا يرفدون المختل ممن رابط إليهم بعليقه، فتبًّا لهم تبًّا، فتضعضع ثغرهم بتوالي هذه النكبات، ولحقت المسلمين بهم المضايق يكرب سماعها، حتى عمَّ تلك الثغور الجلاء وتوزع المسلمين البلاء، وخربت ديارهم، وبادت أثارهم».

ولم يكن هذا التنديد من جانب المؤرخ الأندلسي، بتواكل أهل الأندلس، وتخاذلهم عن نصرة دينهم وإخوانهم، إلا أحد أشكال التعبير عن الحقيقة في عصر الطوائف، ولقد ظهرت دلالات ذلك منذ سقطت طليطلة، أول قاعدة إسلامية كبيرة، في يد ألفونسو السادس ملك قشتالة سنة 478هـ (1085م)، حيث اتضح أن الأندلس أضحت على وشك الفناء، وأن دول الطوائف المنهكة الممزقة ستسقط تباعًا في يد عدوها القوي، وأن دولة الإسلام في إسبانيا ستُطوى، وتُختم حياتها المجيدة في شبه الجزيرة، وقد ساد الفزع، والتوجس يومئذٍ جنبات الأندلس كلها، حتى قال شاعرهم حينما سقطت طليطلة:

يـا أهل أندلس شدوا رحالكم فما المقام بهـا إلا من الغلط
السـلك ينثر من أطرافه وأرى سلك الجزيرة منثورًا من الوسط
من جاور الشر لا يأمن بوائقه كيف الحياة مع الحيات في سفط

لكن الدرس كان عميق الأثر، في جنح زعماء الطوائف للرشاد، وجمعت المحنة منهم الكلمة، وارتدوا إلى ما وراء البحر يلتمسون الغوث من «المرابطين» إخوانهم في الدين.

كان المرابطون يومئذٍ في عنفوان دولتهم، وأميرهم يوسف بن تاشفين يبسط سلطانه على أمم المغرب، من المحيط غربًا حتى تونس شرقًا، فاستجاب المرابطون لصراخ الطوائف، وعبروا البحر إلى الأندلس في قوات ضخمة، التقت الجيوش بقيادة يوسف بن تاشفين، بالجيوش الإسبانية بقيادة ألفونسو السادس في سهل

الزلاقة (رجب479هـ/ أكتوبر 1086م) فأحرز المسلمون نصرًا حاسمًا، وكانت موقعة الزلاقة من أيام الأندلس المشهورة، وانتعشت دول الطوائف، وقويت نفوس الأمة، وبدا أن الأندلس ستبدأ حياة جديدة.

لكن سرعان ما انقلب المرابطون على إخوانهم، وحلفائهم، وجذبتهم نعماء الأندلس، وثرواتها، وحطموا دول الطوائف، وبسطوا حكمهم على الأندلس زهاء نصف قرن، هنا جاشت القواعد الأندلسية بالثورة على المرابطين، وعبر الموحدون البحر إلى الأندلس، واستولوا تباعًا على قواعدها الكبرى، وبسطوا عليها حكمهم زهاء قرن آخر، وفي ظل الموحدين أحرزت الجيوش الإسلامية نصرها الحاسم على ألفونسو الثامن ملك قشتالة، بقيادة الخليفة الموحدى «يعقوب المنصور»، وذلك في موقعة الأرك الشهيرة (593 هـ/ 1195م).

لكن تلك الجيوش ما لبثت أن لقيت هزيمتها الحاسمة بعد ذلك بقليل في مواجهة جيوش إسبانيا، في عهد الخليفة محمد الناصر ولد المنصور في موقعة «العقاب» المشئومة، التي فنيت فيها معظم الجيوش الموحدية، والأندلسية (609 هـ/ 1212م)، كانت هزيمة العقاب ضربة شديدة لسلطان الموحدين، وللأندلس، فعاد شبح الفناء يلوح للأندلس قويًّا منذرًا، وسَرى التوجس إلى كُتَّاب العصر، وشعرائه، وظهر واضحًا في رسائلهم، وقصائدهم.

من هنا المأساة....

أننا لا نتعلم من وقائع التاريخ.... فنجد عند التدقيق في سقوط الأندلس كأنه يحكي واقع سقوط العرب حديثا...

تمزق الأندلس وضعف حكمها في ظل عدو متربص لها في الشمال، وكان يستعد لالتهام فريسته، كأنه الواقع الآن ضعف، وتمزق المسلمين في ظل وجود الصهاينة، والأمريكان، متربصين لالتهام الأموال، والثروات، وكسر المسلمين، كان ملوك المسلمين في دول الطوائف يستعينوا بعدوهم من أجل غزو بعضهم

البعض، والحفاظ على ملكهم هو أهم غاية لهم، والآن يحدث، ونراه، وذلك من أجل الحفاظ على حكمهم، ولا أهمية لدينهم، ولا أوطانهم، ولا الأخوة، وخير شاهد ما يحدث الآن بين العرب، وبعضهم البعض، ومقاطعة بعضهم البعض، وغياب الوحدة، والحوار بينهم.

ظهور دول خائنة بين ملوك الطوائف، ومراسلات بينهم، وبين الفونسو، وتهنئة بسقوط إشبيلية الدولة المسلمة القوية، كأننا نرى مشاهد كثيرة الآن تذكرنا بذلك، دول، وتحمل رايات الخيانة الآن بين المسلمين دولة نحسبها شقيقة، ولكنها للعدو صديقة، نجد مأساة البعد عن الدين، وظهور الفساد في جميع الطرقات، والقرى، وكل شبر عَجل في السقوط، كأنه الواقع الذي يعيشه المسلمين الآن، بُعد الجميع عن الدين، والعقيدة، ولم نربي أبطال على العقيدة، والوطن؛ بل نربيهم على الشهوة، والأنانية، والذاتية، وكيف يكون لصًا يسرق خير بلده، وأهله، فتمزقت الأمة بضعف ضمير أبنائها، وكأن لنا كل يوم سقوط، ولم نعتبر من التاريخ فهل من معتبر يا قارئ التاريخ، وكاتبه.

من هنا المأساة....

أن تكون قصة الموريسكيين أمامنا، وتتكرر في كثير من بلدان العالم الإسلامي، أن نرى عوامل سقوط الأندلس، ونعرفها بل نشاهدها أمامنا في كثير من بلدان عالمنا الإسلامي الآن، ونصمت، بل أكبر مأساة أن تكتب أنت نهايتك بيدك بدلًا من أن تكتب أعظم بداية، رغم ما تملكه من موارد، وثروات؛ لأنك لا تتعلم من دروس التاريخ، وتترك السلبيات، وتتمسك بالإيجابيات، أن تبني الإنسان بدلًا من أن تبني الحجارة، أن تتمسك بقضيتك، وعقيدتك بدلًا من أن تثق، وتجري وراء قوى الشر الدولية ظنًا أنها ساترك، ومصدر حمايتك، فلنا في الأندلس عبرة، فكان أول سقوط لكل من خان، وباع قضيته في سبيل إرضاء النصارى على حساب أبناء جلدته، وعقيدته، فكتب نهايته، ونهاية غيره قبل بدايته، فكان أعظم سقوط رغم أن الأندلس كانت أعظم بداية لأرقى حضارة علمت أوروبا، وبلدان العالم.... وما زلنا في هذه المأساة إلى وقتنا الحاضر فهل من معتبر يا قارئ، وكاتب التاريخ؟

المأساة الرابعة:
نهاية حضارة ونهاية أمير

نهاية غرناطة، وقراءة في معاهدة السقوط، فصول من الخيانة[7]

سقطت غرناطة في 2 ربيع الأول 897هـ/ 2 يناير (كانون الثاني) 1492 بتسليم الملك أبي عبد الله محمد الصغير إياها للملك فرديناند الخامس، بعد حصار خانق دام تسعة أشهر، دبَّ بعده الضعف في أوصال دولة الإسلام في الأندلس، وسرى الوهن في أطرافها، وراح العدو القشتالي يتربص بها، وينتظر اللحظة التي ينقض فيها على الجسد الواهن، فيمزقه، ويقضي عليه، ولم تصرفه القرون الطوال عن تحقيق أمله الطامح إلى إزالة الوجود الإسلامي في الأندلس، فلم يكد ينتصف القرن السابع الهجري حتى كانت ولاية الأندلس الشرقية، والوسطى في قبضة النصارى القشتاليين، وأصبحت حواضر الأندلس الكبرى أسيرة في قبضتهم؛ حيث سقطت قرطبة، وبلنسية، وأشبيلية، وبطليوس، وهي حواضر كانت تموج علمًا، وثقافة، وحضارة، أما ما تبقى من دولة الإسلام هناك فلم يكن سوى بضع ولايات صغيرة في الطرف الجنوبي من الأندلس، قامت فيها مملكة صغيرة عُرفت بمملكة غرناطة، شاءت الأقدار لها أن تحمل راية الإسلام أكثر من قرنين من الزمان، وأن تقيم حضارة زاهية، وحياة ثقافية رائعة، حتى انقض عليها الملكان المسيحيان «فرديناند الخامس» و«إيزابيلا» وحاصرا بقواتهما غرناطة في 12 جمادى الآخر 896 هـ/ 30 أبريل (نيسان) 1491 حصارًا شديدًا، وأتلفا الزروع المحيطة بالمدينة، وقطعا كل اتصال لها بالخارج، ومنعا أي مدد يمكن أن يأتي لنجدتها من المغرب الأقصى، حتى تستسلم المدينة، ويسقط آخر معقل للإسلام في الأندلس.

بدأ حصار غرناطة في 12 جمادي الثانية 896هـ/ 23 أبريل 1491م، وطال

عدة شهور، ولم يعد لدى المسلمين جلد على مجاهدته، وعرض النصارى معاهدة تضم ستًّا وخمسين مادة، وصل إلينا نصها العربي، كما وصل إلينا نصها القشتالي، في البداية كانت الروح العامة للمعاهدة طيبة، فهي تنص على بقاء المسلمين على حالهم التي كانوا عليها، وسمح لهم بحرياتهم الدينية كاملةً، وألا يؤدوا من الأموال، إلا ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم، وأن يسيروا وفق شرائعهم، وسمح لمن أراد بالعبور إلى المغرب بأولاده، وأمواله، وذُيلت المعاهدة بأن الملكين الكاثوليكيين يؤكدان هذا العهد، ويضمنانه بدينهما، وشرفهما الملكي[1].

وعند عرض الاتفاق على أهل غرناطة استقبلوه بوجوم، لكن المعارضة التي تزعمها موسى ابن أبي الغسَّان – وقد استشهد فيما بعد – كانت معارضة محدودةً، وفي 2 ربيع الأول 897هـ/ 2 يناير 1492 دخل الملكان الكاثوليكيان مدينة غرناطة، ونُصب صليب فضي كبير على برج الحراسة Torre de la vela وهو أعلى الأبراج بقصر الحمراء، ورُفعت إلى جواره راية القديس يعقوب، وراية قشتالة، وانطلق الرهبان يرددون الحمد لله (Te Deum Laudamus)[2].

ولنا أن نعقب على هذه المعاهدة، وظروفها، ولماذا قبِل بها الملكان مع أن كل بنودها كانت في صالح الطرف المنهزم، وأيضًا ليس له امتداد أو وجود بعد سقوط آخر الممالك الإسلامية على أرض إسبانيا، وهنا نجد أن نص بنود المعاهدة يحمل الروح الطيبة، وأن كل البنود كانت في صالح الطرف المنهزم، من حيث الحفاظ على الديانة، والممتلكات، والأعراض، وغيرها، ولكن كان ما وراء ذلك أمورًا

(1) بنود معاهدة تسليم غرناطة بين أبي عبدالله الصغير وفرناندو وإيزابيلا: وهي مكونة من 52 بندًا. وقد وردت بنودها في: محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، 245 – 250. محمد عبد الله جمال الدين: المسلمون المنصرون، دار الصحوة، القاهرة، 1991، ص22 – 32. مرثيدس غارثيا: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2003، ص31 – 35.

(2) عبادة كحيلة: القطوف الدواني في التاريخ الإسباني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2011، ص126.

غير واضحة، ينبغي التوقف أمامها لفهمها، وتفسيرها، وبيان سبب رضوخ الطرف المنتصر لهذه الشروط التي تقلل من نصره، وتقلل من هيبته أمام الكنيسة بصفته المدافع القوي، وحامي الدين، والكنيسة، وشعبه، لقد كانت المصلحة السياسية العامة تغلب هذا.

ونستطيع القول أن من الأسباب التي جعلت الملكين الكاثوليكيين يقبلون هذه المعاهدة ببنودها، ما يلي:

أولًا: وافق فرناندو، وإيزابيلا على المعاهدة لتيقنِهما من أن بنودها لن تُنفذ، ولن يُعتد بها، وإنما هي حبر على ورق، فكيف تُنفذ بعد سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين بالأندلس؛ بمعنى أنه لا توجد قوة تهددهم، وتعارضهم عندما لا تنفذ بنود المعاهدة، لقد اعتبرا أنه لا توجد معاهدة طالما لا توجد قوة تحميها، وتصونها وتدافع عنها، ومن هنا يمكن تفسير المعاهدة على أنها استسلام، وهو منطق سياسي بحت، حيث قاعدة (أن السلام بدون قوة تحميه هو استسلام لا سلام).

ثانيًا: إن الرسائل المتبادلة بين وزيري أبي عبد الله الصغير (المليح وابن قماشة)، وسكرتير الملكيين توضح ما سبق؛ حيث طلب الأمان لهم، ولضِياعهم مقابل دخول الإسبان بجيوشهم غرناطة، وعدم تعرض الأهالي لهم، وهذا ما حدث بالفعل، ويؤكد هذا نصوص الرسائل التي تم العثور عليها، حيث تأكد الملكان من عدم إخلاص هؤلاء، واستسلامهم، فاستغلوا هذا، وحافظوا على جيوشهم، وأفرادها، وأحرجوا هؤلاء أمام شعبهم، وأمام التاريخ[1].

ثالثًا: نجد أن الملكان فرناندو، وإيزابيلا قد وافقا على شروط هذه المعاهدة بناءً على اتفاق مُسبق، وسري، بين وزيري أبي عبد الله الصغير، وبعلمه، لحفظ ماء وجه

---

(1) ماريا دل كارمن: كيف كانت حقيقة سقوط غرناطة – فصول من تاريخ الأندلس، ترجمة: عبدالفتاح عوض، ط1، عين للدراسات والبحوث، القاهرة 2009، ص131.
https://www.sasapost.com/wp-content/uploads/400350-366773226671545-232931600055709-1578871-1789316800-n.jpg

الملك أبي عبد الله الصغير أمام شعب غرناطة، وأمام ضميره تجاه دينه، وأيضًا حفظاً لهيبته، وذلك على أساس أنه عند قبول شروط المعاهدة من قِبل الملكين الإسبانيين، يخرج أبي عبد الله الصغير من مأزق كبير، وهو عدم التفسير بأنه باع وطنه، وباع دينه، ولم يدافع عنهم لآخر قطرة دم، ولعل هذا ما أوضحته الوثائق، والمصادر بعد ذلك، حيث أوضحت موقفه المخزي، وثقته فيمن حاربوا دينه، وحاربوه على مدى عهود طويلة، ونرى أن وزيريه (أبا القاسم المليح، ويوسف بن قماشة) هما من أوقعاه في هذا؛ وذلك لحفاظهم على أنفسهم، وضِياعهم، وأملاكهم، وخذَلاه، وهذا ما تُوضحه الرسائل السرية بينهم، وبين الإسبان، لقد أقنعاه بقبول المعاهدة، وبقبول الإسبان لها، حافظوا على جيوشهم، ودخلوا غرناطة بروح الانتصار في ظِل انكسار أهل غرناطة، وملوكهم، وتحسرهم على موقفهم، وسلبياتهم؛ وأيضًا رأى الملكان بنظرهم أن هذا الاتفاقية مؤقتة، وغير مستديمه؛ فقبلوها.

رابعًا: إن أبا عبد الله الصغير كقائد، وملك كان على يقين من أن بنود الاتفاقية كانت حبرًا على ورق، وأن الملكان الكاثوليكيان فرناندو، وإيزابيلا لا يعتدان بهذه البنود؛ لأنهما متزعمين راية المسيحية، وهما من يقومان على حراستها، والعمل على انتشارها، فكيف يسمحون أن تقام شعائر دين الإسلام على أراضيهم، وهي في ذلك الوقت المتزعمة للمسيحية، فكيف خيل لأبي عبد الله أن هؤلاء سيحافظون على ما تم الاتفاق عليه، فإذا صدق هذا فنرى أنه ليس لديه رؤية، وزعامة لتلك المملكة، ومُلكه، فمن هنا يؤخذ عليه أنه لم يرفع راية البشرات، وعلى أحد جبال غرناطة نظر إليها، وأجهش بالبكاء، فقالت له أمه: أجل، فلتبكِ كالنساء مُلكًا لم تستطع أن تدافع عنه كالرجال، هذا وإن قاد الجهاد ضد الملكين الكاثوليكيين، ومات مدافعًا عن دينه، ووطنه.

في البداية غادر أبو عبد الله، وأمه الحرة عائشة مدينة غرناطة، وسُمي هذا المكان فيما بعد بزفرة المسلم الأخيرة (El Ultimo Suspiro del moro)[1].

(1) واشنطن ايرفنغ: سقوط غرناطة، ترجمة: هلاني يحيى نصري، ط1، مؤسسة الانتشار العربي – لندن 2000م، ص407.

استقر أبو عبد الله – الذي دعاه الإسبان بـ(Boabdil) والملك الصغير (El Rey Chico). استقر بقرية أُنْدَرَش Andarax، وكان فرناندو قد أقطعها له، ولم يتهيأ له المقام بها سوى عام، وبضع العام، ثم عبر البحر إلى المغرب، فقصد مليلة ثم فاس، حيث عاش إلى أن مات في سنة 940هـ / 1534، وقد تدهورت الأحوال بولده بعده، وصاروا في زمن المقري (ت 1041هـ/ 1632)، أي بعد مائة عام، ونحوها، يعيشون على أموال الصدقات[1].

من هنا المأساة....

هكذا كانت نهاية غرناطة، ونهاية آخر ملوكها أبي عبد الله الصغير، ولتأتي فترة أخرى في حياة المسلمين بعد السقوط وتسمى حياة الموريسكيين، من هنا المأساة عندما تأتيك الفرصة لتدافع عن قضيتك، وترفض بل تستسلم، فتكون نهايتك زوال مُلكك، والعيش على الصدقات، فكُن صاحب حلم مصابر مدافع عن هدفك، وقضيتك لآخر نفس فيك، فإذا تحقق الحلم، فسيكون أجمل واقع، وإن لم يتحقق؛ يكفيك شرف المحاولة، والمصابرة، يكفيك قوة معصمك، وكرامتك، وأن ترفع رأسك بشرف بدل من أن تُهان في كل لحظة، لأنك كنت أنت المقصر، والمفرط في حق نفسك، وحق هدفك، وقضيتك، فلنا في أبي عبدالله الصغير مثال، فبكى على ضياع ملكه، فهل نفع البكاء بشيء، وهل بكى بعد أن دافع بشراهة عن ملكه؟ فالسلام بدون قوة تحميه هو استسلام، وخنوع، فنعيش هذه المأساة الآن، تهان، وتُضطهد كل الأقليات الإسلامية في كافة بلدان العالم، فكل ما نملكه هو التنديد أو ثورة اللايكات، والشير، فظل الكلام، والبكاء صنعتنا بدلًا من أن يكون الفعل، والواقع صفتنا، من هنا المأساة أننا نبكي بعد فوات الأوان بعد أن نقصر، ونهمل، ونبيع القضية بأرخص الأثمان، فيكون الثمن هو الأوطان، فهل من معتبر يا قارئ، وكاتب التاريخ؟

---

(1) المقري: نفح الطيب،، ج3، ص635.

المأساة الخامسة:
ضياع الحلم والكثير يشاهد
«مواقف حكام المغرب العربى
من الأندلس حتى سقوطها»

مواقف حكام المغرب من الأندلس ما بين الإجابة، والتفكك[8]

ساهمت أوضاع المسلمين في بقية العالم الإسلامي في زيادة تدهور وضعية مُسلمي الأندلس، ويمكن عرض هذه المواقف فيما يلي:

موقف سلاطين بني مرين:

كان مسلمو الأندلس كلما اشتد بهم الأمر استنجدوا بملوك المغرب، لاسيما ملوك بني مرين الذين ساروا على نهج المرابطين، والموحدين الذين كانوا ينهضون للتدخل لحماية الأندلس كلما ضاق الأمر بأهلها، فالسلطان المريني أبو يوسف المنصور (815هـ / 1286م) على سبيل المثال، عبر إلى الأندلس أربع مرات لإغاثة أهلها، ووصلت جيوشه ليس فقط إلى طليطلة، وقرطبة، بل إلى مدريد، وهي قريبة من آخر معقل وصل إليه الإسلام في الأندلس، وبذلك ساهم في إنقاذ غرناطة من الانهيار السريع أمام ضربات ملوك قشتالة، وأرجون[1].

ورغم الجهود التي بذلها بنو مرين لحماية الأندلس، لم يتمكنوا من تحقيق

(1) إبراهيم بن عطية بن هلال: العدوة الأندلسية منذ عصر ملوك الطوائف إلى سقوطها في أيدي الأسبان، رسالة دكتوراه، جامعة أم القرى، المملكة العربية السعودية 1430هـ - 2009، ص198.

انتصارات ساحـقة كتلك التي حققها المرابطون في معركة الزلاقة، والموحدون في معركة الأرك، أما السبب في ذلك فهو أن المرينيين كانوا يقاتلون بإمكانياتهم الذاتية، بينما كان المرابطون، والموحدون يقاتلون بإمكانيات المغرب العربي كله، ومهما يكن من أمر، فإن بني مرين ساهموا بدور فعّال في حماية الأندلس قبل أن يدخلوا في دوامة الفوضى، والاضطراب، والحروب الداخلية ضد منافسيهم من جهة، وضد جيرانهم من جهة ثانية، بالإضافة إلى الأوضاع الاقتصادية المزرية التي كان يمر بها المغرب في هذه الفترة على وجه الخصوص، والتي حالت دون تمكن المرينين، أو الوطاسيين من إنقاذ الأندلس، بل جعلتهم عاجزين حتى عن حماية سواحلهم من الاحتلال الإسباني، والبرتغالي، ولقد كتب المؤرخ الرحالة المصري عبد الباسط بن خليل الحنفي، الذي زار شمال أفريقيا مطلع القرن السادس عشر، وعاين أوضاع المغرب في هذه الفترة: «ووقع بفاس، وأعمالها خطوب، وحروب، وفتن، وأهوال، وفساد عظيم، وخراب بلاد، وهلاك عباد، وأخذت الفرنج في تلك الفترات عدة مدن من منابر العـدوة، مثل طنجة، وأصيلًا، وغير ذلك.. ولا زالت الفتن، والشرور قائمة مستصحبة بتلك البلاد مدة سنين، بل إلى يومنا هذا»[1].

كانت الحواضر الأندلسية تتهاوى أمام ضربات الإسبان، ورسائل الاستغاثة تتوالى من أهل الأندلس على ملوك المغرب، لكن هؤلاء كانوا أعجز من أن يقوموا بتقديم عون جدي لمسلمي الأندلس، ولقد كتب مؤرخ أندلسي مجهول عاصر مأساة غرناطة: «إن إخواننا المسلمين من أهل عدوة المغرب بعثنا إليهم، فلم يأتنا أحد منهم، ولا عرج على نصرتنا، وإغاثتنا، وعدونا قد بنى علينا، وسكن، وهو يزداد قوة، ونحن نزداد ضعفًا، والمَدد يأتيه من بلاده، ونحن لا مدد لـنا.»[2].

---

(1) عمر عبدالسلام: رحلة عبدالباسط الظاهري في بلاد المغرب والأندلس، الجامعة اللبنانية، طرابلس 2000، ص66.

(2) المؤرخ المجهول: أخبار العصر في انقضاء دولة بني نصر، تحقيق: حسين مؤنس، ط1، مطابع الزهراء للإعلام العربي، القاهرة1991، ص 105.

موقف السلاطين الحفصيين:

وكما كان أهل الأندلس يستغيثون بملوك المغرب، فإنهم كانوا يلجأون إلى ملوك بني حفص، خصوصًا عندما لا يجدون من ملوك المغرب آذانا مصغية، فمن ذلك أنه عندما سقطت بلنسية، أرسل أهلها إلى أبي زكريا الحفصي يستمدون منه النجدة، والمدد، وجعلوا على رأس بعثتهم شاعرهم ابن الأَبَّار القُضاعي الذي ألقى بين يديه قصيدته الشهيرة التي مطلعها:أدرك بخيلك خيل الله أندلسا إن السبيل إلى منجاتها قد درسا.

ولم تكن بلنسية وحدها التي بايعت أبا زكريا الحفصي، وطلبت منه المدد، بل بايعه كذلك أهل إشبيلية، وأهل المريَّة.

إلا أن موقف أبي زكريا من استنجاد أهل الأندلس لم يتناسب مع خطورة الوضع، ذلك لأنه لم يكن يملك القوة الكافية التي تمكنه من إنقاذ الأندلس التي كانت ظروفها تقتضي اقتحام الحفصيين للأندلس، والقضاء على رؤوس الفتنة من ملوك الطوائف، وهو ما لم يكن يقدر عليه أبو زكريا، ولذلك اكتفى بإرسال أسطول مشحون بالطعام، والسلاح، والمال، لكن هذا المَدد لم يصل إلى المحصورين في بلنسية، كما أرسل بمَدد آخر أثناء حصار إشبيلية، لكن المَدد استولى عليه العدو، كما استولى على إشبيلية فيما بعد، وأثناء حصار غرناطة، أو بعد سقوطها، خصوصًا إذا علمنا أن سواحل تونس نفسها لم تنجُ من الاحتلال الإسباني، أضف إلى ذلك أن الجيش الحفصي، الذي كان ذات يوم يُعتبر من أفضل جيوش شمال إفريقيا، كان قد تحلل، وأصبح عاجزًا عن مقاومة أي عدو، بل فقد سيطرته حتى على الأعراب الذين كانوا يعيثون فسادًا في البوادي، وأطراف المدن؛ الأمر الذي جعل الملوك الحفصيين يستعينون بالمرتزقة من الجنود الإيطاليين، والإسبان، والزنوج، وغيرهم[1].

(1) المقري: أزهار الرياض، ص 208 – 209.

موقف ملوك الدولة الزيانية:

لم تكن أحداث الأندلس بعيدة عن اهتمامات ملوك بني زيان، ذلك لأن أهل الأندلس كانوا يلجأون إلى الزيانيين مستنجدين بهم عندما تضيق بهم السبل، فمن ذلك أنه عندما ضيق الإسبان الخناق على غرناطة، استصرخ ملكها أبو عبد الله بأبي حمو الزياني، بقصيدة من نظم الشيخ الفقيه أبي البركات محمد بن أبي إبراهيم البلفيقي مطلعها: هل من مُجيب دعوة المستنجد أمْ من مُجير للغريب المفرد

كما استنجده برسالة من إنشاء الوزير لسان ابن الخطيب ذكر فيها أنهم: لم يعانوا منذ أن فتحت الأندلس شـدة، وضيقًا أشدّ مما هم عليه الآن، وذكر بأن ملك النصارى جمع لهم جيوشًا من سائر الأمم النصرانية، وأنهم قاموا بإحراق الزروع، والمسلمون ليس لهم مغيث يلجأون إليه – بعد الله – سوى إخوانهم في الدين، وذكر أنهم كانوا قد أعلموا المرينيين بهذا الخطر، وأنهم يقومون بما يقدرون عليه من دعم، ومساندة.

وأنهم لا يملكون غير أنفسهم، وقد بذلوها في سبيل الله، وهم ينتظرون نجدتكم[1].

وهنا قام أبو حمو الزياني بإرسال الأحمال العديدة من الذهب، والفضة، والخيل، والطعام، وبفضل هذا المَدد أمكن لأهل غرناطة أن يثبتوا للدفاع عن مدينتهم فترة أطول[2].

كما كانت أوضاع الحفصيين، والمرينيين، ثم الوطاسيين، لا تؤهلهم للدفاع عن بلادهم، فضلًا عن إنقاذ الأندلس، كانت المملكة الزيانية تعيش نفس الظروف المتدهورة، ولذلك تعذر على ملوكها تقديم أي دعم جدي لأهل غرناطة أو

(1) ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة،ج2، ص85.

(2) أبي زكريا يحيى ابن خلدون: بغية الرواد في ذكرى الملوك من بني عبدالواد، مطبعة بيير الشرقية، الجزائر 1903، ص 152.

غيرها، ففي المغرب – على سبيل المثال – كان الصراع على أشده بين بني وطاس، والسعديين، كما أن إسبانيا كانت لها اتفاقية مع الوطاسيين سنة 945هـ/ 1538م. زِدْ على ذلك تحكم الإسبان، والبرتغال في السواحل المغربية؛ كل ذلك جعل من الصعب على المغاربة إنقاذ إخوانهم الأندلسيين، وحتى بعد تحقيق المغرب لوحدته الترابية، حالت ظروف مستجدة دون تقديم يد المساعدة لهم، وأهمها السيطرة التركية على الجزائر[1].

موقف الجزائر:

كانت تخوفات إسبانيا في محلها، فالجزائر كانت قد قررت مساعدة المسلمين على المستويين الشعبي، والرسمي، فعلى المستوى الشعبي نجد أن السكان – وبدافع الحماس الديني – هبُّوا لنجدة إخوانهم بما يملكون من الوسائل، وقد حمسهم خاصة المهاجرون الأندلسيون، أما على المستوى الرسمي فقد طبق بايات الجزائر الأوامر التي تلقوها من إستانبول[2].

ومن خلال ما سبق يمكننا تسجيل الملاحظات التالية:

– أن الأحداث الدولية في منطقة البحر المتوسط خلال النصف الأول من القرن السادس عشر الميلادي كانت تخضع لتأثير قوتين كبيرتين متصارعتين هما الدولة العثمانية، والدولة الإسبانية.

– أن حالة الضعف، والتفكك التي شهدها المغرب الإسلامي جعلته عرضة للأطماع الاستعمارية الأوروبية، وخاصة إسبانيا بدافع الحقد المسيحي، وتحقيق مشروع استعماري ضخم يهدف إلى ابتلاع المنطقة بكاملها.

---

(1) محمد جمال الدين عبد الله: المسلمون المنصرون، دار الصحوة القاهرة، ص43 – 44.

(2) أحمد توفيق المدني: انهيار بلاد الأندلس وموقف دول الإسلام وإسطنبول من ذلك، مجلة الأصالة، الجزائر 1975، عدد 27، ص179 – 183.

– أن ظهور الإخوة بربروسا، وتأسيس ولاية الجزائر، جعل منها قلعة أمامية إسلامية حصينة في الحوض الغربي للبحر المتوسط، وطرفًا فاعلًا في العلاقات الدولية آنذاك، هذه المكانة كان لها تأثيرات؛ منها الحملة الدولية عليها بزعامة إسبانيا في عام 948هـ/ 1541م.

من هنا المأساة....

أن يتصارع الجميع من أجل ذاته، ومُلكه، ويترك القضية الأهم ألا، وهي قضية وحدة الأمة، وعزتها، فعندما كانت الأندلس الفردوس المفقود تُسلب من الأمة الإسلامية كان الحكام في خصام، وشقاق، وصراع على سلطة زائلة، فضاعت الأندلس كما ضاعت فلسطين، وغيرها، فمأساتنا الكبرى فيمن يحكموننا، كأن كُتب على هذه الأمة أن يحكمها من يجهل بالأمر، ويتشبع بالفردية الأنانية، والنرجسية الزائدة، فيكون دومًا الفقدان للأراضي، والمقدسات من نصيب هذه الأمة، فلنا في مآسي الموريسكيين، وسقوط غرناطة خير دليل، أم الدليل على التناحر، وحب الذات ملوك الطوائف التي سبقت منطقة المغرب العربي آنذاك في صفة التناحر، والتقرب لأعداء الأمة، فواقع أمس نراه في حاضر اليوم، وخير شاهد صراع الجيران أصحاب الدين الواحد، والعرق الواحد، والتاريخ المشترك سواء في غرب أو شرق عالمنا العربي، فبسبب هذه الصراعات ضاعت الأندلس، وفلسطين اليوم، فأصبحنا بحاجة إلى جيل يؤمن بوحدته، وبمنهج اعتصموا بحبل الله، حتى تُعاد أمجاد، وعزة، وأراضي هذه الأمة، فهل من معتبر يا قارئ التاريخ؟

المأساة السادسة:
تبخر الحلم وتقاعس الكبار

مواقف المماليك، والعثمانيين، وتبخر حلم الأندلس[9].

ساهمت أوضاع المسلمين في بقية العالم الإسلامي في زيادة تدهور وضعية مُسلمي الأندلس، ويمكن عرض أهم مواقف القوى الإسلامية حين ذاك، وموقفهم من قضية الأندلس، ودعمهم للقضية، إلى أن سقطت آخر معاقل المسلمين في الأندلس غرناطة عام 1492م: ومن هذه المواقف ما يلي:

موقف دولة المماليك في مصر: كان موقف المماليك سلبيًا، وإن اعتبر البعض أن السبب في ذلك يعود إلى بُعد الأندلس، بالإضافة إلى أن المماليك لم يكن لهم أسطول قوي يستطيع مواجهة البحرية القشتالية، لأنهم أصحاب خيل، وقوتهم برية، وليست بحرية، كما أن المماليك كانوا قد رسموا سياستهم الخارجية على أساس الاتجاه نحو الشرق لدفع خطر المغول، ثم للتصدي بعد ذلك لمشاريع الدولة العثمانية التي كانت تهدف لتقويض دولة المماليك، وهكذا فرغم وصول أصوات الإغاثة إليهم، إلا أنهم تشاغلوا عن نجدة إخوانهم في الأندلس[1].

ونلاحظ أن أوضاع الأندلس لم يكن لها أدنى تأثير على العلاقات الودية التي كانت تربط المماليك بإسبانيا، ففي 2 يناير 1477م طلب فرناندو من البابا، أن يأذن له ببيع القمح للسلطان قايتباي في مصر، وضرب بذلك عصفورين بحجر واحد؛ فقد تمكن عن طريق ثمن هذا القمح من الاستمرار في حربه ضد مسلمي

(1) عبدالقادر الميلق: تأثير ثورات الموريسكيين الأندلسيين على العلاقات الجزائرية الإسبانية، رسالة ماجستير، جامعة غرداية، كلية العلوم الإنسانية والاجتماعية، الجزائر 2013، ص28.

الأندلس، كما اعتقد أنه بذلك يقوي مركز المماليك ضد الأتراك العثمانيين الذين كان ظهورهم خطرًا على دول أوروبا[1].

وسط هذه الأوضاع راسل سلاطين المغرب السلطان قانصوة الغوري (1501 – 1516م) يلتمسون منه العون ضد الخطر الإسباني، وأن يقوم بطرد التجار الأوربيين المقيمين في بلاده، وغلق كنيسة القيامة في وجه حُجاجهم، لكن المحاولة باءت بالفشل، وسرعان ما علم فرناندو بهذه الأنباء، وأرسل «ليدو مازكيردي إنجيرا» سفيرًا إلى الغوري، ونجح هذا السفير في تحسين العلاقات بين مصر المملوكية، وإسبانيا[2].

لقد اتجه الأندلسيون شرقًا إلى دولة المماليك بمصر، والتي كانت على دراية بأوضاعهم، على أن أهل الأندلس لم يحاولوا الحصول على دعم عسكري، بل كان همهم الوحيد هو توسط المماليك دبلوماسيًا لدى الإسبان، والتهديد بمعاملة المسيحيين في بيت المقدس – الخاضع لهم – بنفس المعاملة التي يعامل بها الإسبان المسلمين في الأندلس[3].

ونتيجة لزيادة الاتصالات بين الأندلسيين، وقوى إسلامية، ولتفادي حدوث أي تعاون بين الجانبين، قامت إسبانيا من جهتها بإرسال مبعوثها الخاص «بدرو مارتر» للحيلولة دون إلحاق أي أذى بالمسيحيين، وقد حاول هذا المبعوث إضفاء طابع الشرعية على الأعمال التي تقوم بها إسبانيا في حق الموريسكيين[4] بإعطاء

(1) دومنيغيث – برنارد فينست: تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية، ترجمة: عبد العال صالح، مراجعة: جمال عبد الرحمن، المجلس الأعلى للثقافة، ط1،القاهرة2007، ص18.

(2) أحمد محمد الطوخي: المماليك والأندلس، مؤسسة شباب الجامعة، القاهرة1996، ص33.

(3) ليونارد باتريك هارفى: تاريخ المورسكيين السياسى والاجتماعى والثقافى، ضمن أعمال الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1998، ج1، ص114.

(4) عبد العزيز سالم: علاقة مصر المملوكية بغرناطة قبيل وعقب سقوطها، منشورات زغوان 1993، ج2، ص114.

مبررات واهية من قَبيل، أن للإسبان الحق في استعادة أرضهم التي كانت ذات يوم مسيحية بيد القوط، أو القول بأن الموريسكيين اختاروا التنصير بمحض إرادتهم، فاستطاع بذلك إقناع المماليك بعدم جعل المسيحيين بالمشرق رهائن لمسلمي إسبانيا، بل تمكن من إقناع المماليك بإسقاط المغارم، والفروض عليهم، بأسلوب الترغيب تارة، وبالترهيب تارة أخرى[1].

موقف الدولة العثمانية: أرسل أهل غرناطة في منتصف سنة 1477 – أي قبل سقوط غرناطة بأربعة عشر عامًا – سفارة إلى إسطانبول، وجهوا فيه نظر السلطان محمد الفاتح إلى تدهور أوضاع المسلمين في الأندلس، وناشدوه التدخل لإنقاذهم، لكن كان في حكم المستحيل أن يستجيب السلطان الفاتح لهذه الاستغاثة، لأنه كان هو الآخر مضطرًا إلى مواجهة تحالف صليبي ضم البابا سكست الرابع (TX. Sixte 1471 – 1484)، وجنوة، ونابولي، والمجر، وترانسلفانيا، وفرسان القديس يوحنا في جزيرة رودس، وعددًا من الزعماء الألبان الذين كانوا يضمرون عداءًا شديدًا للدولة العثمانية، ثم استنجد الأندلسيين مرة أخرى بعد وفاة محمد الفاتح، بابنه السلطان بايزيد الثاني (1480 – 1511م)، إلا أن بايزيد كانت قد تزاحمت عليها أزمات داخلية، وخارجية كثيرة منعته من إغاثة مسلمي الأندلس منها: صراعه مع أخيه جم (1481 – 1495)، وحربه مع المماليك في أدنة سنة 1485 – 1491، بالإضافة إلى الحرب مع ترانسلفانيا، والمجر، والبندقية، ثم تكوين تحالف صليبي آخر ضد الدولة العثمانية من طرف البابا يوليوس الثاني، وجمهورية البندقية، والمجر، وفرنسا، وما أسفر عن هذا التحالف من حرب أدت لتنازل العثمانيين عن بعض ممتلكاتهم، ولقد انتهى حكم السلطان بايزيد بصراع بين أبنائه، أدى إلى تنحيته عن العرش، ثم موته في ظروف مشبوهة[2].

---

(1) ليونارد باتريك، المرجع السابق، 324.

(2) نسيبة عبدالعزيز الحاج – رابحة محمد خضير: موقف الدولة العثمانية من محنة الأندلس: مجلة جامعة كركوك للدراسات الإنسانية، المجلد 7، العدد3، لسنة 2012، ص5.

ورغم الظروف الصعبة التي كانت تعيشها الدولة العثمانية في تلك الفترة من تاريخها، فإن السلطان بايزيد لم يهمل استغاثة أهل الأندلس، بل حاول أن يقدم لهم ما يستطيعه من أوجه الدعم، والمساندة، فأرسل إلى البابا رسولاً يعلمه بأنه سيعامل المسيحيين في إسطانبول، وسائر مملكته بنفس المعاملة إذا أصر ملك قشتالة على الاستمرار في محاصرة المسلمين في غرناطة، والتضييق عليهم، وبالفعل أرسل أسطولاً بحريًا بقيادة كمال ريس إلى الشواطئ الإسبانية سنة 1486م، فقام بتخريب السواحل الإسبانية، والإيطالية، ومالطا، ونقل أولى قوافل المهاجرين المسلمين، واليهود إلى أراضي الدولة العثمانية.

وبحسب رواية أخرى غير مؤكدة، فإن السلطان الحفصي عبد المؤمن، بعد نجاح وساطته في عقد صلح بين الدولتين العثمانية، والمملوكية، سعى إلى عقد اتفاق تحالف آخر بين الحفصيين، والعثمانيين، والمماليك؛ لدعم مسلمي الأندلس.

وكان الاتفاق يقضي بأن يرسل العثمانيون أسطولاً إلى سواحل إيطاليا تكون مهمته إلهاء الإسبان؛ بينما يستغل الفرصة، ويقوم المماليك بإرسال قوات تنطلق من شمال إفريقيا إلى الأندلس لنجدة مسلميها.

وهكذا، وبسبب المشاكل الداخلية، والخارجية التي كانت تعيشها الدولة العثمانية، لم يتمكن العثمانيون في عصر بايزيد، وقبل ذلك في عصر الفاتح من إغاثة مسلمي الأندلس، كما أن التهديدات، والغارات التي شنّها كمال ريس على السواحل الإسبانية، لم تثنِ الملكين الإسبانيين عن قرار إنهاء الوجود الإسلامي من إسبانيا المسيحية.

وبهذه المواقف يتضح أن سقوط غرناطة ارتبط بعدد من الأسباب التي كان يمر بها العالم الإسلامي وقتها، وضياع غرناطة، وما تبعه من طرد المسلمين كان نتيجة متوقعة في ضوء الأحداث التي مرت بها الأمة[1].

(1) عبدالجليل التميمى: الدولة العثمانية وقضية الموريسكيين، بحث منشور في المجلة التاريخية المغربية، العددان 23 – 24، ص53 – 62.

وبعدها عقد الموريسكيون آمالهم على العثمانيين، خاصة بعد النجاح الذي حققوه في شمال أفريقيا، وانتصاراتهم على الإسبان بقيادة خير الدين الذي لقَى استحسانًا كبيرًا من لدن مسلمي الأندلس، كما جاء في رسالة بعث بها أهالي غرناطة إلى السلطان سليمان القانوني سنة 948هـ/ 1514م، ومما جاء فيها: «وقد كان يُجَوِّز لنا الوزير المجاهد في سبيل الله خير الدين، وناصر الدين، سيف الله على الكافرين علم بأحوالنا، وما نجده من عظيم أهوالنا لما كان بالجزائر، واجتمع أهل الإسلام على طاعة مولانا، ومحبته بالخواطر، والضمائر، وانتظم الشرع، والأمان في البادي، والحاضر، فاستغثنا به فأغاثنا، وكان سبب خلاص كثير من المسلمين من أيدي الكفرة المتمردين، ونقلهم إلى أرض الإسلام، وتحت إيالة طاعة مولانا السلطان، ولعمارة مدينة برشك، وشرشال، ونواحي تلمسان.»[1].

استمرت آمال الأندلسيين متعلقة بالسلطنة العثمانية، فتواصلت المراسلات بين الطرفين، خاصة من الجانب الأندلسي، وتضمنت هذه الرسائل قصائد[2] تصف أوضاعهم المزرية، والاضطهاد الذي لاقوه من قِبل الإسبان، من جهتها قدمت الحكومة العثمانية بعض المساعدات للأندلس، وتذكر بعض الدراسات أنه، وفي عام 977هـ/ 1569م، وصل إلى غشت 4000 رجل تركي، وبربري من بين 25000 مقاتل ضمن مساعدة أخرى وصلت في حزيران – يونيو، حيث تم ضبطها، وكشفها في الوقت المناسب[3].

من هنا المأساة....

رغم ذلك ظلت هذه المساعدات غير كافية؛ ويرجع هذا إلى كون العثمانيين كانوا منشغلين بفتح قبرص، ثم بالمناوشات الواقعة بينهم، وبين روسيا المجاورة،

(1) محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16 – 17، أفريقيا الشرق، الدار البيضاء، 1991، ص85، 86.

(2) المقري: أزهار الرياض، ج1، المصدر السابق، ص109 – 115.

(3) دومنيغيث أورتيث – برنارد فينسينت: المرجع السابق، ص60.

وقد زاد الطين بلة هزيمة الأسطول العثماني في معركة ليبانتو أمام البحرية الإسبانية في عام 987هـ/ 1571م، مما جعل الدولة العثمانية تدخل في هدنة غير معلنة مع فيليب الثاني، وبالتالي تتخلى عن الجهة الغربية للبحر المتوسط[1] فتبخر حلم الأندلسيين، من هنا المأساة عندما تعلو المصلحة الشخصية عن المصلحة العامة، وأن يكون النزاع بين الكبار على السلطة.. لا قضية وطن، وأمة، فتكون النتيجة الضياع للسلطة، والوطن، والأمة، من هنا المأساة عندما لا تحدد أهدافك، وأولوياتك، وتحارب في كافة الجبهات، وفي وقتًا واحدًا دون أن تخطط، وتضع الأهم فالمهم، فالتخطيط كان من صفات نبينا الكريم في كل شيء حتى في أبسط أموره، فتاهت الدولة العثمانية عندما حاربت الجميع في وقت واحد دون تخطيط، فبدأت تمرض، وتتهاوى، ومع هذا المرض بدأت تسقط قوى الدولة الإسلامية الطامحة في مساعدتها، ودعمها، هكذا الإنسان عندما يحارب الجميع دون أن يحدد هدفه فيسقط، ويسقط كل شيء بيده معه.

من هنا المأساة....

عندما نرى تقاعس الكبار في الماضي تجاه قضايا الأمة فخسروا الأندلس الفردوس المفقود، ومع ذلك نرى المأساة نفسها اليوم عندما تقاعست حكومات الأمم الإسلامية تجاه قضايا الأمة، فظهر المد الشيعي، والصهيوني تجاه الدول الإسلامية، فخسرت الأمة أراضيها، ومقدساتها في فلسطين، واليمن، وسوريا، والعراق.... فهل من معتبر يا قارئ التاريخ، وكاتبه؟

(1) F. Braudel, La Mediterranee et le monde mediterraneen a l,époque de philippe ll:, 4Ed Armand. Colin, Paris 1979, T.ll,p 394 - 395.

المأساة السابعة:
مأساة بطل لم ينصفه التاريخ...
آخر مجاهدي الأندلس

موسى بن أبي غسان.. آخر مجاهدي الأندلس[10]

برز في هذا الحصار الأخير داخل غرناطة حركة جهادية بارزة، على رأسها رجل يُسمى موسى بن أبي غسان، فكان أن حرَّك الجهاد في قلوب الناس، وبدأ يُحَمِّسهم على الموت في سبيل الله، وعلى الدفاع عن بلدهم، وهويتهم، فاستجاب له الشعب، وتحرك للدفاع عن غرناطة.

وطيلة سبعة أشهر كاملة ظل أصحاب الانتفاضة في دفاعهم عن حصون غرناطة ضد الهجمات النصرانية الشرسة، وإليك طرفًا من هذا الصمود يحكيه الفارس المعاصر صاحب كتاب نبذة العصر:

«رجع ملك قشتالة إلى فحص غرناطة، ونزل بمحلته بقرية عتقة، ثم شرع في البناء، فبنى هنالك سورًا كبيرًا في أيام قلائل، وصار يهدم القرى، ويأخذ ما فيها من آلة البناء، ويجعله على العجل، ويحمله إلى ذلك البلد الذي بناه، ويبني به، وهو مع ذلك يقاتل المسلمين، ويقاتلونه قتالاً شديدًا، وحارب ملك الروم – أيضًا – أبراج القرى الدائرة بغرناطة وأخذها، ولم يبقَ إلا قرية الفخار، فلم يزل يُلِحُّ عليها، ويجلب عليها بخيله، ورجله، ويطمع أن يجد فرصة فلم يقدر على شيء، حتى قتل له عليها خلق كثير من الروم، ووقعت عليها ملاحم كثيرة بين المسلمين والنصارى؛ لأن المسلمين كانوا يُلِحُّون على حمايتها خوفًا من أن يملكها الروم؛ فتكون سببًا في إخلاء قرى الجبل، وحصار البلد، فلم يزالوا يدافعون

عنها، ويقاتلون مَنْ قصدها؛ حتى قصر عنها العدو؛ لكثرة ما قُتل له عليها من خيل، ورجال.

ولم تزل الحرب متصلة بين المسلمين، والنصارى كل يوم؛ تارة في أرض الفخار، وتارة في أرض بليانة، وتارة في أرض رسانة، وتارة في أرض طفير، وتارة في أرض يعمور، وتارة في أرض الجدوى، وتارة في أرض رملة أفلوم، وتارة في أرض الربيط، وتارة وادي منتثيل، وغير ذلك من المواضع التي على غرناطة، وفي كل ملحمة من هذه الملاحم يثخن كثير من أنجاد الفرسان بالجراحات من المسلمين، ويستشهد آخرون، ومن النصارى أضعاف ذلك، والمسلمون فوق ذلك صابرون محتسبون، واثقون بنصر الله تعالى، يقاتلون عدوهم بنية صادقة، وقلوب صافية، ومع ذلك يمشي منهم الرجال في ظلام الليل لمحلة النصارى، ويتعرضون لهم في الطرقات، فيغنمون ما وجدوا من خيل، وبغال، وحمير، وبقر، وغنم، ورجال، وغير ذلك حتى صار اللحم بالبلد من كثرته: رطل بدرهم.

ومع ذلك لم تزل الحرب متصلة بين المسلمين، والنصارى، والقتل، والجراحات فاشيان في الفريقين سبعة أشهر، إلى أن فنيت خيل المسلمين بالقتل، ولم يبقَ منها إلا القليل، وفني - أيضًا - كثير من نجدة الرجال بالقتل، والجراحات.

إلاَّ أن البسالة وحدها لا تكفي في ظلِّ وضع كهذا؛ إذ المسلمون محاصرون داخل المدينة، ولا يمكنهم الحصول على الإمدادات، فيما النصارى يحاصرونهم من الخارج، وخطوط الإمـدادات مفتوحة من بلادهم، ولا سِيما أن الحرب دفعت بكثير من الغرناطيين إلى الخروج من البلدة، بما انتابها من الخوف، والفزع، وتبعات الحرب المتواصلة، فظلت غرناطة تضعف شيئًا فشيئًا، ثم لما دخل فصل الشتاء، ونزلت الثلوج أصابت طريق البشرة - الذي كانت الأطعمة تأتي عبره إلى غرناطة - فقل الطعام عند ذلك في أسواق المسلمين في غرناطة، واشتد الغلاء، وأدرك الجوع كثيرًا من الناس، وكُثر السؤال.

وهنا لم يكن أمام الغرناطيين إلا التسليم بالأمان، فذهب جمع منهم إلى ملكهم محمد؛ طالبين منه أن يفاوض ملك قشتالة على التسليم بالأمان، وقد أورد صاحب نبذة العصر ما يُفيد بأن التسليم كان رغبة قائمة في نفس محمد الصغير من قبل، إلاَّ أنه خاف من العامة، فكان يُراسل ملك قشتالة سرًّا، ولهذا قطع ملك قشتالة الحرب فترة، وبقي على ما هو فيه من الحصار، والتشديد، منتظرًا جهود محمد الصغير في إقناع العامة بالتسليم بالأمان، فلما أثمرت جهوده مع العامة، وذهب، وفْدهم إليه، سارع مستجيبًا لهم، ثم سارع مرسلاً وزراءه إلى ملك قشتالة، الذي سارع بدوره بالقبول.

ونحن نذهب إلى قبول هذه الرواية، وترجيحها، لا سيما؛ وأن سيرة ملك غرناطة، وطبيعة وزرائه تدفعنا لإساءة الظن بهم، ثم وجدنا الأستاذ محمد عبد الله عنان يوافق هذه الرواية – بعدما كان يرتاب فيها – لما ظهر من وثائق فيما بعدُ؛ أفادت بأن مساعي كانت تُبْذَل في الخفاء لتحقيق ما يمكن من الضمانات، والمغانم الخاصة لأبي عبد الله، وأسرته، ووزرائه، فعُقدت معاهدة سرية مُنح فيها أبو عبد الله، وأفراد أسرته، ووزرائه منحًا خاصة بين ضِياع، وأموال نقدية، وحقوق مالية، وغيرها، هذا بخلاف الأملاك التي كانوا يملكونها، وتصرفوا فيها بالبيع، منذ بدأت الحوادث تتجهم في غرناطة.

حركة الجهاد في غرناطة، واستقرَّ الأمر على تسليم غرناطة بالأمان، يروي المقري فيقول: «ثم عددوا مطالب، وشروطًا، أرادوها، وزادوا أشياء على ما كان في صلح وادي آش؛ منها أن صاحب رومة يوافق على الالتزام، والوفاء بالشرط إذا أمكنوه من حمراء غرناطة، والمعاقل، والحصون، ويحلف على عادة النصارى في العهود... وكانت الشروط سبعة وستين؛ منها تأمين الصغير، والكبير في النفس، والأهل، والمال، وإبقاء الناس في أماكنهم، ودورهم، ورباعهم، وعقارهم، ومنها: إقامة شريعتهم على ما كانت، ولا يحكم أحد عليهم إلا بشريعتهم، وأن تبقى المساجد كما كانت، والأوقاف كذلك، وأن لا يدخل النصارى دار مسلم، ولا

يغصبوا أحدًا، وأن لا يولَى على المسلمين إلا مسلم أو يهودي ممن يتولى عليهم من قبل سلطانهم... وأن يفتك جميع من أسر في غرناطة من حيث كانوا، وخصوصًا أعيانًا نصَّ عليهم، ومن هرب من أسارى المسلمين، ودخل غرناطة لا سبيل عليه لمالكه، ولا سواه، والسلطان يدفع ثمنه لمالكه، ومن أراد الجواز للعدوة لا يمنع، ويجوزون في مدة عينت في مراكب السلطان، لا يلزمهم إلا الكراء، ثم بعد تلك المدة يعطون عشر مالهم، والكراء، وأن لا يؤخذ أحد بذنب غيره، وأن لا يقهر من أسلم على الرجوع للنصارى، ودينهم، وأن مَنْ تَنَصَّر من المسلمين يوقف أيامًا حتى يظهر حاله، ويحضر له حاكم من المسلمين وآخر من النصارى، فإن أبى الرجوع إلى الإسلام تمادى على ما أراد، ولا يعاتب على مَنْ قَتل نصرانيًّا أيام الحرب، ولا يؤخذ منه ما سلب من النصارى أيام العداوة، ولا يكلف المسلم بضيافة أجناد النصارى، ولا يسفر لجهة من الجهات، ولا يزيدون على المغارم المعتادة، وترفع عنهم جميع المظالم، والمغارم المحدثة، ولا يطلع نصراني للسور، ولا يتطلع على دور المسلمين، ولا يدخل مسجدًا من مساجدهم، ويسير المسلم في بلاد النصارى آمنًا في نفسه، وماله، ولا يجعل علامة كما يجعل اليهود، وأهل الدجن، ولا يمنع مؤذن، ولا مصلٍّ، ولا صائم، ولا غيره من أمور دينه، ومن ضحك منه يعاقب، ويتركون من المغارم سنين معلومة، وأن يوافق على كل الشروط صاحب رومة، ويضع خط يده، وأمثال هذا مما تركنا ذكره.

موسى بن أبي غسان:

في رد فعل طبيعي، وصريح له حيال ما حدث وقف موسى بن أبي غسان – رحمه الله – في قصر الحمراء، وقال: لا تخدعوا أنفسكم، ولا تظنوا أن النصارى سيوفون بعهدهم، ولا تركنوا إلى شهامة مَلِكِهم؛ إن الموت أقل ما نخشى (يُريد أن هناك ما هو أصعب من الموت)؛ فأمامنا نهب مدننا، وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهتك نسائنا، وبناتنا، وأمامنا الجور الفاحش، والتعصب

الوحشي، والسياط، والأغلال، وأمامنا السجون، والأنطاع، والمحارق، هذا ما سوف نعاني من مصائب، وعسف، وهذا ما سوف تراه على الأقل تلك النفوس الوضيعة، التي تخشى الآن الموت الشريف، أما أنا فوالله! لن أراه.

يُريد موسى بن أبي غسان أنه لن يرَ كل هذا الذُّل، الذي سيحل بالبلاد جراء هذا التخاذل، والتقاعس، وأنه اختار الموت الشريف، ثم غادر المجلس، وذهب إلى بيته، ولبس سلاحه، وامتطى جواده، وانطلق يقابل سرية من سرايا النصارى، وبمفرده يقابل موسى بن أبي غسان خمس عشرة رجلاً من النصارى، فيقتل معظمهم، ثم يُقتل هو في سبيل الله.

يقول الأستاذ عنان: «لم نعثر في المصادر العربية التي بين أيدينا على ذكر لموسى أو أعماله؛ ومرجعنا في ذلك هو المؤرخ الإسباني كوندي، الذي يقول: إنه نقل روايته عن مصادر عربية. ولكنه كعادته لم يذكر لنا هذه المصادر، وأشار الوزير محمد بن عبد الوهاب الغساني - في رحلته - إلى من يُدعى موسى أخا السلطان حسن المتغلب عليه بغرناطة رحلة الوزير المنشورة بعناية معهد فرانكو ص13... وقصة موسى تشغل حيزًا كبيرًا في الروايات الإسبانية... ونحن ننقل هنا أقوال الرواية القشتالية عن موسى، وفروسيته لا على أنها محققة من الناحية التاريخية، ولكن لأنها تقدم لنا صورًا رائعة لدفاع المسلمين عن دينهم، ووطنهم وآخر قواعدهم».

انتهى كلام الأستاذ عنان دولة الإسلام في الأندلس هامش 7/ 237، 238.

والحقيقة أننا لا نتوقع أن تؤلف المصادر الإسبانية شخصية إسلامية تقود دفاعًا رائعًا عن غرناطة، بل الأقرب إلى التوقع أن توجد حركة صحوة، ودفاع، وجهاد قبيل فترة السقوط، وهي الحركة التي تُعَدُّ من طبائع الناس جميعًا، ولا شك أن ندرة المصادر العربية عن هذه الفترة تمثل عنصرًا سلبيًّا في مثل هذه اللحظات التاريخية، فلا نجد - لملء الفراغ - إلا أن نستنطق الروايات الأخرى، ونستخدم التوقع، والترجيح.

مولد، ونشأة موسى بن أبي الغسان[11]

ولد موسى بن أبي الغسان في غرناطة، وعاش فيها طوال حياته، وتعود أصوله إلى أحد الأسر العربية العريقة في غرناطة، ويعود إلى قبيلة آل غسان العربية اليمانية العريقة، وهي أحد الأسر التي كانت تحكم بلاد الشام قبل دخول الإسلام، وكانت لأسرة موسى علاقة وثيقة بقصر الملك، وكانت تعتبر من الأسر الغنية ذات الجاه، والسلطة.

نشأ موسى بن أبي الغسان على الفروسية، وحب الجهاد، ولقد نشأ نشأة دينية، وعرف بالكرم، والأخلاق، وتميز بحبه للفروسية، ومهارته في المبارزة، وكان لموسى مكانة اجتماعية كبيرة في غرناطة حيث كان رئيسًا لعشيرته، وقائدًا لفرسان غرناطة، كان أحد رجال بلاط الملك أبي عبد الله الصغير.

وكان موسى بن أبي الغسان صريحًا عنيفًا لا يهادن، ولا يلين في الحق، ونموذجًا للفتى الندب، المؤمن بالمُثل، والقيم الإسلامية العليا، وكان ذا شخصية تحمل ذهنًا لا ينقصه المنطق، ونفسًا تُكبر الأخلاق، والفضائل، وذا صوت جهوري مثير لم يكن يعلوه صوت في جرأته، وتقحمه، وطليعيته..

كان موسى بن أبي الغسان من أولئك الرجال الذين يحملون هموم الأمة، ويشعرون بوقر المسئولية نحوها، ونحو مصيرها، ولم تغره مباهج الدنيا، ومظاهر اللهو، والمجون، والترف، واللين، والتنعم المنتشرة في مجتمعه الغرناطي، وأبى إلا أن يكون الوفي لمبادئه النبيلة التي شبّ عليها، ملتزمًا العمل بها، وتجسيدها بصورة عيانية واقعية لا تقبل الشك، والجدل، وساعيًا إلى إقرارها، وتأكيدها، وإشاعتها بين أبناء مجتمعه، وباذلًا نفسه ودمه فداءً لها.

وقد أتاح له قربه من الملك الكثير من المشاركات في صناعة الأحداث، والقرارات بشكل إيجابي في غرناطة، كما كان لديه القدرة في التصدي لأي من الدعاوى الاستسلامية، وعلى الرغم من استكانة الملك تجاه ملك إسبانيا، إلا أنه

كقائد لفرسان غرناطة لم يستسلم، وقام بالكثير من الحملات ضد الأعداء.

في مقدمة كتابه «دولة الإسلام في الأندلس» يذكر الدكتور محمد عبد الله عنان أن المصادر العربية التي وصلتنا حول المراحل الأخيرة من تاريخ مملكة غرناطة قليلة، ويقف أغلبها عند أواخر القرن الرابع عشر الميلادي، أما خلال القرن الخامس عشر الذي يُعتبر عصر السقوط النهائي فلم تتوافر فيه تقريبًا مصادر إسلامية يمكن الاعتماد عليها، وهكذا أصبح من الضروري الاعتماد على المصادر الإسبانية في التاريخ لهذه المرحلة.

ويقول عنان إن هذه المصادر: «توفر فيها ما يتوفر في الكتابات الغربية من الاعتدال والروية وروح الإنصاف» وبدا في مواطن كثيرة فيها تقدير لروح الكفاح «وعبقرية الأمة المغلوبة وحضارتها».

قصة «الفارس المسلم» موسى بن أبي الغسان هي إحدى القصص التي ذكرت في المصادر الإسبانية ولم يرد ذكر اسمه في المصادر العربية المتوافرة حاليًا، لكن المصدر الإسباني لها يقول إنها مأخوذة عن مصدر عربي لم يذكره، ويقول عنان في كتابه إنه نقل قصة «الفارس المسلم» ليس فقط لأنها محقّقة تاريخيًا، لكن أيضًا لأنها تقدم صورة رائعة لدفاع المسلمين عن دينهم ووطنهم حتى اللحظة الأخيرة.

في عام 1492 كانت غرناطة تمضي نحو قدر محتوم بدا لأهلها نذيره منذ زمن بعيد، ولم يكن هناك سبيل لدفعه، فأغلقت المدينة أبوابها، واحتمت بأسوارها العالية من جيش فرناندو المحاصر؛ الذي كان قد عزم على ألا يمضي دون السيطرة على غرناطة، وإنهاء الوجود الإسلامي في شبه الجزيرة الإيبيرية.

ورغم ما بدا لأهلها من قوة أعدائهم، وانتصارهم الوشيك عليهم، فقد رفضوا التسليم؛ واستبسلوا في الدفاع عنها لشهور طويلة قضوها في حصار، وكانوا مع ذلك يخرجون إلى قتال الجيش المحاصِر مراتٍ عديدة، يفسدون خططه؛ ويُضعفون قوته.

وحول هذه الحرب يستشهد الكاتب الأمريكي واشنطن إيرفنج في كتابه «أخبار سقوط غرناطة» بكلام السفير الفرنسي حينها الذي شهِد ما فعله المسلمون دفاعًا عن مدينتهم فقال: «إن هذه الحرب في الحقيقة هي من ذكريات التاريخ التي لا تُنسى، جيش قُتل فرسانه أو سِيقوا إلى الأسر مع ذلك ما زال هذا الجيش يدافع عن كل مدينة، وحصن.. كلا بل كل صخرة بحد ذاتها، وكأنها مسكونة بروح شهدائه فمن أي موطئ قدم أو مكان لإطلاق سهم أو قذيفة».

ويضيف: «كانوا يضحون من أجل بلادهم الحبيبة، والآن، وقد عُزلت عاصمتهم عن كل المساعدات الإسلامية، وتجمّعت كل أمم أوروبا أمام بابها، لم ييأس المسلمون من القتال، وكأنهم ينتظرون معجزة من الله».

تحكي الكتابات الإسبانية عن بطولة، وشجاعة وإقدام أبداه الفرسان المسلمون الأواخر، وعلى رأسهم موسى بن أبي الغسان الفارس ذو الأصل الرفيع الذي ينتمي لإحدى الأسر الأندلسية العريقة القريبة من الحكم.

كان موسى ناقمًا على الملك أبي عبد الله الصغير بسبب استكانته في الدفاع عن المدينة، ومهادنته لملك قشتالة، وكان يعمل على تقوية الفرسان الغرناطيين، ويقود بين الحين، والحين السرايا التي تهاجم العدو، وتفاجئ حصونه القريبة، وحين طلب فرناندو تسليم المدينة، كان موسى بن أبي الغسان من أشد المعارضين للتسليم قائلًا:

ليعلم ملك النصارى أن العربي قد وُلد للجواد، والرمح، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية؛ أما أنا فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعًا عنه، من أفخم قصور نغتنمها بالخضوع لأعداء الدين.

كان موسى بن أبي الغسان يرى أن شباب غرناطة كفيلون بدفع الخطر عن المدينة فهم حوالي 20 ألف شاب في أوج قوتهم، وسرعان ما بثّ روح الحماسة في الجنود، والناس فتحمسوا للدفاع عنها حتى آخر رمق، وتغلّب رأيه فردّ الملك أبو

عبد الله على فرناندو برفض التسليم، وردّ فرناندو بحصار المدينة، فوضع الملك حمايتها بين يدي موسى بن أبي الغسان.

أخذ موسى يوزّع الفرسان، كل مجموعة على أحد أبواب المدينة، وكان يهاجم جيش فرناندو بفتح الأبواب كلها في لحظة واحدة لينطلق الفرسان مخترقين الجيش فيوقعون بينهم الجرحى، ويعودون مرة أخرى إلى المدينة، ويغلقون أبوابها. كانت هجمات ابن أبي الغسان متتالية، وعنيفة، وقد أرهقت جيش فرناندو حتى أنه أمر بعدم الرد عليها حتى لا ينجرّ الجيش في حروب جانبية تنهك قوته، وتشغله عن الهدف الأساسي، والهجوم الكبير.

استمر ابن أبي غسان في تزعّم الفرسان المسلمين، وكان يقود الجيوش إلى القلاع التي يسيطر عليها القشتاليون، وكان الشعب يستقبله لدى عودته منها بكثير من الحماسة، إلى أن أحكم فرناندو الحصار، وأتلف الحقول المجاورة، فكان موسى يقود المعارك الأخيرة التي علِم المسلمون أنها «عنوان أخير لفروسيتهم، وبسالتهم؛ لكنها لم تكن لتغني شيئًا أمام ضغط العدو، وتفوقه» كما يقول محمد عبد الله عنان في كتابه، الذي لفت فيه إلى أن فرناندو قد شدّد حصاره على المدينة، وقطع كل علاقاتها بالخارج، وبدّد أملها الضعيف في وصول مددٍ من إفريقية «دول المغرب العربي».

صمدت المدينة شهورًا لكنها مع اقتراب الشتاء، وقرار فرناندو وإيزابيلا الاستمرار في الحصار وإحكامه، وعدم الرحيل إلا بعد الاستيلاء على غرناطة، تعالت الأصوات في قصر الحمراء بضرورة تسليم المدينة؛ لأن المؤن لن تكفي، وكان اليأس قد دبّ في نفوس الجنود المحاصَرين، لكن ابن أبي غسان بثّ روح الحماسة من جديد، ورفض التسليم.

فحين اقترب جيش فرناندو أكثر، وهاجم أسوار المدينة خرج إليه مع الجنود، وقاتلوهم ببسالة، لكن ضعف المشاة كان باديًا، وسرعان ما تمزقوا، ولم يفلح

موسى في جمع شملهم، فارتدّوا إلى المدينة، وأغلقوا أبوابها في يأسٍ، وجزع، وكان الجوع، والمرض قد تمكّن من أهلها.

وجاءت اللحظة التي تغلّب فيها الرأي القائل بالتسليم حتى لا يدخل فرناندو المدينة عنوة، ويستبيح الأرض، والعِرض، والدين، كان الخيار بين التسليم أو الموت، واختار المجتمِعون في قصر الحمراء التسليم، واعترض فقط موسى بن أبي الغسان قائلًا:

«إنه لخير لي أن أُحصى مع الذين ماتوا دفاعًا عن غرناطة من أن أُحصى مع الذين شهِدوا تسليمها، إن الموت أقل ما نخشى، فأمامنا نهب مدننا، وتدميرها، وتدنيس مساجدنا، وتخريب بيوتنا، وهذا ما سوف تراه على الأقل النفوس الوضيعة التي تخشى الآن الموت الشريف، أما أنا فوالله لن أراه، اتركوا العويل للنساء، والأطفال؛ فنحن لنا قلوب لم تخلق لإرسال الدمع، ولكن لتقطر الدماء، وحاشا لله أن يقال إن أشراف غرناطة خافوا أن يموتوا دفاعا عنها».

وكان لا يزال يرى أن الموارد لم تنضب، وأن الموت هو الخيار الأفضل، لكنه لم يجد من يستجيب هذه المرة، فاليأس كان قد تمكّن من القلوب، ووافق أبو عبد الله على التسليم، وأرسل وزيره أبو القاسم عبد الملك للتفاوض على شروطه في أواخر عام 1491م.

وقد فاوض أبو عبد الله ووزراؤه ضمن معاهدة التسليم على أملاكه، وأملاك كبار غرناطة، وحاولوا تحقيق مغانم خاصة بهم.

واستمرت المفاوضات، وحين استقر الملوك الكاثوليك مع الوزير أبي القاسم على نصّها أرسلوا إلى قصر الحمراء لتوقيعها، وتقول الرواية الإسبانية التي يصفها محمد عبد الله عنان بأنه «تصطبغ بلون الأسطورة» إن المجلس الذي ناقشها شهِد خلافًا أيضًا بين من يرى بالتسليم، ومن لا يزال يرى الاستمرار في الدفاع، لم يملكَ بعضهم نفسه فأخذ في البكاء، وهو يوقّع المعاهدة التي تحكم على أمته بالفناء،

واعترض موسى بن أبي الغسان مؤكدًا أن الإسبان لن يفُوا بهذه الالتزامات، وأن مصائب كثيرة في انتظار الناس في حال التسليم.

وتقول الروايات إن الأمير الخائر الضعيف أبو عبد الله صاح: الله أكبر لا إله إلا الله محمد رسول الله ولا راد لقضاء الله تالله لقد كتب عليّ أن أكون شقيًا، وأن يذهب الملك على يدي، وصاحت الجماعة على أثره الله أكبر، ولا راد لقضاء الله، وكرروا جميعًا أنها إرادة الله ولتكن، ولا مفر من قضائه، ولا مهرب.

فخرج موسى بن أبي الغسان من قصر الحمراء غاضبًا، وتوجّه لداره، وامتطى حصانه، وخرج متسلّحًا في شوارع غرناطة، وغادرها من باب إلبيرة، ولم يرهُ أحد بعدها أبدًا.

لكن القس أنطونيو أجابيدا، وهو مؤرخ إسباني عاش في ذلك الوقت، كان لديه بقية لحكاية «الفارس المسلم» إذ يقول إن سرية من 20 جنديًّا من الفرسان المسيحيين التقت في مساء ذلك اليوم على ضفة نهر شنيل بفارس مسلم ملثّم، مدجج بالسلاح، فطلبوا منه أن يقف؛ فلم يُجبهم وما أن اقترب منهم حتى وثب إلى وسطهم كالأسد الضاري، وسدد لأحدهم طعنة نجلاء برمحه، وانتزعه عن سرجه، وأهوى به إلى الأرض، فأصبح مثلها في طرفة عين، ثم انقضَّ على الباقين يثخن فيهم طعنًا، بضربات ثائرة قاتلة، ملأت قلوبهم رعبًا، وكأنه لم يشعر بما أثخنه من جراح، ولبث يبطش بفرسان الأعداء، وما وهن أو قصر، فقد أخذ للأمر أخذه، وأعد له عدته، حتى أفنى معظمهم.

غير أنه أصيب في النهاية بجرحٍ خطير، ثم سقط جواده من تحته بطعنةٍ أخرى، فهوى إلى الأرض، وعجز عن النهوض بعد أن تكاثرت في جسده الجراح، فحاول من بقيَ من الفرسان المنهكين ومن هب لنجدتهم، التكالب عليه للإمساك به، فركع على ركبتيه، واستل خنجره، وأخذ يناضل عن نفسه، وبقوا متحلقين حوله في تردد، ولم يجرؤوا على الإمساك به.. فلما رأى موسى أن قواه قد نضبت، وحيث

أن نفسه الأبية لا تطيق الوقوع في الأسر، ارتد إلى ما وراءه بوثبة أخيرة، وألقى بنفسه إلى النهر ليغرق تحت ثقل سلاحه.

بينما هناك رواية أخرى تقول أن موسى بن أبي الغسان تمكن من الإفلات، واللجوء إلى جبال غرناطة المنيعة، وأنه استمر يقود المقاومة لعدة سنوات أخرى بعد ذلك.

البطل المجاهد...[12]

أردت أن أكتب الكثير عن هذا الفارس، وأن لا أتوقف عن الكتابة عنه، ولكنني لم أجد في قاموسي كلمات أصف فيها هذا البطل، الذي اقشعر له بدني، وحبس الدمع في عيني، وجمد الدم في عروقي، وتمنيت لو كنت أحد فرسانه، ربما لأنني تذكرت أحِبة لي ساروا على نفس النهج، ولم أجد أبلغ من كلمات أحمد رائف في كتابه «وتذكروا من الأندلس الإبادة» لتغنيني عن كل الكتابة عنه، وتجعلني أنحني إجلالًا لمن أغناني عن الكلام، وأن أقرأ الفاتحة لروح البطل الشهيد موسى بن أبي الغسان.

خرج موسى بن أبي الغسان من اجتماع الملك بقصر الحمراء حزينًا مهمومًا، وأسرع إليه غلامه، وقد أمسك بلجام بغلته، وقد وضع تحت سرجها غطاء من الصوف ليحميها من شر البرد، في تلك الليلة العجيبة التي بدأ بها العام.

وطلب موسى من غلامه أن يذهب إلى البيت، وسوف يلحق به بعد قليل، ورضخ الغلام لطلب سيده، وهو يتعجب من أمره، كيف يفضل السير في هذا البرد القارس، والناس جميعًا تسارع بالاختفاء في المنازل، والبيوت.

وأخذ موسى طريقه مغادرًا، وهو يرد تحية الحرس الذين انتشروا في الساحة، وحول البوابات، فالكل يعرفه، ويحبه، فقد كان القائد المظفر حتى تلك الليلة التي تم فيها التوقيع على المعاهدة، وكان من طلبات الملك فرناندو أن يعزل موسى بن أبي الغسان عن قيادة الجند، واستجاب أبو عبدالله الصغير.

وكان الجيش القشتالي قد لقى العنت، والإرهاق من هجمات موسى بن أبي الغسان المباغتة، في ليالٍ لا يتوقعونه فيها، فيخرج إليهم في كتيبته، فينال منهم، ثم يعود، وتغلق البوابات، ثم يفكر في هجمة أخرى قريبة ظل يخطط، ويرتب لها حتى تحدث.

وكان يحرص على نقل الجرحى من جنده إلى المدينة، ويظل يزورهم في بيوتهم حتى يشفوا، أو يكون على رأس الجنازة إن رزق واحد منهم الشهادة، ولا يزال يتفقد أبنائهم، وبناتهم، ويسأل عن أحوالهم، ويعطيهم من حر ماله، أو يتوسط لدى الملك، فيقدم لهم من المساعدة مالاً يقدر عليه هو.

كان موسى بن أبي الغسان أحب الناس إلى قلوب أهل غرناطة، يعرفه الصغير، والكبير، ويوقرونه، ويحسبون له كل حساب، وكان هذا يثير حفيظة الملك أبي عبدالله الصغير، وغيرته، ولم يكن يقدر على الاستغناء عنه عندما كان يرفع لواء قتال القشتاليين، فموسى هو القائد المظفر، وهو أدرى الناس بقتال الليل، وقد أتقن تدريب جنده على هذا، أما بعد معاهدة التسليم فلم تعد له فائدة، بل قد يضر وجوده بالتأكيد، فهو الوحيد الذي رفض المعاهدة، وعندما سألوه عن البديل لها قال لهم: الموت الشريف، والشهادة في سبيل الله.

وكان الملك فرناندو يعرف طبيعة موسى بن أبي الغسان، وقد أرسل إليه رسلاً كثيرة يغريه بالمال، والثروة، ثم عرض عليه مُلك غرناطة، وأن يساعده في خلع أبي عبدالله الصغير، ولكن الرجل أبَى، ورفض كل هذا، ولم يقبل حتى مناقشته.

واستمر يذيق الجيش القشتالي الأهوال، ويلحق بهم الخسائر طيلة العام الذي سبق توقيع المعاهدة.

كان يغادر القصر، وأفكاره تعذبه، فهو قائد جيش لم يهزم، وفرض عليه التسليم، وتحطيم السيف أمام القوة الباطشة، لم يسمحوا له بشرف الجهاد مع جيش قادر عليه، وهانت عليهم تسليم بلادهم، وضاع معنى الدين في قلوبهم،

وهو فرد لا يملك إلا نفسه، وسيفه، ودرعه، وحصانه.

وفي الجانب الآخر من المدينة خارج الأسوار عند نهر «شنيل» يقف القوة النصرانية، ويعلو معسكرهم صليب «شانت يعقوب»، وما عجزوا عن أخذه بالسيف، والقتال سوف يأخذونه مع الصباح، ودفعوا في سبيل هذا كلامًا قلَّ أو كثر، قالوه أو كتبوه، وأعلنوا بعضه، وأخفوا البعض الآخر، قد انهزم المسلمون دون قتال، وهم يحلمون بسراب كاذب، وبعهد من الرخاء، سوف يبدأ بعد تسليم غرناطة، آخر معاقل المسلمين في بلاد الأندلس.

لم يدر لماذا آثر السير على قدميه في هذا الصقيع عبر طرقات المدينة، وكأنما أراد أن يعاينها، وهي شريفة نظيفة لم يجللها عار الاستسلام، أو أراد أن يتزود منها نظرة وداع قبل صباح قادم بعد دورة ليل ليس للشرفاء فيه مكان.

ولم تكن لديه خطة أو فكرة مبينة غير عزم قاطع أنه لن يشهد التسليم.

هل يأخذ طريق «مالقا» في هذا الليل حيث السفن تعبر به إلى بلاد المغرب، ومن هناك يستنفر المسلمين؟ لقد صارت «مالقا» وكل بلاد الأندلس تحت يد النصارى، وسراياهم تملأ الطريق، وهم قد أكثروا من إرسال السفارات إلى كل بلاد المسلمين يستنجدون بإخوانهم بلا فائدة، فالكل في شغل شاغل بحربه مع إخوانه من جيرانه، وليس لديهم من يفكر في هذه الأرض السليبة، التي كانت تتبدد مع قطرات الليل المتساقط عبر الكون، مؤذنة بصباح مر عصيب.

لم يكن موسى يفكر إلى أين يذهب على وجه التحديد، فقدماه تعرفان الطريق إلى منزله حق المعرفة، ولكن هل هذه هي وجهته؟ ربما، فهو لا يعرف.

كان نهر «حدره» يخترق المدينة من الشرق، عند سفح الهضبة التي يقبع بها قصر الحمراء، ثم يتصل بنهر «شنيل» عند القنطرة التي بناها المسلمون الأوائل، ومن ثم تخترق المدينة في عظمة، وجلال، يتبددان في ذهن موسى الحزين المغرق في الوحشة والكآبة.

ووقف فوق القنطرة، ودقق النظر، ليبصر جانبًا من الأسوار التي تقع على مقربة منه، ومن بين الظلام استطاع أن يبصر البرج القريب، ولم يكن به أحد من الحرس، فالبرد شديد، ولا جدوى من حراسة مدينة سوف يسلمها أهلها إلى الأعداء عند طلوع النهار، هز الرجل رأسه في أسف، وعاود السير قافلاً، ووجهته ربض «البيازين» حيث يقيم البواسل من المجاهدين.

صار موسى بن أبي الغسان يضرب في الليل من جنوب المدينة الغربي إلى ناحية الشمال حيث قرر أن يذهب، والبرد يجمد الأطراف، والوحشة تملأ النفس، وتجاوز قنطرة «الدباغين» مسرعًا، فالليل لا يرحم، وهو يأخذ طريقه إلى الأبد، وبلا عودة، وكأن الرجل في سباق معه، ولو استطاع لأمسك بخناق الزمن ليمنع الليل من الذهاب.

اجتاز موسى بن أبي الغسان قنطرة «العادل» وقنطرة «الفرازين»، مرة يسير على شرق النهر، وأخرى من الناحية الغربية منه، حسبما يعرفه من مخاوف الطريق أو سهولته، وفي سرعة ليبعث الدفء في نفسه، صار يخترق الأزقة الضيقة، وهو يختصر الطرق إلى ربض «البيازين»، ومر على جامع «التوابين»، ثم سار بحذاء القصبة القديمة، حتى صار في قلب المكان الذي يريد، فها هو جامع «البيازين»، وهذه هي الساحة الكبرى، وكان يقطع الصمت نباح يأتي من بعيد، لكلاب لا يراها أحد.

كان يريد أن يجمع جنده من البيوت، ويخرج بهم إلى الأسوار، ويمنع تسليم المدينة في الصباح، وامتلأت نفسه حماسة، وأملاً، وطرق باب الرئيس عبدالله الشيخ، وكان من خيرة معاونيه، ومن أحسن جند غرناطة المقاتلين، وفتح الباب في لهفة، وسرعة، ورأى الصبية، والفتيات، وفي أيديهم القناديل كأنما ينتظرون من يطرق عليهم، ثم علم أن الرئيس عبدالله قد خرج ليأتي بالطبيب لطفلة مريضة له قد اشتدت بها العلة.

عاود موسى مرة ثانية إلى منزل الرئيس، وما أن اقترب من البيت حتى سمع أصوات العويل، والنواح، وسرعان ما عرف أن الصبية ماتت، ولم يستطع الطبيب لها شيئًا.

وبعد أن قدم العزاء للرئيس عبدالله، قال له:

– كلنا سنموت، ولكن ينبغي علينا أن نموت دفاعًا عن غرناطة.

– ما الذي يقصده سيدي القائد؟

– نجمع المجاهدين من حي «البيازين» ونخرج إلى محلة فرناندو فنداهمها، إما أن نردهم عن مدينتنا أو نموت شهداء.

وتأمله الرئيس عبدالله قليلاً، ثم هز رأسه، وأردف:

– قد فات أوان هذا أيها القائد.

– ليس للموت أوان يا عبدالله.

– أتكلم عن رد الأعداء وقتالهم في محلة فرناندو.

– وهل لقتال الأعداء موعد؟

– نعم.

وبدا الحزن في وجه موسى:

– ظننتك ترحب بهذا، وتخرج إلى شباب الحي فتجمعهم، ونخرج إلى القشتاليين كما كنا نفعل في الأيام الخوالي.

وارتفعت من آخر الدار موجة من العويل، والنواح، في ترجيع أخاذ يبعث على الشجن، وسكت موسى، وعبدالله قليلاً حتى ذهبت هذه الموجة، ثم قال الرئيس عبدالله:

– معذرة أيها القائد لو تطاولت عليك في الحديث.

– لا عليك من هذا، ما الذي تريد قوله؟

ونظر إليه عبدالله نظرة وانية عاتبة، وقال له وقد رفع صوته قليلاً:

– أين كنت يوم وقعوا المعاهدة اللعينة.

وقال موسى حزيناً:

– كنت هناك حيث وقعوها، وأنت تعرف موقفي، لقد رفضت التوقيع، وحذرت الجميع.

وارتفع صوت الرئيس عبدالله، وهو يقول:

– وأين كنت بعد ذلك؟

– لم أكن أصدق أن هذا يكون.

– أنت تطلب محالاً أيها القائد موسى.

– لماذا يا صديقي؟

– تريد جمع المجاهدين، ربما نأتي بواحد أو اثنين أو قل ثلاثة، لن نأتي بأكثر من خمسة.

– وبعدها؟

– وبعدها سوف يؤذن للفجر، ومن ثم ينبلج الصبح.

– ويدخل النصارى غرناطة؟

– هم يستعدون الآن لدخولها أيها القائد.

وصار موسى يهز رأسه كأنه يطرد منها شيئًا:

– لا أظن أن شيئًا من هذا يمكن أن يكون.

– وهناك شئ لا أدري أتعرفه أم لا؟

والتفت إليه موسى مستفسرًا:

– وما هو؟

– لقد أحكم رئيس الشرطة قبضته برجاله حول ربض «البيازين»، وجمعوا

من البيوت معظم ما بها من سلاح.

وانقلب وجه موسى بن أبي الغسان

– ومتى كان هذا؟

– كأنك لم تسمع به؟

– كلا.

– لقد بدأوا كبستهم على البيوت بعد صلاة الظهر بالأمس، لم يعد هناك أمل.

وتمتم موسى في صوت خافت كأنه يحدث نفسه:

– ربما يكون هناك أمل في موت كريم.

قام موسى يائسًا، وقام الرئيس عبدالله ليشيعه لدى الباب، ومن خلفهما ارتفعت موجات العويل، والنواح على الصبية الصغيرة التي ماتت في الليل.

كان موسى بن أبي الغسان قد تجاوز الأربعين بسنوات، ولكنه عريض الصدر مفتول العضلات، وسيمًا كريمًا، شجاعًا أنفًا، سيدًا في قومه، وعشيرته، يحبه الناس، وتغرم به النسوة، وتتعلق الفتيات بهواه، وينظرن إليه خلسة من خلف النوافذ عندما يخرج على جواده، وقد غطاه السلاح، والحديد في غزوة أو حملة سريعة على جيش العدو.

وكان عفًا يغض بصره عن النساء، ولا يفتتن بهن، واكتفى بزوجته، وأم أولاده، ولم يقرب غيرها جارية كانت أو حرة، وكانت نسوة النصارى يرسلن إليه رُسلهن يتوددن إليه، ويطلبن قربه، فلا يُجيبهن إلى هذا، بل يلقي بالكتب في نيران المدفأة إن كان الوقت شتاءً، أو في نهر «شنيل» حيث مقامه الأثير في الصيف، ثم يغمز لزوجته بعينه فتضحك، فهي تعرف ماذا في الخطاب، وربما تطلع على ما فيه من كلمات الغزل، والهيام فتتنهد، وتقول:

– عشنا ورأينا رجلاً تأتيه مكاتيب الحب، والغرام.

وكان موسى بن أبي الغسان يقيم الصلاة، حريصًا عليها في الجماعة، يقرأ القرآن كل ليلة، ويختمه مرة كل شهر، وله في الأسبوع يوم يقضيه بين الكتب، فلا يخرج فيه إلى أحد، وعرف الناس عادته فلا يزوره أحد في هذا اليوم، وله يوم يستقبل فيه الأصدقاء، وأصحاب الحاجات، الذين يريدون وساطة عند الملك، ويوم ثالث يذهب فيه يزور أهله، وأصحابه، ومُحبيه، وبقية الأيام يقضيها في استعمال السيف، والرمح، والفأس، وسائر ما عنده من الآت الحرب، والقتال، ثم جاء حصار غرناطة فصارت أيامه كلها تدريبًا وقتالاً، وحراسة.

كان عنده من الأبناء «محمد» في العاشرة، و«الثريا» في السابعة، ثم «ودود» في الرابعة، وهي أحب الخلق إلى قلبه.

وكانت أمها تغار من حب أبيها لها، وتنظر إليه عاتبة عندما يعود من الفتال مسرعًا ليتحسس جبينها إن كانت نائمة بالليل، أو يرفعها عاليًا إن كانت تلعب بالنهار.

وقد جاء أهل غرناطة يومًا يسألونه أن يخلع الملك، ويجلس على عرش الحمراء فهو أقدر على مقاومة فرناندو، وجيوشه، فأبى، ورفض، وقال:

– نحن أحْوج ما نكون إلى الوحدة، والتآزر، وليس من مصلحة المسلمين أن ينقسم الناس إلى فريقين.

فلو كان من الناس من هو كامل، لكان موسى بن أبي الغسان.

ومنذ وقعت معاهدة التسليم في نوفمبر من العام الذي انصرم بالأمس، وهو صامت لا يتكلم، يمكث الساعات الطوال في غرفته وحيدًا، ولم يعد يلاعب «ودود» كما تعود، وعودها، بل كان يطيل النظر إليها حزينًا، ولا ينطق بكلمة واحدة، وكانت زوجته تقدر ما هو في من محنة، وألم، فتحاول أن تبعد الأبناء عن مكان أبيهم، وسرعان ما أدركوا طبيعة الكارثة المقبلة، فآثروا الصمت هم أيضًا، ولم يعودوا يلعبون ويضجون كما كانوا من قبل، بل هدأوا، وسكنوا، وخيم على القصر حزن عميق.

اجتاز الدرج، والردهة المؤدية إلى البهو الكبير بقصره، وكانت القناديل مضاءة، وهمّ بصعود الدرج المؤدي إلى الغرف العليا حيث يقيم هو، والأبناء، ولكنه لمح زوجته تقف في الناحية اليمنى صامتة، وقد خلا وجهها من أي تعبير. ووقف موسى للحظة ينظر إليها صامتًا، ولم يلقِ عليها التحية على غير عادته، ثم ارتعدت جفونه، وهو يقول لها، ثم يسرع صاعدًا:

– ضعي على كتفيك شيئًا، فالبرد شديد هذه الليلة.

سار في الممر المؤدي إلى غرف الأبناء، ووقف قليلاً أمام غرفة «محمد»، وصار ينصت فلم يسمع شيئًا، ثم تحول إلى غرفة «الثريا» ووقف ببابها، ثم أطال الوقوف بباب الغرفة التي تنام فيها «ودود»، ثم عاود طريقه بسرعة نازلاً، فمر بزوجته، وقال لها:

– أيقظي السائس ليعد حصاني، وليضع عليه الحديد، والدروع.

وأسرعت زوجته تنفذ ما أمرها به كالمخدرة، بينما أسرع هو إلى غرفة السلاح، ليضع على جسده الدروع، وهو يتمتم:

– ليس أمام أحد عذر في الموت الكريم.

لم يلحظ أحد أن محمدًا، والثريا، وودود كانوا مستيقظين، يقف كل منهم خلف الباب في غرفته ينتظرون عودة الأب، وعندما سمعوا وقع خطواته تبتعد، فتح كل منهم الباب، وأمسكوا ببعضهم البعض، وهم يهبطون درجات الدرج صامتين يبحثون على أبيهم، ومن خلفهم جاءت الجواري وجاء خدم البيت، والكل يبكي في نشيج مكتوم احترامًا للصمت.

ووقفت زوجته خلفه صامتة في غرفة السلاح تلبي نداءه، دون أن تنطق بكلمة واحدة.

– الفأس.

فتسرع فتناوله.

– الطبرزين.

فتتحرك كالمسحورة فتأتي به من مكانه، وتعطيه له.

وفي لحظات كان الحديد يغطيه من قمة رأسه إلى أخمص قدميه، وألقى نظرة خاطفة على زوجته، ثم غادر الغرفة بطيئًا، فالحديد يقيد حركته، وأسرعت زوجته تمسك بذراعه كأنما تعاونه في حمل بعضه، وكان كل منهما يفهم الآخر، ويعرف ما ينتويه دون أن يتبادلا الحديث.

وعند أول الدرج، فوجئ موسى بأبنائه يقفون ينظرون إليه مشدوهين لا ينطقون، فوقف ينظر إليهم للحظة، ثم تحول عنهم خارجًا، وصدره يغلي كالمرجل، وأسرع إليه محمد:

– هل آتي معك يا أبي؟

تمتم موسى بصوت خافت:

– سوف تلحق بي يا بني يومًا، ولكن ليس الليلة.

ثم أسرعت إليه «الثريا» و«الودود» وهما تتحسسان الحديد حول ساقيه، وساعديه، وهو ينظر إليهما من خلف المغفر، ولم ير أحد تعبير وجهه، ولكنه لمح حزنًا نبيلاً صغيرًا في عيني «ودود» فأطال النظر إليها، وأسرعت أمهما تسحبهما بعيدًا عنه، كأنما تساعده في اجتياز تلك القنطرة الممتدة بين الحياة، والموت.

وعندما اقترب من باب الخروج حيث أعد له جواده، ارتفع نحيب الخدم، والجواري، وصرخت زوجته:

– موسى.

توقف، واستدار، وأسرعت زوجته إليه، وتوقف النحيب، والكل ينظر في جلال، ورأى الدمع ينساب من عينيها، وهي تنظر إليه صامتة، وتمتم لها عندما طال الصمت:

– تعرفين أن المدينة ستسلم للنصارى في الصباح.

وخرج صوتها ضعيفاً متحشرجاً:

– نعم أعرف.

– وتعرفين ما ينبغي عليّ عمله؟

– نعم أعرف.

ونظر ناحية أبنائه، وقال لها:

– دربيهم على السلاح من الغد، ولا تنقطعي عن هذا يومًا واحدًا.

وصارت تهز رأسها طاعة له، ودموعها كالسيل:

– سوف أفعل يا موسى، سوف أفعل.

واستدار موسى خارجًا، وحاول محمد، والثريا، وودود اللحاق به فمنعتهم أمهم، وانطلق صوت ودود:

– أبي.

ولم يرد عليها، ولم يلتفت، فقالت لأمها:

– لماذا لم يرد علي؟

وقالت أمها وقلبها يتمزق:

– لم يسمعك يا حبيبتي.

وصاروا ينظرون إليه، والخدم يساعدونه على امتطاء الجواد، ثم يختفي في ظلمة الليل، والبرد كزائر من عالم غريب قد آن أوان عودته إلي عالمه.

وارتفع عويل الخدم، والعبيد، فقد كانوا يعرفون أن سيد القصر قد خرج، ولن يعود مرة أخرى إليه، وأن هذا هو آخر عهدهم به.

اجتاز موسى بن أبي الغسان دروب غرناطة، وطرقاتها، وهو يذكر الله تعالى في نفسه، ولم يكن يسمع في جوف الصمت غير صوت حوافر الجواد الذي يسير مختالاً براكبه فوق طرقات غرناطة، التي عبّدها المسلمون بالحجارة السوداء.

واختار موسى طريقًا مختصرًا يذهب به إلى القنطرة فوق نهر «شنيل» حيث فرجة في السور يستطيع الخروج منها إلى معسكر القشتاليين فهو الهدف الذي يريد.

وعندما وجد نفسه يسير بمحاذاة النهر، أيقن أنه في الطريق الصحيح، ووجد

لسانه يلهج بالذكر، والحمد، ويرتفع صوته قليلاً بالتكبير، والتهليل، وكان يسير مطمئن النفس هادئ القلب، لا يعرف القلق أو الخوف، بل استراحت نفسه، وهدأت خواطره عندما استقر قراره، وعرف ما يريد.

وبدت نيران طلائع جيش فرناندو تبدو من بعيد، وتحسس موسى أسلحته التي وضعت بعناية فوق حصانه بحيث يستطيع الوصول إليها واحدًا بعد الآخر، وكان خبيرًا بالقتال مشهودًا له، وكأنه، وحصانه على تفاهم فيما يريدان، فقد أسرعت حوافر الفرس عندما رأى النيران، ثم صارت عدوًا، وما هي إلا لحظات أو تكاد حتى كان يسابق الريح، رغم ما يحمله، وينوء به من حديد.

فاجأ موسى هذه الطليعة التي امتطت الخيل على عجل لتواجه هذا المارد الذي انشق عنه ظلام الليل، وكان رمحه مشهرًا، فخلع قائدهم خلعًا من فوق جواده، وذهب إلى غايته، ثم عاد فخلع الآخر، ودب الذعر في قلوب الفرسان، ولم يتبينوا من يقاتلون، وانطلق النفير يدوي في الليل، وجاء فرسان قشتالة من كل حدب ينسلون على صوت النفير.

ولم يشعر موسى بسعادة، وغبطة مثل ما شعر به في هذه اللحظات، فالفرسان يتساقطون من حوله، وهو لم يستخدم شيئًا غير رمح ينبعث من سنانه الرعب، والموت كشهاب الليل، لم يشعر موسى بالتعب، بل كان يؤدي دوره في سلاسة، وتناسق كأنه يقوم بالتدريب على دُمى قد أعدت لهذا الغرض.

كان يحصي من قتلهم فلما تجاوز العدد عشرة، انتابته نوبة من السرور العارم، فلم يعد يهتم بالعدد بعد ذلك، وشعر أنه يكبد العدو ثمنًا غاليًا له، ومن يدري لعله يستطيع أن ينفذ إلى محلة الملك فرناندو، فيُحي بقتله ما مات في وجدان المسلمين. ولكن الفرسان تكاثروا عليه من كل ناحية، وجسده كله مغطى بالدروع، فليست هناك وسيلة للوصول إليه، وانكسر الرمح، وجاء دور الفأس، والطبرزين فالسيف، والفرسان يتساقطون من حوله، وغيرهم يأتي حتى صار المكان كأنه ساحة لقتال حقيقي، وليس فارسًا واحدًا يواجه كل هؤلاء الفرسان مجتمعين.

وبدأ التعب يدب في حصانه الذي أدى أكثر من واجبه، وانتبه موسى فوجد

حصانه يتراجع أمام هجمة القشتاليين الشرسة، فقد استيقظ المعسكر كله، ولم يعلم أحد عند محلة الملك بحقيقة ما يحدث، وسرت شائعة أن المسلمين قادمون.

وحاول موسى بن أبي الغسان أن يعفى جواده من هذا العناء الذي لم يعرفه من قبل، وأراد الترجل، فهو أقدر على القتال وحده في هذه اللحظة، وقذف بنفسه من فوق الحصان، ولم ينتبه أن قوائمه الخلفية قد غاصتا في الوحل الذي انتشر على حافة نهر «شنيل»، ورأى لمعة الماء قبل أن يغوص فيه.

ورأى السماء تنشق، والملائكة يمدون أيديهم، ويبتسمون له، وسمع التراتيل العذبة تأتيه من كل ناحية، ثم جذبته الدروع الثقيلة إلى القاع، أما روحه فقد تلقفتها الملائكة في عليين، وما أدراك ما عليون، كتاب مرقوم.

جاء الكونت فرناندو دي ثافرا أمين الملك في حرسه ليستجلي الأمر، ووجد الجند يجمعون الجرحى، ويحصون القتلى، وتعجب الرجل عندما علم أن كل هذا من فعل فارس واحد، وترجل من فوق حصانه، والحرس حوله، وقادوا إليه جواد موسى، ففحصه، ورأى شارته، وهز رأسه في توقير، واحترام، وسأله واحد:

– هل تعرف صاحبه يا سيدي الكونت؟

وهز الكونت رأسه موافقًا، وهو يمد يده بجلال على رأس الجواد الذي يسيل منه العرق:

– نعم أعرفه، إنه موسى بن أبي الغسان، آخر فرسان غرناطة.

من هنا المأساة....

أن هذا البطل لا تعرفه الأجيال، من المأساة أن تغيب الأبطال، وتظهر الأقزام، وتتوالى أمور العامة، من المأساة أننا لا نرى المخلصين إلا عند سقوط الأوطان، فالأمير، وابنه يفر، ومنهم من يستسلم خوفًا على روحه لا على تراب الأوطان، وقداسة العقيدة، ومن يدافع دومًا عن الوطن، والانتماء هم دومًا الفقراء، والمخلصين، من هنا البطل أن تغيب قصص موسى بن غسان عن عيون أطفال هذه الأمة في المدارس، وتظهر شخصيات هاشة كقدوة مثل أنصاف البشر من فنانين المهرجانات، ولاعبي كرة القدم، والمتملقين، والذين يرقصون في كل

عصر من أجل قضيتهم لا قضايا العزة، والحق، ورفعة الأوطان هؤلاء من يقال عليهم الإعلاميين، والنخبة المصطنعة؛ فهل يتساوى موسى ابن غسان آخر فرسان غرناطة برويبضة هذا العصر.

من هنا المأساة....

أن لا نجد لمثل هذا البطل دراسة في جامعات العالم الإسلامي، ونراها في كتابات، ومَكتبات الغرب، فنحن نخفي أبطالنا الحقيقيين عن عيون الأجيال، لتتسع الساحة للسفهاء، إنما في الغرب يُعلمون الأجيال معاني الانتماء، والتمسك بتراب الأوطان، حتى، ولو كان على غير الملة، فالإنسان بدون قضية، وعقيدة كجسد دون روح، فكوْن صاحب قضية، ومدافع عن الحق، وأعلم أنه سيظل الحق حقًا إلا أن يتبع، ويظل الباطل باطلًا، حتى ولو اتبعه كافة البشر، فكوْن موسى ابن غسان حامل قضايا أمتك مفكر مدبرًا فيها، ربما تقود، وترفع الراية يومًا فتكون صاحب قضية لا صاحب مصلحة، ويكون ابن غسان أمامك كقدوة، فهل من معتبر يا قارئ التاريخ، وكاتبه.

من المآسي أن يعرف موسى ابن غسان أصله، ويفتخر بعروبته، ودينه، في حين الآن نقلد الغرب حتى في مأكله، ومشربه، ولغته كنوع من التحضر، والحداثة، فنسينا عروبتنا، وأمتنا، وعقيدتنا، فساد الفقر رغم الثروة، وظهر الهون في الأمة عندما غابت الأبطال عن رفعة رايات العزة في وجه الحمقى، والفسدة، فهذا رد ابن غسان على ملك النصارى فرناند «ليعلم ملك النصارى أن العربي قد وُلد للجواد، والرمح، فإذا طمح إلى سيوفنا فليكسبها، وليكسبها غالية، أما أنا؛ فخير لي قبر تحت أنقاض غرناطة في المكان الذي أموت فيه مدافعًا عنه، من أفخم قصور نغتنمها بالخضوع لأعداء الدين» فمع الأسف عاش العربي، والمسلم الأن لذاته، وقصوره، ونسي قضيته، وعقيدته، فجعل الله الفقر بين أعيننا رغم كثرة الخيرات، فهل من معتبر يا قارئ، وكاتب التاريخ؟

المأساة الثامنة:
نهاية ثورة الأبطال
«ثورة البشرات آخر ثورات المسلمين من أجل العقيدة، والتراث»

ثورة البشرات ما بين عريضة المثقف مولاي، وتعسف الملك فيليب الثاني، وظلمه[13]

تعد ثورة البشرات (1569 – 1571م) من الثورات، والمعارك الكبيرة، والفاصلة في حياة الوجود الإسلامي بعد سقوط الأندلس عام 1492م، وكانت معركة فاصلة للمسلمين لرد اعتبارهم في مواجهة الإهانات، والاستفزازات لهم، حتى وصل الأمر إلى دينهم، وإجبارهم على التنازل عنه، ومن هنا بدأت انتفاضة المسلمين ضد الحكم المسيحي، كان القانون الغاشم الذي أعلنته السلطات الإسبانية في أول يناير (كانون الثاني) 1567، موعدًا نهائيًا لتخلي المسلمين نساءً، ورجالًا عن لباسهم الإسلامي، ولغتهم العربية، وعن كثير من عاداتهم، وجعل الشرطة مختصة بمراقبة المسلمين، مما زاد غضب المسلمين، واستفزازهم، وأوْغرت هذه التصرفات صدور المسلمين؛ مما دفعهم للانتفاض ضد الظلم.

مع صعود فيليب الثاني لسدة الحكم سنة 1556م حصل تغيير كبير تجاه سياسة الأقليات في إسبانيا، إذ تميزت هذه الحقبة بزيادة التعنت، والتعصب الديني، عُرف فيليب الثاني ملك إسبانيا في أنحاء أوروبا قائدًا للمقاومة المسيحية ضد توسع النفوذ العثماني، وقد ارتفعت في ذلك الوقت بشكل لافت أصوات

أولئك، الذين كانوا يخشون تحالف الأتراك «عدو أوروبا الموروث» مع موريسكيي إسبانيا، ولم يعد مغزى التحريض السياسي خلق الاندماج الاجتماعي المطلق، ونسج تقارب للأقليات الدينية، والثقافية الإسلامية مع مجتمع كاثوليكي معين، بل كان الهدف الأساسي التمييز، والفصل بإبعاد السكان الموريسكيين عن سكان البلاد الكاثوليك، لقد زاد الخطر العثماني بشكل كبير على مدى 50 عامًا مضت بسبب الخسائر الإسبانية المختلفة في البحر المتوسط، وكان هذا هو السبب الكامن وراء موجة الخوف عند الحكام المسيحيين من مؤامرة حِيكت خيوطها ضدهم بين المغاربة المسلمين، والدولة العثمانية، وفي هذا الإطار تطور جهاز بيروقراطي لا يرحم، كان المسئولون عنه يحملون أفكار الملك فيليب الثاني، وقد ساعدهم في ذلك التغيير المتسارع، والواضح لمحاكم التفتيش.

أصدر فيليب الثاني في عام 1567م مرسومًا تضمن اتخاذ إجراءات قمعية، إذ حظر على موريسكيي غرناطة استخدام اللغة العربية حديثًا أو كتابة، ومنع تداول الكتب أو الوثائق المحررة بالعربية أيًّا كان محتواها، وحظر عليهم ارتداء ملابسهم التقليدية «اللباس الموريسكي»، وحظر أيضًا على النساء تغطية جزء من الوجه، ولا يستخدمن الحناء في نقش الأيدي أو الأقدام أو في صبغ الشعر، وحظر عزف الموسيقى الموريسكية في حفلات عقد القران، والزفاف، كما حُرم عليهم استخدام الحمامات، أو استعمال أسماء، وألقاب عربية، وصدرت الأوامر بأن يترك الموريسكيون أبواب دورهم مفتوحة، إضافة إلى منعهم من تملك العبيد، وقد أثار ذلك ذهولًا كبيرًا في غرناطة.

أدى هذا المرسوم لظهور نص اكتسب أهمية غير عادية، تمثَّل في عريضة قدمها النبيل الموريسكي نونييث مولاي إلى محكمة غرناطة، أكد فيها بالحجج أن اللباس الموريسكي لا يرمز إلى الدين، ولكنه شكل من أشكال التنوع، والسمات الإقليمية الخاصة بالمنطقة؛ إذ يختلف اللباس الغرناطي عن اللباس القشتالي أو الفالنسي، وأن العربية لا تعني الإسلام، لأن المسيحيين في الشرق يتحدثون العربية، وأن

وضع الغرناطيين اللغوي إنما هو علامة تمييز إقليمية، شأنهم في ذلك شأن القطالونيين أو الجليقيين Gallegos؛ فهم يتحدثون بلغة مختلفة دون أن يكون لهذا علاقة بالعقيدة، إذن كانت هذه محاولة من جانبه.

لقد أراد نونييث مولاي أن يفصل المعالم الثقافية الغرناطية عن الهوية الدينية، لكي يجمع الموريسكيين في هوية إقليمية لا تتناقض مع المسيحية على الإطلاق، بدليل الوجود المسيحي في الشرق، كما أراد أن يوضح أن الغرناطيين لم يكونوا متفردين، لأن أبعاد التباين واضحة في اللغات، والأزياء، والعادات بين مختلف أقاليم إسبانيا، كما شدد كثيرًا على أن الموريسكيين، وعاداتهم «ينتمون إلى الأرض»، وأشار إلى أنه من الصعوبة تغيير الاسم على وجه الخصوص؛ لأن ذلك يعني ضياع الأسر، والأنساب، أحد أركان الهوية الموريسكية، وكذلك الارتباط بالجماعة، وبمنع اللغة أيضًا ستضيع الوصايا، ومحررات الأراضي، والعقود، فهل يتساوى الجميع بدون نسب، وبلا ميراث أو عبيد؟ هكذا سجل النبيل الموريسكي احتجاجه، وأن هذا المرسوم في المجتمع الإسباني المعروف بتعدد الطبقات، من شأنه أن يحكم على الموريسكيين بالتهميش، وجعلهم في أدنى طبقات المجتمع، إضافة إلى محو سماتهم الثقافية الخاصة إلى الأبد، إلا أن أحدًا لم يُعِرْه أي اهتمام.

ومن هنا نرى أن الموريسكيين كانوا أمام مؤامرة كبيرة تهدف إلى طمس الهوية، والعقيدة على السواء، فكان من الطبيعي أن يتحرك كبرائهم لعرض الأمر أمام المسئولين، لقد بدأوا محاولتهم بعقلانية، نلاحظ ذلك في رفع اعتراضهم من خلال النبيل الموريسكي مولاي، لكنهم لم يجدوا اهتمامًا بمذكرته، وشكواه، فكان من الطبيعي أن يتحرك هؤلاء لعرض اعتراضهم بطريقة أخرى يفهمها المسئولون على أرض الواقع، وهكذا كانت ثورة البشرات التي خسر فيها الجميع.

عشية أعياد ميلاد عام 1568، اجتمع الثوار وأعلنوا عصيانهم، وثورتهم في قرية بيشنار Beznar (في وادي لكرين)، وأعلنوا إيرناندوا دي كوردوبا ملكًا لهم، فاتخذ له اسمًا إسلاميًّا هو «ابن أمية»، وفي اليوم نفسه تمردت العديد من قرى

مناطق أورخيبا، وبوكيرا، وخوبيليث، ثم تبعتها أغلب قرى البشرات، وفي ليلة ذلك اليوم توجه مساعد ابن أمية، فرج بن فرج، على رأس العشرات من أتباعه إلى البيازين، وحاول دفع سكانها للثورة، ولكنهم لم يتحركوا؛ فترك الحي وعاد أدراجه مع مئات من تابعيه المخلصين.

وفي تلك الأثناء مات المحقق العام «دون فيرناندو فالدس»، وحل محله الكاردينال «دون داسبينوزا» الذي تصفه الروايات الغربية بأنه كان خصمًا لدودًا للعرب، فاتفق مع كاردينال غرناطة على أخذ العرب بالشدة، وعلى تعيين مفوضين يطوفون أنحاء المملكة، ويقدمون تقاريرهم عن حالة العرب، ثم تألفت لجنة لمناقشة التقارير، وفحص حالة العرب، وتقديم المقترحات التي تراها مناسبة، كانت اللجنة مؤلفة من كبار رجال الدين، وبعض كبار الموظفين المدنيين، والقادة العسكريين، وبعد عدة اجتماعات، تغلب رأي رجال الدين، فقدمت اللجنة توصياتها الرامية إلى التشدد في تطبيق الأمر الصادر عام 1526، ولم يجرؤ المدنيون على معارضة رأي رجال الدين، وكان مما اقترحته اللجنة:

- منع استعمال اللغة العربية، والعادات، والتقاليد العربية منعًا باتًّا.
- منع التسَمي بأسماء عربية، وتحريم لبس الألبسة العربية.
- هدم الحمامات، وكل ماله مظهر حمام أو جامع.
- منع العرب من أن يمتلكوا عبيدًا.
- إجبار العرب على ترك أبواب بيوتهم مفتوحة خلال الأعياد لمراقبة ما يجري فيها.
- إجبار النساء العربيات على كشف وجوههن حينما يسرن في الشارع.

قدمت اللجنة تقريرها، ومقترحاتها إلى الملك بواسطة الكاردينال «دوديسا» رئيس الإدارة المدنية في غرناطة، فأصدر بها أمره في 17 أكتوبر (تشرين الأول) 1566، كان القائد العام المركيز «دو مونيخار» في البلاط حين صدور الأمر، ولما

علم به انتقده أشد الانتقاد، وأبدى مخاوفه من مغبة تطبيقه، وحاول أن يحول دون إعلانه، فلم يقبل الكاردينال المحقق العام «دا سبينوزا» بإدخال أي تعديل على الأمر، وطالب بتنفيذه كما جاء، ولما وصل الأمر إلى غرناطة قرر «دوديسا»، أن يجعل إعلانه يوم 2 يناير 1567، وهو يوم الذكرى السنوية لسقوط غرناطة، وحاول أن يمهد للأمر؛ ليخفف من وقعِه على العرب.

لكن زعماء العرب لم يقبلوا التعاون معه، فتولى هو دعوة العرب إلى ميدان باب البنود، الذي كانت تجري فيه مراسم الاحتفال بارتقاء ملك جديد للعرش في عهد بني الأحمر، ولما أذاع دوديسا الأمر على العرب علاهم الوجوم، وبدت عليهم علائم الثورة، فكيف لهم أن ينسوا كل الماضي العريض لقومهم في الأندلس؟ وحاولوا وقف الأمر أو إبطاله بالمراجعات الرسمية، فلم يفلحوا، وشرعت السلطات بملاحقة العرب لتنفيذ الأمر الملكي، كما زادت في تعسفها، ومضايقاتها تنفيذًا للأمر المتعلق بمنع المسلمين من حمل السلاح إلا برخصة.

سببت الملاحقات كثيرًا من المشاكل، والمآسي، وابتزاز الأموال، فلم يجد الناس ملجأ لهم من السلطة، والقضاء إلا في معاقل المنفيين بجبال الثلج «سيرا نيفادا»، وهناك تزايد عددهم،وأصبحوا يشكلون قوة لا بأس بها، وبدأت فكرة الثورة تختمر في رؤوس المنفيين، وزعماء البشرات، وأصبح الجميع يرون أن الثورة هي الوسيلة الوحيدة لوقف التعسف الإسباني، وكان آخر ما ألحقه دوديسا بالعرب من إساءات هو تجنيد قوة من الشرطة، أجبر العرب على تحميل نفقاتها لتقوم بالسهر على الأمن في الأحياء العربية، وتقصي المعلومات عن نشاطهم، وتحركاتهم، فكانت الثورة هي الخيار الأخير ضد هذا الظلم الكبير، فاندلعت الثورة بقيادة محمد بن أمية في كافة أحياء غرناطة، وكانت ثورة من أجل الحفاظ على الكرامة، والعقيدة، وهي آخر ثورات المسلمين الحقيقية ضد ظلم العدو، وقهره، فبِثورتهم سطروا تاريخًا من البطولة، والنخوة ضد عدو يحقد على ثقافتهم، وعقيدتهم.

من هنا المأساة....

تُطرد من وطنك، وتسلب ذكرياتك، وتعذب، وتجبر على ترك عقيدتك بالتعذيب، وعندما تقاوم تصبح إرهابي أو رجعي، وخصوصًا إن كنت مسلم، من هنا المأساة أننا نعيش في عالم بدون عدل، عالم يحكمه الأقوياء، ولا سبيل فيه للضعفاء، فعندما قاوم شعب الموريسكيين عمليات التنصير، والتمسك بدينهم الإسلامي، طردوا، وصنفوا أنهم خارجين عن القانون، فاللأسف الشديد مازالت هذه المأساة تتكرر إلى اليوم فلنا في الأيغور مثالًا، ومسلمي بورما خير دليل، ومسلمي الهند خير شاهد على صمت العالم تجاه حقوق المسلمين في كل بقاع العالم، لذلك عالم تسوده الازدواجية، فعندما يدافع المسلم عن حقه يوصف بالإرهاب، وفي حين، عندما تدافع أي أقلية أخرى عن حقها فهذا الدفاع مشروع، وحق أصيل، يالها من عالم مزدوج المعايير، وصدق وول ديورانت صاحب كتاب قصة الحضارة عندما قال:«أن الصراع بين الشرق، والغرب ليس صراع ثروات إنما صراع بين أكبر ديانتين هما الإسلام، والنصرانية»، فهل من معتبر يا قارئ التاريخ، وكاتبه؟

المأساة التاسعة:
إرهاب أوروبا في العصور الحديثة
«محاكم التفتيش، وإجبار الأندلسيين على التنصير»

على إثر استلام غرناطة؛ لم يحاول الملكان تحويل المسلمين عن دينهم بالقوة، كانوا يأملون أن ينتهي بهم المطاف إلى المسيحية، لكنهم - ومن وجهة نظر المؤرخين الإسبان - لم يكونوا يعتزمون إجبارهم على ذلك، والحقيقة أن الملكين اعتزما تنصير هؤلاء، ولكن كان عليهم الصبر لبعض الوقت، ويلينوا لهم الأمر حتى إذا رفضوا وجدوا الذريعة لإجبارهم على التنصير عنوة، بدليل إنشاء محاكم التفتيش التي شجعوها على إجبار هؤلاء، وتعذيبهم.

بدأت محاكم التفتيش عملها في قشتالة ضد اليهود؛ فطردت ألوفًا منهم، وبعد صدور قرار التعميد الإجباري ضد الأندلسيين الموريسكيين سنة 906هـ/ 1502م، أصبحت محاكم التفتيش تتابع الموريسكيين بصرامة، ففي وصية فرديناند لشارل الخامس نجده يأمره: «بضرورة اختيار محققين أكفاء، ومخلصين للكاثوليكية، وتضييق الخناق على طائفة محمد»[14].

والواقع أن النص السابق يقطع كل حجة على من يدعي أن دواوين محاكم التفتيش لم تبلغ حملاتها درجة اللاإنسانية، ولعل هذا ما فندته باحثة عربية؛ حين أوضحت أن ما ذكره المؤرخون المعاصرون، والقدماء عن مظاهر الاضطهاد التي طُبقت في حق المسلمين، معتمدين على مختلف الوثائق الإسبانية، والعربية، إنما يبقى «وصفًا ذابلًا أمام الصورة، التي قدمها هؤلاء المضطهدون عن أحوالهم في نداء الاستغاثة الشعري الذي وجهوه إلى السلطان بايزيد الثاني سنة 1505م»[15].

كان الإسبان يعتمدون على المهمة التبشيرية للمطران الأول (فراى إيرناندوا دي تلابيرا Fray Hernando de Talavera) الذي كان حريصًا على عدم التسرع، واستعمال الوسائل السلمية فقط، ولكن الملكان وجدا أن التنصير سيأخذ وقتًا طويلًا قبل أن يتحقق فأخذوا الخطوة التالية، وهو ما يؤكد ما سبق، وأن قلناه؛ ففي سنة 1499م كلف الكاردينال ثيسنيروس Cisneros بتسريع عملية التنصير، فشعر المسلمون بأن العهد الذي مُنح لهم قد نقض، ومن ثم ثاروا، مما أعطى للعاهلين الذريعة لإرغام جميع مسلمي مملكة قشتالة على التنصير، وفي سنة 1502م كانت انتفاضة ببلنسية «الأخويات المهنية Germanias – 1520 – 1522 –» هي التي أدت إلى تغيير الوضع القائم، فقد استدعى الأسياد رعاياهم المسلمين لمحاربة المتمردين، وتم تعميدهم بالقوة، واعتُبر هذا التعميد شرعيًّا بموجب القانون الكَنسي، حيث إن التعميد حتى، وإن تم بالإكراه يخلق وضعًا لا رجعة فيه، فلا مجال إذن للعودة إلى الوراء، ومسلمو بلنسية كانوا محكومين بأن يظلوا مسيحيين، مهما أُجبروا على ذلك[16].

لقد وجدت محاكم التفتيش في الموريسكيين ميدان نشاطها المفضل خاصة، وقد سَعت السياسة الإسبانية إلى تبني سياسة ضد الأتراك العثمانيين على جميع المستويات، ومما يؤكد ذلك جبروت محاكم التفتيش التي تأسست أساسًا من أجل الاختلاس، والاستيلاء غير الشرعي على أملاك الموريسكيين، ولتحقيق هذا الغرض الذي يقتضي بضرورة قطع الموريسكيين عن كل ما له صلة بالإسلام قولًا، وفعلًا، واعتقادًا، وزعت بيانات تكشف عن مظاهر اتباع الدين الإسلامي، للوشاية بأصحابها، ومما ورد فيه: «إذا تم الاحتفال بيوم الجمعة، وإذا احترموا تعاليم الإسلام الخمسة، وإذا تزوجوا على النهج المحمدي، وإذا غنوا الأغاني العربية، وإذا غسلوا موتاهم، ولفوهم في الكفن، وإذا سمعنا أن الدين الإسلامي هو الأحسن، وأنه لا يوجد غيره للوصول إلى الجنة»[17].

لقد وُجد هذا المظهر في سجلات محاكم التفتيش، ففي سنة 1538م قُدِّم

الموريسكي «خوان دي بورقوص» إلى محكمة طليطلة لأنه كان ينظم في بيته اجتماعات ليلية تعزف أثنائها الآلات الموسيقية، ويقام رقص «الزامبرا» ويأكل الكسكس، وأُخذ عليه، وعلى ضيوفه أنهم يعيشون كأنهم في أرض الإسلام، ويغنون أغاني عربية، ويتنادون بأسمائهم الإسلامية[18].

ولقد بلغت نسبة الموريسكيين المقدمين لمحاكم التفتيش ٪3.3 من النسبة العامة حتى سنة 1530م. وقد ظهر الموريسكيون بشكل مكثف خلال سنة 1518م؛ إذ بلغ عددهم 219 في منشور العفو الصادر في 19 أبريل 1518، ويمكن تصنيف الأعمال المرتكبة من طرف الموريسكيين، والمعاقب عليها من قبل دواوين محاكم التفتيش إلى: الوضوء – الطهارة – الصلاة – صوم رمضان – الاحتفال بيوم الجمعة – عدم شرب الخمر، وأكل لحم الخنزير – قراءة كتب عربية – القول بأن الديانة المحمدية هي الأصح – ختان الأطفال[19].

وقد تمادت محاكم التفتيش في غيها؛ فقد حاكمت امرأة اسمها «لويزة الأزرق» التي اختلط عليها أسماء زوجها، وأبنائها السبعة، على أن تناديهم بأسماء لاتينية أمام أعضاء محاكم التفتيش، فأُحرقت حية[20].

وهكذا أقرت محاكم التفتيش قطع الموريسكيين عن جذورهم وعن هويتهم الثقافية، مما جعل المؤرخ الفرنسي «بروديل» يصر على «أن المشكلة الموريسكية هي صراع ديني، وبمعنى آخر؛ صراع حضاري يصعب حله، فهو مدعو لأنه يستمر»[21].

ويرى «بيريز» أنه في عام 1526م وصلت الأمور إلى أبعد من ذلك؛ فقد تقرر تنصير جميع مسلمي مملكة أراغون، دون إعطاء أي تفسير، وعنده أنه بعد هذا التاريخ رسميًّا لن يكون هناك وجود للمسلمين بإسبانيا[22]، ومن الواضح أنه يقصد عدم استطاعة المسلمين إعلان دينهم كديانة مصرح بها، ومنعهم من إقامة شعائره، فأصبح جريمة أن يكون مسلمًا، ولعله كان محقًا في هذا بسبب شدة الاضطهاد.

أما الحقيقة فمختلفة تمامًا، فقد ظل الأندلسيون المنصرون مسلمين كما كانوا، كما أن الملكين كانا يدركان تمامًا أن المتنصرين الجدد لن يصبحوا أبدًا مسيحيين، وهنا تأكيد لرأينا السابق، وتناقض في مواقف الكاتب تجاه الملكين؛ حيث ذكر من قبل أنهم لم يجبروهم، وهنا يصرح بأنهم يدركون أن هؤلاء لم يصبحوا مسيحيين بعد.

إلا أن الإسبان كانوا يأملون أن يصبح أولاد المسلمين وأحفادهم كذلك، ولتسريع الاندماج طُلب منهم أن يتخلوا عن أعيادهم، وملابسهم التقليدية، وفي بلنسية سنة 1524م؛ أصدر المحقق العام بلاغًا يدعو فيه إلى عدم التعرض للموريسكيين، إلا في الحالات التي تكون فيها مظاهر الكفر واضحة للعيان، وفي النصف الثاني من القرن السادس عشر، تدَّخل «الديوان المقدَّس» بصرامة أكبر، ومع ذلك نجد عدد الموريسكيين المدانين كان أقل بكثير من عدد اليهود المتنصرين، فعقوبة الإعدام نادرًا ما كانت تصدر في حقهم.

وفي سنوات 1550و1580م أربعة عشر شخصًا فقط أُرسلوا إلى المحرقة في غرناطة، وتجدر الإشارة إلى أن ستة منهم أُدينوا بسبب مشاركتهم في ثورة 1569م، وهو ما يعتبر عددًا ضئيلاً لا يتناسب مع من شاركوا في هذا الثورة، وفي أغلب الأحيان، كان الحكم المفروض على الموريسكيين هو «التصالح» مع الكنيسة مرفقًا بمصادرة الممتلكات[23].

وفي بلنسية ما بين 1530 – 1609م تعرض أكثر من خمسة آلاف شخص للملاحقة، أغلبهم من الموريسكيين، إلا أن قلة منهم هي التي حُكم عليها بالإعدام، وكانوا غالبًا ما يُتَّهمون بالتواطؤ مع قراصنة الجزائر، أو بالدعوة إلى الإسلام في إطار محيطهم، إذن كان التآمر السياسي، والتبشير الديني أخطر الجرائم التي يمكن أن يرتكبها الموريسكيون[24].

لم تظهر المشكلة التي طرحها الموريسكيون بنفس الحدة في جميع المناطق، حيث توقف الأمر على نسبة كثافتهم داخل المناطق التي سكنوها، كما ارتبط بتقلبات

حروب الاسترداد.

هناك بعض الاستثناءات التي كانت فيها حرب الاسترداد فعلًا مرفقة أو ملحقة بهجرة أو طرد للمسلمين، فعلى سبيل المثال، وفي منطقة نيبلاNiebla المسترجعة سنة 1262م، لم يبقَ هناك مسلم واحد، كما أن الوثائق لم تسجل تنصيرات في حقهم، وهو ما يدفعنا لاستنتاج أن الساكنين الأصليين قد أُجبروا على الرحيل، وقد تكررت هذه الوضعية بعد قرن، على إثر استرداد الوادي الكبير Guadalquivir، فالمسلمون الذين كانوا يعيشون هناك جلُّهم طُردوا، ولم يكن المدجنون يمثلون سوى 0،5/ من سكان الأندلس، الذين تحولوا إلى المسيحية[25].

وفي القرن السادس عشر أصبح عدد الموريسكيين قليلًا بشكل عام، وتوزعوا في تجمعات حضرية صغيرة؛ حيث كانوا في طريقهم إلى الاندماج، ولم يكن هناك ما يميزهم في الظاهر عن المسيحيين القدامى إلا في ثلاث مناطق؛ أراغون، وبلنسية، وغرناطة، ففي المنطقتين الأوليين، الأقدم من حيث تاريخ «الاسترداد»، كان الموريسكيون يعيشون حياة غير مستقرة، ودون زعماء (الاسترداد) حديثي العهد، حافظ الموريسكيون على نخبهم الدينية، والاجتماعية، إلا أنهم أينما وجدوا كانوا خاضعين لسيطرة النبلاء الإسبان الذين كانوا يستغلونهم، ولكن في نفس الوقت يحمونهم من مضايقات السلطة، بما أنهم كانوا يمثلون يدًا عاملة مُجدَّة، ومِطواعة، وذات كفاءة، في ظل هذه الظروف، نفهم على نحو أفضل كيف تمكن المسلمون من الاستمرار في إسبانيا خلال القرن السادس عشر، لقد اقتصر تطبيقه على بعض المظاهر البسيطة، كالامتناع عن أكل لحم الخنزير، وشرب الخمر، وتلاوة القرآن، وصيام شهر رمضان، والاحتفال بأهم الأعياد الدينية، ورغم رقابة محاكم التفتيش، ظلت الكتب العربية متداولة، وكان الموريسكيون مسيحيين رسميًّا لكن مسلمين في الواقع[26].

ومن أجل إدماج الموريسكيين، كرست جهودًا كبيرة، ففي غرناطة سنة 1559م، أوكل المطران بيدرو غيريرو Pedro Guerrero إلى الرهبان اليسوعيين

إدارة مدرسة أساسية تقع داخل الحي الموريسكي بالبيازين Albaicin، لتلقين الأطفال مبادئ القراءة، والكتابة، وبعض الصلوات في سنة 1568م، كانت هذه المؤسسة تضم ثلاثمائة تلميذ، ثلثهم فقط من الموريسكيين، فقد كان الآباء يسحبون أبناءهم بمجرد أن يصبح هؤلاء قادرين على العمل، عند بلوغهم سن الثامنة أو التاسعة، ولقد بذل بعض اليسوعيين الآخرين مجهودًا للتبشير باللغة العربية، لكن سرعان ما سيفقدون هذه الحماسة أمام لا مبالاة المستمعين[27] وهو ما نعتبره دليلًا على قوة إيمان الأندلسيين المجبرين على التنصير، بشهادة مؤرخ إسباني.

كما قام الرهبان بعمليات تبشير في المنطقتين الأخريين للموريسكيين؛ أراغون، وبلنسية، في المنطقة الأخيرة نُبرز على وجه الخصوص، جهود دوق غاندية Gandia «فرانسوا بورجيا Francois Borgia» الذي فتح مدرسة خصَّصها لاستقبال الشباب الموريسكيين، وعندما التحق الدوق بالرهبان اليسوعيين سنة 1546م تنازل عن هذه المؤسسة لطائفة «عصبة المسيح» لكن كانت النتائج محبطة؛ فما بين سنتي 1554 – 1555م، ظلت المقاعد الاثني عشر المخصصة للموريسكيين شاغرة[28].

أما القديس «توماس دي بيلايبا Thomas de Villanuea» فقد كان أقل طموحًا؛ حيث اقترح إجبار الموريسكيين على الالتزام بالممارسات المسيحية العلنية، واعتبر أن الباقي سيأتي بشكل طبيعي، في استباق لمقولة بسكال «تظاهروا بالسذاجة»، أما خلفه خوان دي ريبيرا Juan de Ribera فكان أكثر تطلُّبًا من سابقه، كان لديه كره لكل ما هو عربي، والذي كان بنظره مرادفًا للهرطقة.

لذلك منع رجال الدين من تعلُّم اللغة العربية، في الوقت الذي كان فيه الكثير من الموريسكيين لا يفهمون اللغة الإسبانية.

ولنُضِف أخيرًا أن المناطق التي كانت مأهولة بالموريسكيين كانت الكنائس فيها أكثر إهمالًا منها في المناطق المسيحية، إذ نادرًا ما كان هناك من يقوم عليها، وفي غالب الأحيان كانوا أشخاصا ذوي ثقافة محدودة[29].

ونعتقد أن هذا السبب ضعيف، ولم يكن ليمنع دخول الموريسكيين المسيحية، فالكنيسة حتى، ولو مشيدة، ورجالها على أرقى مستوى، فإن الموريسكيين بقوا ثابتين على عقيدتهم، إن من ضحى بما يملك من مال، وولد في سبيل تمسكه بعقيدته، حتى ولو أخفاها، ولو تعرض لأبشع سبل العقاب، والتنكيل.. أيمنعه شكل، ومدى الاهتمام بالكنيسة من دخول المسيحية، لقد خفي عن الجميع السر، وهو إيمان الموريسكي العميق بدينه الإسلامي، ومدى اقتناعه بهذا الدين، ورسوخه بداخله.

إن المسيحيون القدامى، الذين قطنوا المناطق القروية لم يكونوا يعامَلون أحسن من أقرانهم سكان المناطق الحضرية؛ فمعظمهم لم يتلقوا أي ثقافة دينية، ومع ذلك لم يكونوا ليعتبروهم مسيحيين غير حقيقيين، لكن الموريسكيين كانوا يختلفون في كل شأن عن باقي المجتمع؛ في اللغة، في طريقة لباس المرأة، وتزيُّنها، في عادات الحياة اليومية، في عادات الأكل؛ حيث كانوا – على سبيل المثال – يطبخون بالزيت، لا بشحم الخنزير، كان المسيحيون القدامى يعتبرون هذه الخصوصيات تعود إلى الدين الإسلامي، وأن هذه المظاهر من مظاهر الإسلام، إلا أن وجه التعارض بين المسيحيين القدامى، والموريسكيين لم يكن الدين، وإنما الحضارة، وأسلوب الحياة[30].

وفي سنة 1566م قرر مجلس قشتالة تطبيق التدبيرات التي كانت قد تقررت سنة 1526م، وظلت حتى ذلك الحين حبرًا على ورق، لقد منع بالفعل على الموريسكيين، ومنذ ذلك التاريخ، الحديث باللغة العربية، والاحتفال بالأعياد التقليدية، واستخدام الحمامات العمومية، وارتداء ملابس خاصة، كما منعت النساء من ارتداء الحجاب، ولقد كلَّف الموريسكيون شخصاً منهم للتفاوض مع السلطات، وهو فرانثيسكوا نونييث مولاي Francisco Nunez Muley، الذي حاول التأكيد على أن اللباس لا علاقة له بالدين؛ فكل إقليم بإسبانيا له لباسه التقليدي، فلماذا لا يُعتبر لباس الموريسكيين اللباس الخاص بإقليم غرناطة؟ لم

يرغب فيلب الثاني في الاستماع إلى أية حجة، فالقرارات المتَّخذة يجب أن تُنفَّذ دون تأجيل، إلا أن وقت التنفيذ ما كان ليكون أسوأ اختيار[31].

وعبر تاريخ محاكم التفتيش، يُلاحظ أنها كانت مقرونة بجشع ديني، ومادي، الأمر الذي جعل الموريسكيين دائمًا يشعرون بالحقد تجاهها، ويصف أحد عمال محاكم دواوين التفتيش أعمالها، ومآلها بالقول:«فهم الإسبانيين أخيرًا أن تحويل شعب عن دينه جملة بطريق الإكراه عمل عقيم لا يؤدي إلى النتيجة المنشودة، ولم يجد نفعًا ديوان التنقيب، ما قام به من الفحص البليغ عن هؤلاء المتنصرين في الظاهر، ومن ضروب العقوبات البربرية كالتعذيب، والتخويف»[32]. وهنا نورد إحصاء بعدد الذين أُحرقوا في مدينة مرسية بين أعوام 1557 و1563م.

السنوات	عدد الذين أحرقوا	عدد من أحرقوا على صورة تمثال	عدد الذين تلقوا عقوبات
1557	11	–	43
1559	33	05	43
1560	14	22	29
1560	16	08	48
1562	23	–	17
1563	17	04	47

مصدر الجدول: لوي كارديك: الموريسكيون الأندلسيون، مرجع سابق، ص106

ففي سنة 1564 تلقى موريسكي مائتي جلدة، وقضى خمس سنين في الأشغال الشاقة بالبحر، أما المدعو «رودريقوا الروبيوا» فحجز عنده عدة كتب من مخطوطة من طرف نظام التفتيش الديني في أراغون 1567[33].

ونلاحظ من الجدول ازدياد أعداد المعاقبين من قبل محاكم التفتيش من عام

1560 إلى 1563م، وهذا يفسر شدة الاضطهاد فى هذه الفترة، التى ستكون عاقبتها تمرد الموريسكيين، وقيام ثورة البشرات.

غرف آلات التعذيب:

كتب الكولونيل «ليمونسكى» أحد ضباط الحملة الفرنسية في إسبانيا عام 1809م عن تلك الغرف ناعتًا إياها بأنها: «غرف آلات التعذيب، وتمزيق الأجساد البشرية»، ولقد جاء في وصفه المؤثر أن تلك الغرف «امتدت إلى مسافات كبيرة،، وكانت كلها تحت الأرض، وقد رأينا بها ما يستثير النفس، ويدعوها أن تتقزز ما عاشت، وامتد بها العمر[34].

رأينا غرفًا صغيرة بحجم الإنسان، بعضها عمودي، وبعضها أفقي، فيبقى سجين العمودية فيها، واقفًا على رجليه مدة سجنه حتى يُقضى عليه، ويبقى سجين الأفقية ممددًا حتى يموت، وتبقى الجثة في السجن الضيق حتى تُبلى، ويسقط اللحم عن العظم، ولتصريف الروائح الكريهة المنبعثة من الأجساد البالية، فُتحت كُوّة صغيرة إلى الخارج، وقد عثرنا على عدّة هياكل بشريّة لا تزال في أغلالها سجينة مقيدة؛ أما السجناء فرجال، ونساء، تتفاوت أعمارهم بين الرابعة عشرة، والسبعين[35].

وعن آلات التعذيب، كتب الكولونيل «عثرنا على آلات لتكسير العظام، وسحق الجسم؛ وكان يبدأ بسحق عظام الأرجل، ثم عظام الصدر، والرأس، واليدين؛ كل ذلك على سبيل التدريج حتى تأتي الآلة على كل الجسد، فيخرج من الجانب الآخر لها كتلة واحدة»[36].

وأضاف: «عثرنا على صندوق في حجم رأس الإنسان تمامًا، تُوضع فيه الرأس بعد أن تُربط أيدي، وأرجل صاحبها بالسلاسل، فلا يقوى على الحراك، وتقطر على رأسه من ثقب في أعلى الصندوق نقط الماء البارد، فتقع على رأسه بانتظام، في كل دقيقة نُقطة. وقد جُن الكثيرون بسبب ذلك اللون من العذاب قبل الاعتراف،

ويبقى المعذب على حاله هذه حتى يموت» وعثرنا على آلة ثالثة للتعذيب تُسمى «السيدة الجميلة» وهي عبارة عن تابوت تنام فيه صورة امرأة جميلة، مرسومة على هيئة الاستعداد لعناق من ينام معها، وقد برزت من جوانبها عدة سكاكين حادة؛ وكانوا يطرحون المعذّب الشاب فوق هذه الصورة، ويطبقون عليه باب التابوت بسكاكينه بعُنف فتمزق السكاكين جسم الشاب، وتقطعه إربًا... كما عثرنا على عِدّة آلات لسل اللسان،، ولتمزيق أثداء النساء، وسحبها من الصدور بواسطة كلاليب حديدية حادة، ومجالد من الحديد الشائك لجَلد المعذبين، وهم عرايا حتى يتناثر اللحم من العظم»[37]. وفي هذا الإطار من الوصف نجد الكثير من آلات التعذيب، التي وقعت رقاب الموريسكيين تحتها.

من هنا المأساة....

تعددت أساليبهم الشنيعة في حق الملايين من الأبرياء، ولم أذكر هنا إلا جزء بسيط من إجرامهم، وسوداويتهم في حق الذين أرادوا فقط أن يمارسوا ديانتهم بكل سلمية، رحلت غرناطة، ورحلت معها أرواح الأبرياء بين يديّ الطغاة الذين لا يعرفون معنى الإنسانية، يتملّكني الفضول كيف للعالم أن ينسى هذه الفظائع،، وأن يتهم المسلمين، ويناديهم بالإرهابيين؟ يبقى السؤال هل لبشرًا قد يخرج بأفكار تعذيبية، وشيطانية كتلك؟ هل ما زال العالم يرى أن المسلمين إرهابيين، وأن أوروبا، وفظائعها في حق المسلمين سواء في إسبانيا أو في البلدان الإسلامية التي احتلوها أصحاب حضارة، وحداثة؟ فإذا كانت حضارة فهي حضارة رُويت بدم الأبرياء، واغتنت على حساب نهب ثروات العالم الإسلامي، والعربي، فهل تزوير، وقلب للحقائق أفظع من ذلك؟ ففعليًا لا مكان للضعيف، فالقُوَى من تحكُم، وتحمي الحقوق، ويُكسب بها الاحترام، فهل من معتبر يا قارئ، وكاتب التاريخ؟

المأساة العاشرة:
مأساة أقلية بين التنصير، والحفاظ على العقيدة، والهوية.

مسلمو إسبانيا.. ما بين التنصير بالإجبار، والحفاظ على الهوية[38]

كانت أحوال الموريسكيين، وهم الأندلسيين المسلمين الذين أُجبروا على التنصير بعد سقوط غرناطة عام 1491م؛ فنرى تنصيرًا، وحرقًا للتراث، وللكتب العربية، وهو ما يناقض نصوص معاهدة التسليم، التي تنص على احترام عاداتهم، وشعائرهم الدينية، ولكن بعد التسليم حدث عكس نصوص المعاهدة تمامًا، وما سنذكره هو جزء قليل من كثير حدث، حيث بدأت مرحلة جديدة، ومختلفة على هؤلاء، وسنذكر جزء بسيط من معاناتهم.

في 20 أكتوبر 1525م خيَّر فيليب الثاني كل المدجنين في مملكة (بلنسية) بين تغيير دينهم أو مغادرة الأراضي الإسبانية في تاريخ أقصاه 8 نوفمبر من العام نفسه، بعد ذلك نشر مرسومًا إمبراطوريًا في هذا السياق، تم فيه الحَث على ضرورة حضور جميع موريسكيي بلنسية، كباقي الطوائف الأخرى، للخطب المسيحية، وارتداء أهلة (جمع هلال) من القماش الأزرق مرئية على قبعاتهم، كما أُبلغوا أنه لا يجوز لهم امتلاك أسلحة هجومية أو دفاعية، وترك العمل في الأعياد المسيحية، وكذلك عدم الاحتفال بالأعياد الإسلامية، وفي العام التالي، تم تطبيق هذه اللائحة من الشروط على موريسكي أراجون أيضًا، وعلى مدى القرن السادس عشر، وحتى عملية الطرد النهائي بين عامي 1609 – 1614م، كانت رغبة السلطات، والمؤسسات المسيحية من مراقبة تصرفات الموريسكيين الدينية تزداد،

وكانت المراقبة أكثر إحكامًا، وتشمل أي اختلاف يمكن تفسيره، على أنه دليل على الإسلام؛ من المأكولات، والمشروبات إلى طريقة الاحتفال بالأعياد.

تمسك الأندلسيين بإسلامهم رغم تعرضهم للأذى في أنفسهم، وأموالهم، لقد كانوا يُعمدون أبناءهم تنفيذًا للقانون، وعندما كانوا يعودون إلى منازلهم كانوا يزيلون كل العلامات المقدسة بالماء الساخن.

كان مصدر كل تلك المواجهات الخلط بين التنصير الإجباري، والتعميد غير الشرعي الذي قبّله المسلمون لإنقاذ ما يمكن إنقاذه في مجتمع إسباني يسيطر عليه المسيحيون، ولا يقبل بوجود اختلافات دينية، ونعتقد أن الخلط في المسائل الدينية هو أساس المشكلة الدينية للموريسكيين في المجتمع الإسباني، كان المسيحيون يعتبرونهم «مسيحيين غير متدينين»، بينما كانوا هم يعتبرون أنفسهم مسلمين بقلوبهم، ولا يربطهم بالعقيدة المسيحية إلا الشكل الخارجي، وأنهم يفعلون ذلك؛ لكي يستطيعوا الحياة في ذلك المجتمع الذي يضطهد المسيحيين غير المتدينين، ولا يسمح بوجود غير مسيحيين.

إن غموض الوضع يفسر اللائحة الدينية، والاجتماعية للموريسكيين أو المسلمين الإسبان طوال القرن السادس عشر، وأوائل القرن السابع عشر، ولقد تمادت العجرفة الإسبانية في ملاحقة بقية المسلمين، حيث أصدر فيليب الثاني مجموعة من الشروط في حق حوالي 400 ألف موريسكي، مقابل السماح لهم بالاستقرار، أوردها فيردود Viardot على الشكل التالي:

– عليهم تعلم اللغة القشتالية، في ظرف لا يتعدى ثلاث سنوات، ومن فاته الموعد، ولم يتعلم اللغة القشتالية فلن يقبل منه الكتابة، ولا الكلام بالعربية.

– عليهم تغيير ملابسهم بالتخلي عن الملابس الإسلامية، على أن يكون لباسهم كلباس القشتاليين.

– احتفالات الزواج، والعرس، يجب أن تتم على الطريقة القشتالية، كما يجب

عليهم ترك أبواب بيوتهم مفتوحة أيام الجمع، والأعياد الإسلامية.

- التخلي عن أسمائهم الإسلامية، واتخاذ أسماء مسيحية.

- منع الاستحمام، وهدم الحمامات حتى التي توجد في البيوت.

لكن السؤال يبقى مطروحًا: هل استطاعت حكومة إسبانيا أن تجبر الموريسكيين على تطبيق هذه الشروط؟ وإلى أي حد نجحت في سياستها هذه؟ لقد تمكنت إسبانيا من تحقيق بعض هذه الشروط، فمثلًا فيما يخص اللباس، أصبح بعض الموريسكيين يتزينون بالزي النصراني، كما هو الشأن في قشتالة، وبالنسبة للأسماء فمن خلال الدراسة التي قام بها بنصار Bennassar لاحظ أن الأسماء لحقها في البداية تحريف، فمثلا حرف اسم يوسف إلى خوسي (Juce)، وأحمد إلى أميت (Amet أو Axarnet)، وعبد الله إلى أودالا (Audallas). لكن في حي البيازين فُرضت الأسماء المسيحية بالقوة؛ فتم إحصاء ٪70 من حوالي 439 رجل يحملون أسماء نصرانية مثل خوان، فرانسيسكو، وألونسو، وهرناندو، في حين تم إحصاء ٪87 من النساء تحملن هن الأخريات أسماء نصرانية من قبيل ماريا، وإسابيل، وكاطلينة.

وجدت هذه السياسة معارضة شديدة، حتى من قبل بعض النبلاء الإسبان الذين تولوا الدفاع عن الموريسكيين، فقد دافع فرانسيسكو مولي، أحد أبناء الأسر النبيلة، عن الخصائص الثقافية للمجتمع الغرناطي التي صدرت ضدها التشريعات.

فبالنسبة للغة قال: أليس من بين من يتحدث العربية مسيحيون طيبون في الشرق الأوسط، ومالطا؟ وبخصوص الملابس أشار إلى أن إسبانيا لها شأن عظيم بين الدول الأخرى، حيث يمكنها الافتخار بوجود أنواع كثيرة من الأزياء الإقليمية، أما عن التشريع الذي يمنع الحمامات العامة، فقال إن الحمامات موجودة دائمًا في جميع الأقاليم، فإذا منع الناس من الذهاب إلى الحمامات للاغتسال، أو

من الاغتسال في بيوتهم، فإلى أين يذهبون؟ لكن مذكرته هذه أخفقت في إقناع السلطات بالعدول عن رأيها، مما دفع الموريسكيين إلى الاستمرار في تطبيق تقاليدهم بطرق سرية، كطريقة الاحتفال بالزواج، حيث كان يتم الاحتفال به على الطريقة الأندلسية.

عانى مسلمو الأندلس من أنواع الشتم، والسب، فقد كان الإسبان دائمًا ينعتونهم بالبهائم لتحقيرهم، وبينما كان الإسباني يعطي لنفسه صفة الأسد أو النسر؛ لعلاقة هذه الحيوانات أو رموزها بالنبلاء.

وتذكر بعض الكتابات الإسبانية أيضًا أن هؤلاء لم يكونوا مسلمين علانية، بل كانوا مُلحدين مستترين، وأنهم كان ينقصهم الإيمان رغم تعميدهم المتكرر، وكانوا يقومون ببعض الأعمال الحميدة من الناحية الأخلاقية، كانوا صادقين في التجارة، والتعاقدات، وكانوا يعطفون على الفقراء، ولا يحبون الدعة، بل كانوا يعملون جميعًا، لكنهم كانوا لا يواظبون على صلوات أيام الأحد، ولا يوقرون أعياد الكنيسة، وكانوا يحضرون الصلاة خوفًا من العقوبة، وكانوا يعملون في أيام الأعياد، وأبوابهم مغلقة، كانوا يعملون برضا يفوق رضاهم في الأيام العادية، وكانوا يوقرون يوم الجمعة أكثر مما يوقرون يوم الأحد، وكانوا يغتسلون حتى لو في شهر ديسمبر، ويؤدون صلاتهم، على أنه، ومن وجهة النظر الإسلامية، فإن الواحد من هؤلاء ربما كان مسلمًا قويًا متمسكًا بعقيدته، رغم ما تعرض له من أذى في كل ما يملك.

حيث نرى هنا أن في ذلك دليلًا على تمسك الأندلسيين بإسلامهم، رغم تعرضهم للأذى في أنفسهم، وأموالهم، لقد كانوا يعمدون أبناءهم تنفيذًا للقانون، وعندما كانوا يعودون إلى منازلهم كانوا يزيلون كل العلامات المقدسة بالماء الساخن، وكانوا يقيمون شعائرهم الإسلامية، وكانوا يطلقون على أبنائهم أسماء إسلامية، وكانت عرائسهم يذهبن إلى الكنيسة لكي يباركن، وهن يرتدين أزياء مسيحية مستعارة، وعندما يعدن إلى منازلهن كن يخلعنها، ويرتدين ملابس

إسلامية، ويحتفلن بالزفاف بآلات موسيقية، وأغنيات موريسكية، وكُن يتعلمن الصلوات المسيحية الخاصة بالزواج لأن القساوسة كانوا يمتحنوهن، وبعد الزواج كُن ينْسينَها.، وتضيف تلك الكتابات أن هؤلاء كانوا يعترفون بخطاياهم، لكن اعترافاتهم كانت مقتضبة؛ أي كانوا يعترفون اليوم بما اعترفوا به بالأمس، كان أحد الموريسكيين على فراش الموت، فذهب إليه القسيس، وأخذ منه القربان، ولما رأى القسيس أن الموريسكي حزين لكل ذلك قال له: «إذن هي ثلاثة أنواع من التعذيب في يوم واحد: الاعتراف، والقربان، والزيت المقدس».

وفي قرى البشرات، والساحل كانوا يلقون القبض على الأتراك، ومسلمي البربر الذين كانوا يسرقون الأطفال ليلًا، وكان الموريسكيون - كلصوص منازل - يقومون بهذه السرقات بشكل أفضل، وبعد ذلك كانوا يرحلون إلى بلاد البربر ليلًا، ومعهم الأطفال المسيحيون، وهنا نرى تناقضاً، حيث مدح الكاتب في عبارات سابقة عطف الموريسكيين على الفقراء، وحبهم لعملهم، فكيف يسرقون، وهم لا يحتاجون، ومُطاردون ومُراقبون من قبل محاكم التفتيش، خصوصًا، وأنهم يعيشون في ظل دولة مسيحية متشددة، وتقيم لهم محاكم التفتيش، وتراقبهم، وترصد تحركاتهم، ونعتقد أن تلك الاتهامات كانت لشحن المسيحيين ضد الموريسكيين، وأخذها حجة لزيادة تعذيبهم، وترصدهم من قِبل الكنيسة، ومحاكم التفتيش.

بالإضافة إلى هذا؛ عانى مسلمو الأندلس من أنواع الشتم، والسب، فقد كان الإسبان دائمًا ينعتونهم بالبهائم لتحقيرهم. وبينما كان الإسباني يعطي لنفسه صفة الأسد أو النسر؛ لعلاقة هذه الحيوانات أو رموزها بالنبلاء، كان يضفي على الموريسكي صفة الحيوان المتوحش أو يشبهه بالنمل أو الأرانب أو الفئران لكثرة ولادتهم، أو باللصوص كالغربان.

وهكذا أخفقت إسبانيا، رغم الإجراءات التي اتخذتها في إدماج الشعب الموريسكي مع الشعب الإسباني في تحقيق وحدة إسبانيا القومية.

من هنا المأساة....

أن تجد شعوب تبيع دينها في مقابل مكانة عند الغرب، في حين نجد شعب مثل شعب الموريسكيين يخسر كل شيء، ويعذب، ويُضطهد في مقابل التمسك بهويته، وعقيدته، فما أجمل هذا الدين، الذي يجعل كل من يدخله يتمسك به لآخر نفسًا يتنفسه، فلنا في بلال مثال، والمهاجرين أكبر دليل، وغيرهم الكثير من القصص، وأعظم مثال عندما ترك النبي صلى الله عليه وسلم مكة الوطن، والذكريات، والأهل، والعشيرة في مقابل دين الإسلام، ونشره، فكان الموريسكيين نموذجًا حديثًا لشعب فقد وطنه مقابل دينه، فتحية لكل مخلص لقضيته، ودينه.

المأساة الحادية عشر:
مشاهد سقوط حضارة في عيون مؤرخيها.

الرؤية التاريخية في كتابات ابن الخطيب واحاطته في غرناطة[1].

بعد سقوط غرناطة سنة 1492 توالت نكبات ومحن غير المسيحيين بالأندلس، وكان حظ المسلمين من هذه المعاناة وافرا، بدءا بالمضايقة والتمييز القانوني مرورا بمحاكم التفتيش وانتهاء بالطرد والتهجير. تعمقت المأساة بعد إصدار فليب الثاني ملك إسبانيا (1556 – 1598) مجموعة من القرارات، بإيعاز من البابا، رامت مزيدا من التضييق على الموريسكيين. فتم منعهم من استعمال اللغة العربية، بعد منحهم ثلاث سنوات لتعلم اللغة القشتالية، مع تسليم الكتب العربية في ظرف ثلاثين يوما. كما تم منعهم من ارتداء اللباس العربي إلا ما كان مطابقا منه للباس المسيحيين، وأرغمت النساء الموريسكيات على كشف وجوههن، وترك أبواب بيوتهن مفتوحة أيام الأعياد لمراقبة ما يجري داخلها.

واجه الموريسكيون هذه الإجراءات بالتمرد والعصيان أحيانا، كما حصل فيما عرف بثورة الموريسكيين أو ثورة غرناطة الكبرى، أو بالتقية كما يقول الشهاب الحجري، صاحب رحلة أفوقاي، في هذا الصدد «وكانوا يعبدون دينين: دين النصارى جهرا ودين المسلمين في الخفاء من الناس، وإذا ظهر على شيء من عمل المسلمين يحكمون فيه الكفار الحكم القوي، يحرقون بعضهم كما شاهدت من

(1) عبداللطيف مشرف: الرؤية التاريخية لأحوال الأندلس الأخيرة(1492 – 1609م) في ضوء كتابات «ابن الخطيب وابو القاسم الحجرى» دراسة مقارنة بكتابات ومؤرخي الأندلس وإسبانيا المعاصرين، مجلة الجمعية التاريخية، عدد 2017، مؤتمر الرحالة والتاريخ، القاهرة 2017

عشرين سنة قبل خروجي منها». بعد هذا الخروج الاضطراري جاءت الأوبة في شكل مبادرة لرد الاعتبار، ليس فقط تعويضا عن أغراض ضاعت للموريسكيين في طريقهم إلى «دار الإسلام» بعد أن لفظتهم «دار أوطانهم الإسباني»، بل أرادها أبو القاسم الحجري محاولة لتجميع الطاقات من إسطنبول إلى أمستردام ضد عدو مشترك - إسبانيا - يقتضي منطق الثأر أن ينسج تحالف ضده. في هذه الرحلة التي تعكس تجربة حياة ومراس ومثاقفة، برزت شخصية السفير المناظر المفحم للخصوم، وتداخلت مرارة المعاناة الشخصية بعمق مأساة الجماعة، الموريسيكية، فاحتج وحاجج، رافع وناظر، طلب وتوسل.

وأنجبت إمارة غرناطة، خلالَ القرن الهجري الثامن، عدداً من الشعراء والكُتاب والأدباء الذين أعادوا للأدب الأندلسي المتميِّز الكثيرَ من شبابه وبريقه وقوته؛ منهم ابنُ خاتمة الأنصاري؛ شاعر ألمرية، وابن جُزَيّ، وابنُ زُمْرُك. ولعل من أبرزهم جميعاً الوزير لسان الدين بن الخطيب الذي كان عبقرية فذة، وأديباً موسوعياً خاض غمارَ مختلِف ميادين المعرفة والإبداع من شعر ونظم وترسُّل وموسيقى وطبّ وتصوُّف ورحلة وتاريخ... وصنَّف في جُلّ المجالات مؤلفات نفيسة؛ بعضها وصل إلينا (في حدود الثلث حسب بروڤنسال)، وأكثرها لا نعرف عنه سوى اسمه أو أجزاء منه فقط، ومن أشهر كتب ابن الخطيب وأبرزها وأضْخمها كتابُ «الإحاطة في أخبار غرناطة» الذي يشكل موسوعة أندلسية عظيمة في التاريخ والأدب معاً.

ابن الخطيب مؤرخ بين الوزارة والخصوم

ابن الخطيب مؤرخ ووزير وشاعر أندلسي كبير، ترك لنا ابن الخطيب مؤلفات عديدة في الأدب والتاريخ، فما هي سيرة ابن الخطيب؟ وما الكتب التي تركها لنا ابن الخطيب؟

الشاعر الكاتب المؤرخ السياسي الوزير المقتول: لسان الدين أبو عبد الله

محمد السلماني، كان مولده في سنة 713هـ/ 1313م، في لوشا جنوب غرناطة الأندلسية، غير أنه أقام منذ صباه في غرناطة التي انتقل إليها أبوه باعتباره من موظفي بلاط بني نصر، وتلقى تعليمه على أشهر علماء عصره، فصار من أشهر المؤلفين والشعراء ورجال السياسة، لا في غرناطة الأندلسية فحسب بل في الأندلس ككل[1].

وتقلد الوزارة مرات عديدة، وتعرض للعزل والاعتقال؛ حتى لَقِيَ مصرعه مقتولاً في سجنه خارج غرناطة سنة 776هـ/ 1774م، وللأسف الشديد فإنه لم يبقَ إلا نحو الثلث مما خلّفه لنا ابن الخطيب من المؤلفات العديدة في التاريخ والجغرافيا والشعر والتصوف والفلسفة والطب[2].

ولُقب الرجلُ، أيضاً، بـ»ذي الوزارتين»؛ لجمْعه بين مهنة الوزارة ومهنة الكتابة. وقد وُلد بمدينة لوشا (Loja)، التي تبعُد عن غرناطة (أو إغرناطة) بنحْو عشَرة فراسخ، في الخامس والعشرين من رجب عام 713هـ، المُوافق للسادس عشر من نوفمبر عام 1313م. وينحدر من بيت علم وجاه وفضل وشرف؛ بحيث يحدّثنا ابن الخطيب نفسُه بأن بيتهم كان يُعرَف بـ»بني الوزير»، ثم سُمّي كذلك بـ»بيْت الخطيب». وسببُ التسمية الأخيرة أن جدَّه الأعلى كان عالماً ورعاً يُلقي دروسه ومواعظه تحت أطلال برْج؛ ومنه غلب عليه اسمُ «الخطيب»، وأوْرَث بَنيه هذا اللقبَ، فعُرفوا بـ»بني الخطيب» منذ ذلك الإبّان[3].

كما أن أباه عبد الله بن سعيد (ت741هـ) يعدّ من علماء لوشا في زمانه، وكان له، فضلاً عن ذلك، مركز متميزٌ داخل المخزن الغرناطي أو البَلاط السلطاني؛ إذ

(1) – عبد الهادي التازي: ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، 1987، ص ص41 – 42.

(2) – عبدالهادي التازي: المرجع السابق، ص 43.

(3) – حسن الوراكلي: لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين (دراسة وبيبليوجرافيا)، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، 1987، ص113.

إنه تقلد جملة من المناصب السياسية، أهمّها اشتغاله في ديوان الإنشاء مع الأديب الرئيس أبي الحسن بن الجيّاب. وقد خصَّ ابن الخطيب أباه بترجمة في «الإحاطة».

نشأ ابن الخطيب وترعْرَع في غرناطة؛ عاصمة بني الأحمر، التي انتقلت إليها أسرته لأسباب معينة. ومع أنه استقرّ بها منذ حداثة سنه، إلا أنه لم ينسَ قطُّ لوشا، بل ظلت حاضرة في قلبه، راسخة في وُجْدانه وكأنها أمٌّ له. ومما يزكّي هذا الكلام أنه تغنّى بذلك الحب مراراً في قصيده، بل إنّا نُلفيه في بعض قصائده يسميها «فتيّة غرناطة»[1].

لقد عاش ابن الخطيب ردحاً من الزمن في كنَف سلطان المغرب الأقصى، ولاسيما في ثغر سلا، ونقل لنا كثيراً من حوادث حياته في هذا الأخير، وأشاد بطيب مقامه هناك؛ وذلك في كتابه «نفاضة الجراب». وقد أنجز خلال مستقرِّه بهذا المكان جملة من المؤلفات توزعت ما بين منظوم ومنثور، ومنها بعض تصانيفه التاريخية القيِّمة؛ من مثل «اللمحة البدرية»، و«رقم الحُلل في نظم الدول» (تونس – 1898)؛ وهو عبارة عن تاريخ منظوم للدول الإسلامية والخلفاء الأوائل وبني العبّاس وبني الأغلب والعبيْديين وبني أمية بالأندلس وملوك الطوائف والمرابطين والموحدين وبني مرين وبني نصْر. ولهذا الكتاب نسخة وحيدة في خزانة القرويين بفاس، وثلاثُ نسخ بالخزانة العامة بالرباط (المكتبة الوطنية حالياً)، وثلاث نسخ كذلك بالخزانة الملكية بالرباط. ويُضاف إلى هذا كثيرٌ من الرسائل السلطانية التي دبَّجها، وأثبتها كلها في النفاضة[2].

مثلما تتلمذ الرجل لجملةٍ من الشيوخ والأساتيذ، كان له عددٌ من التلاميذ النبهاء الذين أخذوا عنه العلم والأدب وفنون السياسة، واغترفوا من بحر علمه

(1) – عبدالهادى التازى: المرجع السابق: ص 44.

(2) – يمكنك أن تقرأ لابن الخطيب رسائل أخرى، سلطانية وغير سلطانية، في كتابه «كناسة الدكان بعد انتقال السكان» (ألفه بسلا)، تحقيق: محمد شبانه، مراجعة: حسن محمود، دار الكاتب العربي، ط1966.

الغزير. ومنهم أبو عبد الله الشريسي؛ مؤدِّب أولاد السلطان الغنيّ بالله النصْري (ت793هـ)، الذي تولى نسْخ «الإحاطة» أولَ مرة من مُسوَّدات أستاذه، فجاءت هذه النسخة في ستة مجلدات؛ حسبما يذكر المقري. ومنهم ابن زُمْرُك الذي كان، في بادئ الأمر، معاوناً له في الوزارة، ثم تحوَّل، فيما بعدُ، إلى واحدٍ من أكبر خُصومه، طالما حاول الإيقاع به، وتكدير صَفو علاقته بالسلطان الغرناطي من جانب، وبالبلاط المغربي من جانب آخر[1].

عاصر ابن الخطيب مجموعة من أكابر العلماء ورجال الأدب، وفي طليعتهم العلامة عبد الرحمن بن خلدون الذي أتْحف البشرية بمقدمته الخالدة. وكان الاثنان يتراسَلان ويتبادَلان الكتابات، وكان يقرّ كلٌّ منهما بمكانة الآخر في العلم والمعرفة. وقد ترجم كل منهما للآخر. ومنهم، كذلك، الرحّالة الشهير ابن بطوطة (ت779هـ)، والإمام الأصُولي أبو إسحاق الشاطبي (ت780هـ)[2].

لقد كثر خُصوم ابن الخطيب في الأندلس، وعلى رأسهم تلميذه النابه الكاتب الشاعر ابن زمرك، فبدأ مركزه المتميز يضعف يوماً بعد يوم؛ فقرَّر ترْك السياسة ومتاعبها ومسؤولياتها، والاتجاه نحو الزهد والاعتكاف وزيارة البيت الحرام لأداء مناسك الحجّ. فاستشار موْلاه في الأمر. وقد كان لابن الخطيب السلطان المُطلقُ في إدارة شؤون غرناطة، وكان العُمْدة في سياسة المنطقة داخلياً وخارجياً؛ لذا نرى سلطانَه شديدَ التمسُّك به، والتماس مشُورته في الأمور كلِّها، فلم يسمح له بترْك الوزارة أو التغيُّب عنها مدة، ولو لأداء فريضة شرعية أساسية. فما كان من ابن الخطيب إلا أن احتال على السلطان، عاقداً العزمَ على الفرار إلى العدوة الأخرى، بعدما يئِس ميدان السياسة ومشاكله، فكتب رسالة مؤثرة إلى مليكه

(1) – فريد أمعضشو – المغرب: ابنُ الخَطيب الأندلسي وإحاطته، العدد 70، عود الند مجلة ثقافية فصلية K لناشر: د. عدلي الهواري.

(2) – فريد أمعضشو – المغرب: ابنُ الخَطيب الأندلسي وإحاطته، المرجع السابق.

يودّعه فيها، ويشرح له، عبْر أسْطرها، دواعيَ استقالته[1].

ومن جانبهم واصل خصوم ابن الخطيب إشعال نار التلفيق والاتهام ضده، فرمَوْه بالإلحاد والخروج عن الشرْع في بعض ما كتب في مؤلفاته. وكان أبرز مُروِّج لهذه الدعاية، كما هو معلوم، تلميذه وخلَفُه في الوزارة أبو عبد الله ابن زمرك. وانضاف إليه النباهي الذي كان من أكبر وأوْفى أصدقاء لسان الدين، قبل أن تتوتَّر العلاقة بينهما فيما بعدُ لاعتبارات مّا[2].

وساءت العلاقة بين بلاطي فاس وغرناطة، فدفع ابن الأحمر بعضَ الثوّار والخوارج من بني مرين إلى الانقلاب والثورة على السلطان المريني الذي أبى أن يلبِّي رغبة السلطان الغرناطي في قضية الوزير الأسبق ابن الخطيب، فأمَدَّهم بالعون المادي والمعنوي. وقد أفلح الثوار فعلاً، فتمكنوا من خلع الملك الطفل السعيد، وتنصيب الأمير أحمد بن السلطان أبي سالم مكانَه عام 776هـ[3].

وكان التفاهُم قد تمَّ بين الغني بالله وبين زعماء الثورة بخصوص مصير ابن الخطيب. وبمجرد نجاح الانقلاب، بادر السلطان الجديد بإلقاء القبض على ابن الخطيب واعتقاله. وحُوكِم بعدما نُسبت إليه اتهامات كثيرةٌ كان للنباهي وابن زمرك اليد الطولى في إعدادها. وعُزر الرجلُ، وعُذب أمام الملإ، وسُجن في زنزانة مظلمة؛ فهاجمه بعض أعدائه في سجنه ليلاً، وقتلوه خنقاً، وأخرجوا جثته في الغد، ودُفنت بالمقبرة الواقعة تُجاه باب المحْروق؛ أحدِ أبواب فاس القديمة، ثم أخرجت جثتُه في اليوم التالي، وطُرحت فوق القبر، وأضرمت فيها النيران، فاحترق شعر الرأس واسودّت البشَرة، ثم أعيدت الجثة إلى القبر قبل أن تحترق كليةً. وقد وقعت هذه المأساة في ربيع الأول، أو ربيع الآخِر، سنة 776 للهجرة، الموافق لأغسطس،

(1) – محمد الكتاني: ابن الخطيب والمذاهب الفكرية في عصره، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، 1987، ص40.

(2) – فريد أمعضشو: المرجع السابق.

(3) – محمد الكتاني: المرجع السابق.

أو شتنبر، سنة 1374 للميلاد[1].

وقد أشار ابن خلدون إلى تلك الواقعة الأليمة في تاريخه، قائلاً عن القتيل إنه «الهالك لهذا العهد شهيداً بسعاية أعدائه». وهكذا، رحل ابن الخطيب عن دُنيا الناس تاركاً ثلاثة أبناء، هم: عبد الله، ومحمد، وعليّ. وكانت وفاته، كما قال المرحوم محمد عبد الله عنان؛ محقق «الإحاطة»، «ضحية الجهالة والتعصُّب والأحقاد السياسية والوَضيعة»[2].

كتاب «الإحاطة»: مضمونه، ومنهجه، وقيمته

ومن المواقف البارزة في حياة الرجل، التي يحسُن بنا أن نومئ إليها، موقفُه من مستقبَل غرناطةَ بلدتِه، فقد تنبَّأ بسقوط مملكة بني الأحمر نظراً لتلك الحال المُزْرية التي رآها عليها عصْرَئذٍ.

يعتبر كتاب (الإحاطة في أخبار غرناطة) من أهم مؤلفاته التاريخية، ترجم فيه لمن نشأ في غرناطة – إحدى عواصم الأندلس وحاضرة ملك بني نصر – لعهده من رجال السيف والقلم، منذ قامت في الأندلس دولة إسلامية إلى عصر المؤلف. وأسهب لسان الدين بن الخطيب في كل ما أورده عن رجال بني نصر، وأشار إلى من كان يعاصر ملوكهم من الملوك في المغرب وتونس وإسبانيا.

إن لهذا الكتاب مجموعة من الأصول المخطوطة في عدد من المكتبات العالمية؛ مثل مكتبة ليدن (هولندا)، وجامع الزيتونة (تونس)، ودار الكتب (مصر)، والمتحف البريطاني، والخزانة الملكية (الرباط)، وخزانة جامع القرويين (فاس)، ومكتبة رواق المغاربة بالأزهر الشريف (مصر)، ومكتبة سان لورِنْزو الملكية بالإسكوريال (إسبانيا)، ومكتبة أكاديمية التاريخ الملكية بمدريد... وقد حُقق

(1) – محمد عبد الله عنان: أندلسيات، سلسلة «كتاب العربي»، الكويت، رقم20، يوليو 1988، ص66.

(2) – محمد عبدالله عنان: المرجع السابق نفسه، ص66.

الكتاب بعْدَ النظَر في هذه المخطوطات، أو في عديدٍ منها على الأقل، والمقابلة بينها.

تشتمل «الإحاطة» على التاريخ والجغرافية وغيرهما من المعارف والعلوم»، ولعل هذا الغنى والتنوع هو الذي جعل بعض الدارسين يدعون إلى إعادة تحقيق النص المذكور من قبل لفيفٍ من العلماء من تخصصات شتى، ذلك بأن «نشْر كتاب «الإحاطة» يحتاج إلى لجنة من الأدباء والمؤرخين والجغرافيّين؛ لأن المجهودات الفردية لا تكفي لتحقيق مثل هذه الموسوعة الضخمة المعقدة التي تحتاج إلى مجهود جماعي لتحقيق ما ورد فيها من أعلام وأماكن، وشرح أسلوبه على أساس علمي صحيح.»[1].

وكان قد شكّ المرحوم المَـنُّوني في أصالة «الإحاطة» المتداوَل نصُّها بين القراء والدارسين منذ الخمسينيات، منطلِقاً ممّا لَمَسه من تناقض حين قارن بعضاً من ترجماتها بما أورده المؤلِّف عينُه في مصنفاته الأخرى بخصوص مترجَم له بعينه. يقول: «يثير الانتباهَ في كتابات ابن الخطيب التاريخية تناقضُه في أوْصاف بعض الناس، فيُحلي مترْجَمه بحلية العلم والفضل وكرم الأبوة... حتى إذا عاوَد ترجمته في مؤلَّفٍ آخرَ يسْلبه كلَّ فضيلة، ويستبدلها بما يكيل له من الشتم والسخرية. ونماذج هذا ليست بالقليلة عند ابن الخطيب، ومنها ما يتبيَّن بالمقارنة بين تراجم وردت في «الإحاطة» ثم في «الكتيبة الكامنة»؛ حيث كان التعريفُ بأمثال أبي سعيد ابن لب، والنباهي، وأبي القاسم بن قطبة الرؤاسي، وابن زمرك، وأحمد بن سليمان بن فركون. فتأتي تراجمُ هؤلاء في «الإحاطة» بما يتجاوَب مع مركزهم العلمي أو الأدبي حتى إذا قدّم تراجمهم في «الكتيبة» تتغيّر رؤية ابن الخطيب للمترجم، ويسْبغ عليه – أحياناً – من قبيح النعوت ما لا يحتمل، ويصل به التناقض إلى الأمر بإسقاط ترجمة ابن فركون من «الإحاطة»، على حين أنها تنصف واقع المترجم، عكس ترجمته المظلمة في «الكتيـبة»»[2].

---

(1) – أحمد مختار العبادي: لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية، مجلة «عالم الفكر»، الكويت، ع.2، مج.16، صيف 1985، ص47.

(2) – محمد المنوني: محاولة لقراءة جديدة في التراث التاريخي لابن الخطيب، مجلة كلية الآداب بنطوان، ع.2، س.2، 1987، ص152.

إن كتاب «الإحاطة» ليس تاريخاً لغرناطة بالمعنى المحدود، ولكنه عبارة عن موسوعةٍ شاملة لكل ما يتعلق بهذه الكُورَة الأندلسية المعروفة من الأخبار والأوصاف والمعالم. إذ إنها تصف لنا جغرافية غرناطة وخِططها ومواقعها وما يحيط بها من المُروج والجبال، وتتناول تاريخها منذ نزول أوائل العرب الشوامّ بها، وأخبار مَن كان بها ومَن نزلها أو مرّ بها من الكتاب والشعراء والأدباء والوزراء والمتغلّبين، كما تقدم خلاصة لتاريخ الدولة النصرية مذ عصْر مؤسِّسها محمد بن يوسف بن الأحمر حتى عصْر المؤلِّف (ق8هـ)[1].

وفي «الإحاطة» تراجمُ لكثير من الأعلام الذين عاشوا في غرناطة، أو نزلوا بها، أو مرّوا بها، أو وَفدوا عليها في مختلف عصور التاريخ الأندلسي الممتدّ. وقد أفاض مؤلِّفُها في ذِكر معاصريه من الملوك والوزراء والشيوخ والأقران، واعتنى عناية خاصة بالترجمة لكبار العلماء والكتاب والشعراء ممن جايَلوه، سواء في العدوة الأندلسية أو في العدوة المغربية، وأورد لهم كثيراً من إنتاجهم الفكري شعراً ونثراً. ويضم كتاب «الإحاطة» بين دفتيْه زهاء خمسمائة ترجمة تتفاوت فيما بينها طولاً وقِصَراً وأهميةً، مع ملاحظة أن أغلبها مركَّز وقصير، وأن ما كان يَجْنَح منها إلى الطول، نسبياً، هي، في الغالب، تلك المخصَّصة للملوك والأمراء النَّصْريين الذين عاصرهم، ولبعض حَمَلَة القلم المشهورين[2].

فإذا قارنّا، على سبيل المثال، بين الترجمتيْن اللتين أفرَدَهما ابن الخطيب لأحمد

(1) – من مصادر ابن الخطيب، في «اللمحة»، كتابٌ يظهر من عنوانه أنه يؤرخ لغرناطة، هو «الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة»، نسبه إلى نفسه. ولكنه لم يذكره، إطلاقاً، ضمن ثبت مؤلفاته الوارد في آخر «الإحاطة»، ولا في ترجمته لنفسه في «نفاضة الجراب»! كما أن المهتمين بدراسة التراث الأدبي الأندلسي ونشْره لم يقفوا على مخطوطة للإماطة في أيٍّ من المكتبات التي تحتفظ بكتب هذا التراث! الأمر الذي جعل محمد عنان يرجِّح أن يكون العنوان المذكور عنواناً آخرَ للإحاطة، أو مختصراً لقِسْمها الأول فقط. (انظر تقديمه للإحاطة، 1/ 58 – 59).

(2) – فريد أمعضشو: المرجع السابق.

بن محمد بن أحمد بن يزيد الهمداني اللخمي وابن جزي الكلبي نجد أن الأولى قصيرة جدّاً، على حين أن الثانية طويلة نسبياً. بل إن من تراجم إحاطته ما ناهز الخمسَ وسبعين صفحة؛ كما في ترجمته للأمير محمد بن يوسف بن إسماعيل الغني بالله النصري الغرناطي.

ولم يكن تطويل التراجم شأناً خاصاً بأهل إغرناطة الأصَلاء، بل عمد إلى مثل ذلك مع غير الغرناطيين؛ على نحو ما نرى في ترجمته لمُعاصره أبي عبد الله محمد بن محمد بن أحمد القرشي المقري (ت759هـ)؛ قاضي الجماعة بفاس وتلمسان، الذي استوت ترجمته، في «الإحاطة»، على خمس وثلاثين صفحة تقريباً.

إن المترْجَم لهم في الكتاب مختلفون؛ ذلك بأن ابن الخطيب ترْجَمَ، في إحاطته، للملوك والأمراء (كأمير المؤمنين الموحدي المأمون، وأمير المؤمنين الأندلسي إسماعيل بن فرج بن إسماعيل بن يوسف بن محمد بن أحمد بن محمد ابن خمسين بن نضر بن قيس الخزرجي الأنصاري)، والقوّاد (كأسد بن الفرات المرّي)، والقُضاة (كالخضر بن أحمد بن الخضر بن أبي العافية)، والأدباء (كالحسن بن محمد بن علي الأنصاري)، والعلماء (كأصْبَع بن محمد بن الشيخ المهدي)، والشعراء (كأبي بكر المخزومي الأعمى الموروري)، والطلاب النُّجَباء (كمحمد بن الحسن بن زيد بن أيوب بن حامد الغافقي). ولم يقتصر لسان الدين على الرجال، بل إنه ترجم للنساء كذلك؛ من مثل حمدة بنت زياد المُكَتِّب، وأم الحسن بنت القاضي أبي جعفر الطّنْجالي؛ وهي من أهل لوشا؛ مسقِط رأسه[1].

لقد استهلّ ابنُ الخطيب أولَ أجزاء إحاطته بمقدمة قيِّمة تَعدادُ صفحاتها حوالي الخمْس، افتتحها بقوله: «أما بعدُ حمد الله الذي أحصى الخلايق عدداً، وابتلاهم اليومَ ليَجزيَهم غداً...»، وختمها بقوله: «وجعلت هذا الكتاب قسمين،

(1) – امحمد بن عبود: ابن الخطيب مؤرخاً للأندلس في عهد الطوائف، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، 1987، ص183.

ومشتمِلاً على فنيْن: القسم الأول في حُلى المعاهد والأماكن، والمنازل والمساكن. القسم الثاني في حلى الزائر والقاطن، والمتحرّك والساكن»[1]. فهذه المقدمة، على قِصَرها، ضمّت جملة من العناصر والمضامين؛ ففيها حمدُ الله تعالى والثناء عليه، والصلاة على الرسول الأمين، صلى الله عليه وسلم، وعلى آله وصحبه أجْمعين.

ويطَّرد هذا العرفُ في الكتابات الإسلامية المتقدمة جميعِها. وعقب ذلك، أوْمأ الرجلُ إلى أهمية فن التاريخ، وبيّن بعض دواعي الاحتفال به؛ على نحْو ما فعل ابن خلدون في فاتحة مقدّمته. وفي المقدمة نفسِها ذكر لنا ابن الخطيب سببَ تأليفه «الإحاطة»، وهو أنه رأى كثيراً من العلماء والأدباء قد ألفوا تواريخ لأوْطانهم في الشرق والغرب معاً؛ من مثل ابن عساكر (تاريخ دمشق)، وأبي نُعَيم (تاريخ أصبهان)، والأرْدِسي (تاريخ سمرقند)، والقشيْري (تاريخ الرَّقة)، والأزْرَقي (تاريخ مكة)، وابن النجار (تاريخ المدينة)، وابن الأصغر (تاريخ تلمسان)، وابن أبي زرع (تاريخ فاس)، وابن خمسين (تاريخ الجزيرة الخضراء)، فحرّك فيه ذلك شعوراً دفعه إلى التفكير في كتابة تاريخ لكُورَته «غرناطة»[2].

كما ذكر ابن الخطيب منهجَه في التأليف والترتيب وموضوعات إحاطته؛ إذ أشار إلى أن كتابَه هذا يتحدث عن إقليم غرناطة من حيث هواؤه، وسكانه، وقبائله، وملوكه، وأعْيانه، وأكابرُه، وفضلاؤه، وقضاته، وأدباؤه، وزُهّاده، وغير ذلك من الأمور المتصلة بذلك الإقليم. وأشار، كذلك، إلى أحد المتقدِّمين الذين عمدوا إلى كتابة تاريخ لغرناطة، إلا أن محاولته جاءت قاصرةً في نظره؛ حيث يقول: «كان أبو القاسم الغافقي من أهل غرناطة قام من هذا الغرض بفرض، وأتى من كلِّه ببعضٍ، فلم يُشْفِ من غلة، ولا سدَّ خلّة، ولا كثر قلة، فقمتُ بهذا

(1) – ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تقديم وتحقيق: محمد عبد الله عنان،ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة 1973م،ج1.

(2) – فريد أمعضشو: المرجع السابق.

الوَظيف، وانتدبتُ فيه للتأليف»[1]. وذكر أن عمله هذا الذي هو مُقدِمٌ عليه لن يكون شاملاً، ولن يكون كاملاً؛ لـ»نزارة حظ الصحة، وازدحام الشواغل المُلحّة» [2] عليه. ومما تمتاز به مقدمة «الإحاطة»، من الناحية اللغوية والأسلوبية، غلبة ظاهرة السَّجْع عليها، وكذا طابع الإيجاز والجمل القصيرة المتوازية، وحضور اللفظ الغريب والجزْل الفصيح بين ثناياها أيضاً.

ويقع الجزء الأول من «الإحاطة»، فضلا عن الخطبة/ المقدمة، في قسمين اثنين. فأما الأولُ فعنوانُه «في حلى المعاهد والأماكن والمنازل والمساكن»، وقد تطرق فيه المؤلِّف إلى اسم مملكة «غرناطة» (أو إغرناطة)، وتحدث عن تاريخها وجغرافيتها وبنائها وفتحها ونزول العرب الشاميين من جُند دمشق بها وعمّن تداول هذه المملكة العريقة منذ أن صارت دار إمْرَةٍ لبني زيري، سنة 403هـ، إلى أن تَخِذها بنو الأحمر قاعدة لمُلكهم. وأما القسمُ الثاني فعنوانه «في حلى الزائر والقاطن والمتحرك والساكن»، وقد ترجم فيه ابن الخطيب لعدد من الرجال والأعْلام ذكوراً وإناثاً، ومنهم: ابن جُزَيّ الكلبي، وابن قُعْـنُب، وابن الباذش، وابن مصادق، وابن فركون، وابن صفوان، وابن خاتمة الأنصاري.

ويتضح من قراءة «الإحاطة» أن صاحبها قد اتبع منهجاً مُتميّزاً في تنظيم محتواها وموادّها. ونقصد بالمنهج (Méthode)، في هذا الصدد، الطريقة التي يسلكها المؤلف في ترتيب عناصر مؤلفه وتصنيفها وتنظيمها. كما يُراد به، في سياق آخر، الطريق التي يسلكها الدارس لمعالجة الظاهرة الأدبية وتحليلها وتأويلها. وقد أشار ابن الخطيب، في مقدمة كتابه، إلى بعض معالم منهاجه في تصنيف «الإحاطة»، وهو منهج يمتاز، عموماً، بالوضوح والإحكام إلى حدٍّ بعيد. يقول:

«ذكرتُ الأسماء على الحروف المبوّبة، وفصلت أجناسهم بالتراجم المرتبة؛

(1) – ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 85..

(2) – المصدر نفسه.

فذكرتُ الملوك والأمراء، ثم الأعيان والكُبَراء، ثم الفضلاء، ثم القضاة، ثم المُقرئين والعلماء، ثم المحدّثين والفقهاء وسائر الطلبة النّجباء، ثم الكتاب والشعراء، ثم العمّال الأثراد، ثم الزّهّاد والصُّلحاء والصّوفية والفقراء»[1].

لقد ذكر ابن الخطيب في مقدمة إحاطته، وفي متنها، مصادره ومظانّه، وعلى رأسها تواريخ ابن القوطية وبني الرازي، و«المقتبس» لابن حيّان، و«قلائد العقيان» للفتح بن خاقان، و«الذخيرة» لابن بسّام الشنتريني، و«تاريخ مالقة» لابن عساكر، و«البيان المُغرب» لابن عِذاري المراكشي، و«روض القرطاس» لابن أبي زرع الفاسي. ورجع، فيما يتعلق بتاريخ الدولة المرابطية، بشكل كبير، إلى تاريخ ابن الصيرفي المسمّى «الأنوار الجلية في تاريخ الدولة المرابطية».

والحق أن كتاب «الإحاطة في أخبار غرناطة»، كما يسمى في مخطوطة دار الكتب بمصر، ومخطوطة جامع الزيتونة بتونس، أو «الإحاطة بتاريخ غرناطة» أو «الإحاطة في تاريخ غرناطة» أو «الإحاطة بما تيسّر من تاريخ غرناطة»، يعد أشهر كتب ابن الخطيب وأهمها، رغم أن المتوفر منه لدينا ناقص... كما يصعب على القارئ حصْره في بُوتَقة واحدة، بل إنه كتاب ضخم في التاريخ والأدب والتراجم وغيرها.

غرناطة فى كتابات ابن الخطيب

كانت غرناطة وقت فتح الأندلس مدينة صغيرة من أعمال ولاية «إلبيرة»[2] تقع على مقربة من مدينة إلبيرة قاعدة الولاية من الناحية الجنوبية، افتتحها المسلمون عقب انتصارهم على القوط بقيادة طارق بن زياد فاتح الأندلس،

---

(1) – ابن الخطيب: المصدر نفسه: 1/ 87.

(2) – **إلبيرة وبالإسبانية**Elvira مدينة رومانية قديمة كانت تُسمى أيام الرومان lliboris وكانت عاصمة للولاية التي تُسمى بهذا الاسم، وكانت أيام الفتح الإسلامي مدينة كبيرة عامرة. **أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبدالمنعم الحميرى**: الروض المعطار في خبر الأقطار، تعليق وتصحيح: ليفي بروفنسال، ط2، دار الجبل، بيروت 1988،ص29 – 30.

في موقعة شريش في رمضان 92هـ/ 711م. ولما اضطرمت الفتنة بالأندلس، ودبَّ الخلاف بين القبائل عقب موقعة بلاط الشهداء (113هـ/ 732م)، اشتد التنافس على الإمارة بين الشاميين من ناحية، والعرب والبربر من ناحية أخرى، رأى أمير الأندلس أبو الخطار حسام بن ضرار الكلبي أن يعمل على تهدئة الفتنة؛ بتمزيق عصبة الشاميين؛ ففرقهم في أنحاء الأندلس، وأنزل جند الشام بكورة إلبيرة، وجند حمص بأشبيلية، وجند فلسطين بشذونة والجزيرة، وجند الأردن بريَّة، وهكذا نزل الشاميون منذ البداية بولاية إلبيرة، وغدوا بمضي الزمن كثرة فيها. ولقد استمرت مدينة إلبيرة قاعدة لهذه الولاية ومركز قضائها في ظل الدولة الأموية، حتى أواخر القرن الرابع الهجرى حينما انهارت الخلافة الأموية وتعاقبت الفتن، وعاث البربر في النواحي، وخربت مدينة إلبيرة شيئًا فشيئًا؛ حتى غدت غرناطة قاعدة الولاية مكانها، وغلب اسم غرناطة على الولاية نفسها، ومن ذلك الحين يختفي اسم إلبيرة وغرناطة، وتُعتبران في معظم الأحيان - لا سيما في المراحل الأولى لتاريخ الأندلس - اسمين لمكان واحد، وقد جرى كثير من المؤرخين والجغرافيين على المزج بينهما[1].

لقد قامت مملكة غرناطة، التي شاء القدر أن تكون ملاذ الأمة الأندلسية، دهرًا طويلا آخر في ظروف متواضعة؛ ذلك أنه لما ضعف أمر الموحدين بالأندلس، وخرج عليهم محمد بن يوسف ابن هود الملقب بالمتوكل كما قدمنا، وأخذت قواعد الأندلس تخرج من قبضتهم تباعًا؛ ينتزع بعضها «ابن ود» وثوار النواحي، والبعض الآخر ينتزعه النصارى، كان من الزعماء الذين ظهروا أثناء الفتنة محمد بن يوسف النصري المعروف بابن الأحمر، سليل بني نصر، وهم في الأصل سادة حصن أرجونة من أعمال ولاية جيان (وهو محمد بن يوسف بن محمد بن أحمد بن خميس بن نصر بن قيس الخزرجي)[2].

(1) - **لسان الدين الخطيب**: المصدر السابق، ص100 - 104.

(2) - **المصد نفسه**، ج1، ص158. ج2، ص59.

ثانيًا: لمحة عن سقوط غرناطة 1492م في ضوء كتابات المؤرخين

كانت مملكة غرناطة عند قيامها في أواسط القرن السابع الهجري/ الثالث عشر الميلادى تشمل القسم الجنوبي من الأندلس القديمة، وتمتد فيما وراء نهر الوادي الكبير إلى الجنوب، حتى شاطئ البحر الأبيض المتوسط ومضيق جبل طارق، ويحدها من الشمال ولايات جيان وقرطبة وأشبيلية، ومن الشرق ولاية مرسية وشاطئ البحر المتوسط الممتد منها إلى الجنوب، ومن الغرب ولاية قادس وأرض الفرنتيرة، وكانت تشتمل عندئذ على ثلاث ولايات كبيرة، وهي ولاية غرناطة الواقعة في الوسط، والممتدة جنوبًا حتى البحر، وأهم مدنها العاصمة غرناطة، ووادي آش وبسطة وأشكر وحصن اللوز ولوشة والحامة وأرحبة والمنكب[1]، وشلوبانية وولاية ألمرية؛ وهي تمتد من ولاية مرسية حتى البحر، وأهم مدنها ثغر ألمرية وبيرة والمنصورة وبرشانة وبرجة ودلاية وأندرش، وولاية مالقة، وهي تقع على البحر غربي غرناطة، وأهم مدنها ثغر مالقة، وبلش مالقة وطرُّش وقمارش وأرشدونة وأنتفيرة ورندة ومربلة، ويلحق بها منطقة جبل طارق والجزيرة الخضراء وطريف[2].

(1) – **ابن الخطيب، المصدر السابق:** ص65.

(2) – **حسن مراد: تاريخ العرب في الأندلس، دار الفرجاني، القاهرة 1984، ص133.** ولقد كانت تخترق مملكة غرناطة من الوسط جبال سيرًا نفادا (جبل شلير) الشاهقة، وهضاب البشرات الوعرة وبسائطها الخضراء، كما تخترقها عدة أنهار منها شنيل فرع الوادي الكبير ونهر أندرش الصغير، وفي الشرق نهر المنصورة، وكانت خواصها الطبيعية تجمع بين المروج والوديان الخصبة، والجبال والهضاب الوعرة، تمدها بثروات زراعية ومعدنية حسنة، ينميها ويضاعفها الشعب الأندلسي الموهوب بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة. وهكذا كانت مملكة غرناطة الصغيرة تستمد من مواردها الطبيعية أسباب القوة والمنعة والرخاء. **محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ج4، نفسه: ص55.**

مقدمات سقوط غرناطة:

ظلت غرناطة ترحب باللاجئين القادمين من مختلف أنحاء إسبانيا ولا تتكلم غير العربية. ورغم وجود يهود فيها، فقد خلت من المستعربين. إن هذا التشبث بالإسلام والدفاع عنه يبدو معقولاً بعد الاهتمام بالجهاد الذي أظهره المرابطون والموحدون، وبعد حركة الاسترداد المتزايد خلال مرحلة النجاح 1212 – 1248م.أما أزهى مراحل تاريخ دولة بني نصر فكانت بين عامي 1344و1396م، وهي الحقبة التي بُنيت فيها أروع أقسام الحمراء، وكانت الدولة على العموم مزدهرة بفضل زراعتها الكثيفة وحرفها المتباينة وتجارتها. غير أنها كانت تعاني صعوبات داخلية كثيرة؛ فالصراع على وراثة الحكم كان يتكرر بين أبناء الأسرة الحاكمة، خاصة ابتداء من العقد الأخير من القرن الرابع عشر، وكان لكل منهم مؤيدوه من أصحاب النفوذ. ثم إن موقف الدولة كان يشجع على تزايد نفوذ الفقهاء، وهؤلاء كانوا مع المرتزقة الأفارقة وبعض العناصر من أهل المدن يميلون إلى الحرب، وكان يقف في الجانب المعارض النخبة الحاكمة والتجار والفلاحون الذين كان السلم يخدم مصالحهم بصورة أفضل من الحرب وعدم الاستقرار.

انتهى حكم النصريين بسبب ضعفهم الداخلي وتعاظم قوة الإسبان التي زادت بعد اتحاد مملكتي أرغون وقشتالة إثر زواج فرناندو وإيزابيلا. ومع ذلك ربما كان بالإمكان تأجيل الانهيار لو أن الحكام المسلمين حافظوا على رباطة جأشهم ولم يدعوا نفاذ الصبر سبيلًا إلى نفوسهم. ففي عام 1481م، وقبل انتهاء مرحلة الهدنة، انتزع فريق من المسلمين حصن (الصخرة) من أيدي الإسبان، فحمل هذا العمل الاستفزازي فرناندو وإيزابيلا على توطيد العزم على وضع نهاية لوجود غرناطة، ومن هنا بدأت النهاية الفعلية لمملكة غرناطة، آخر الممالك الإسلامية على أرض إسبانيا، بسبب ضعف حكامها وعدم المساندة الحقيقية من

الشرق الإسلامي[1].

تفاعلت الأحداث وتشابكت حتى واتت الفرصة الإسبان لدخول غرناطة. لقد كانوا يتصيدون الفرصة ويبحثون عن سبب يمكنهم من دخولها. وقد مكنهم من ذلك الأمير الغرناطي مولاي أبي الحسن ومن بعده ابنه أبو عبد الله الصغير، حيث تولى الأول عرش بني الأحمر منذ سنة 1465م،لكنه أراد أن يحرر شعبه من الجزية أو الضريبة التي يؤدونها لعرش قشتالة منذ عهد الملك فرناندو الثالث مستغلًا الوضع الذي توجد عليه المملكة. وأمام رفضه ومماطلته، بعث له الملكان الكاثوليكيان رسولًا يطالبه بالمال المفروض على إمارته، فقال مخاطبًا مبعوث الملكين: «عد وقل لملكيك، لقد مات الغرناطيون الذين كانوا يعطونكم المال ويؤدون للمسيحيين عطاياهم، وأخبرهما بأنه لا يوجد في غرناطة حاليًا إلا السيف والحديد والرماح التي نصوبها لنحور أعدائنا». استفز ذلك الرد فرناندو وإيزابيلاوقررا أن يخوضا من جديد غمار ملحمة الاسترداد[2].ويرى بعض الباحثين الإسبان أن مولاي أبو الحسن بهذه الخطوة تعجل في سقوط غرناطة، وتجاهل أسباب عديدة اقتصادية وسياسية وغيرها. ونعتقد أن مولاي أبو الحسن اتخذ موقفه هذا انطلاقاً من عقيدته التي تحسه على الجهاد والدفاع عن مملكته ودينه، وهو ما لا يضعه الباحث الإسباني في الاعتبار، رغم أهميته بالنسبة لحاكم مسلم متدين كمولاي أبي الحسن.

هنا بدأ فرناندو الاستعداد والاتحاد من أجل إسقاط آخر ممالك المسلمين في إسبانيا، فشن هجمات عديدة على المملكة وحصونها. وهكذا هاجم الزهراء، ودخل الحمراء سنة 1481م، الأمر الذي زرع الهلع في وسط المسلمين، وتداولت الأوساط الشعبية أغاني في وصف هلعهم. وبينما يستعد أبو الحسن لاسترجاع

(1) – **حسن مراد: المرجع السابق، ص144، 145.**

(2) – **دون باسكوال بورونات إلى براتشينا:** الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ترجمة: كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة، ج1، المغرب 2012، ص110.

الحمراء، كان الملوك الكاثوليكيون يجهزون لعملية استرداد جديدة. وفي 11 يوليو 1481م حدث اشتباك بين المعسكرين، توفي خلاله (دون رودريغو خيرون) ابن دييغوا القشتالي، قائد كثالا والذي كان كذلك القائد الأعلى لكلترافا، وفرسان آخرون. وهنا هب الملك دون إرناندو لإنقاذ المحاصرين وتوجه نحو غرناطة، حيث اجتث الزرع والغرس، وحاصر كل الحدود، ثم عاد منتشيًا إلى قرطبة[1].

كان هدف الإسبان المرابطين في حدود غرناطة الاستيلاء على لوشة، فقدموا بعض رجالهم، لكن الصدام كان أقل حدة مما وقع في الجهة الشرقية؛ حيث فاجأهم جنود غرناطة بين جبال كوتار، وهو المكان الذي لازال يعرف باسم «عقبة القتلى»، حيث هلك خلال تلك المواجهات (دون دييغو)، ودون لوبي، ودون بلتران، إخوة مركيز قادس؛ ودون لورينثو، ودون مانويل، ابني عمه، وكذلك ماتعدد كبير من أفراد عائلته وغيرهم. ولقد نشبت هذه المعركة في صباح يوم الجمعة 21مارس 1483م[2].

ولقد عرفت الفترة نفسها خلافات حادة بين أبي الحسن وابنه من زوجته عائشة (أبو عبد الله الصغير) الذي تمرد ضد أبيه؛ فطرده أبوه من غرناطة. وفي ذلك الوقت جهز أبو الحسن جيشًا من ثمانية آلاف مقاتل غرناطي لأجل اجتياز حدود إستجة قبل أن يفيق الإسبان من صدمتهم، ولكن المحاولة فشلت، ودارت الدائرة على بني نصر. وهنا استسلمت مملكة غرناطة للإسبان، وتساقطت المدن والقرى الواحدة تلو الأخرى، مثل كوين كرطامة روندة وماربيا ومكلين وغيرها. وقد سهل لهم تلك المسألة أبو عبد الله الكبير، الذي خلف أبا الحسن في حكم غرناطة، وسادت الخلافات بين ملوك غرناطة وخاصة أبي عبد الله وعمه، إلى أن وجد نفسه مضطرًّا للدفاع عن نفسه ضد الجيش الغالب، جيش الملوك

(1) – **مارمول كارباخال**: وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة: وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة2012، ج1، ص54.

(2) – **دون باسكوال بورنات**: المورسكيون الإسبان، المرجع السابق، ص111.

الكاثوليكيين[1] وهكذا، وفي عام 1486م، استولى دون فرناندو على لوشة، بينما كانت الأطراف المسلمة تقتتل فيما بينها، ثم سقطت في أيديهم بيليث، ولاحقًا مالقة وبييثا، واستمرت المواجهة في الطرفين حتى ربيع 1491م، حينما قرر الملوك الكاثوليك الاحتفال بعيد الفصح في أشبيلية ليتجهوا بعد ذلك نحو غرناطة[2].

كانت تلك الحرب حدًّا فاصلًا في العلاقة بين المسيحيين والمسلمين الذين انتهى حكمهم بعد ثمانية قرون من السيطرة، وخلال محاصرة الجيوش المسيحية للمسلمين تدخل اليهود لنجدتهم بقيادة أبراهام وإسحاق أباربانيل. لقد كان لحركته وقعاً مهماً على الجنود الإسبان والملوك الكاثوليك.وبدورها قامت الملكة إيزابيلا بدعم الجيش خلال حصاره لغرناطة، وأغدقت عليه العطايا والمؤن لدرجة إفراغ خزينة مملكتها. وبعد حصار استمر لأكثر من ثمانية أشهر، استطاع الملوك الكاثوليك فرض قوانينهم على المدينة المحاصَرة التي تفاوضوا بشأنها مع أبي القاسم. وفي 2 يناير 1492م استطاعوا الاستيلاء عليها، وأقسموا على اقتلاع معالم غرناطة الإسلامية كما تقتلع حبات الرمان واحدة تلو الأخرى[3].

وفي النصف الأخير من القرن التاسع الهجري/ الخامس عشر الميلادي بدأت بوادر الضعف تظهر على مملكة غرناطة من انقسامات داخلية وحروب على العرش، وظهر ذلك جليًّا في ضعف الحركة الفكرية في مملكة غرناطة خصوصًا بعدما بدا في الأفق نذير سقوطها، فهجرها العديد من أبنائها المتميزين، وغادروها إلى بلاد المغرب ومصر والشام، ولم يعودوا إليها. في الوقت نفسه حدث النزاع على العرش، وافتقدت الظهير المغربي بضعف دولة بني مرين ثم ذهابها في سنة869هـ/ 1464م، ولم يكن خلفاؤها من بني وطاس من القوة بحيث

(1) – **واشنطن ايرفنغ**: سقوط غرناطة، ترجمة: هلاني يحيى نصري، ط1، مؤسسة الانتشار العربي – لندن 2000م، ص206.

(2) – **مارمال كارباخال**: المصدر السابق، ص80.

(3) – **دون باسكول بورنات**: المرجع السابق، ص113.

يستطيعون عون مملكة غرناطة.

على أن الأهم من هذا كله ما جرى من تطورات في إسبانيا. ففي سنة 879هـ/ 1474م مات إنريكي الرابع ملك قشتالة، وخلفته أخته إيزابيلا Isabel 1504 – 1474)م)، وكانت متزوجة من الأمير فرناندو الأرجوني. وفي سنة 1479م ارتقى فرناندو عرش أراجونة، ثم اتحدت المملكتان الإسبانيتان، ليبدأ عصر جديد في تاريخ إسبانيا.إبان ذلك كانت الحرب الأهلية قد دبت في مملكة غرناطة بين سلطانها أبي الحسن علي الملقب بالغالب بالله (867هـ/ 1462م – 890هـ/ 1485م) وبين أخيه أبي عبد الله الملقب بالزَغَل (أي الباسل) ثم بين هذا الأخير وبين أخيه أبي عبد الله محمد، وانقسمت المملكة فصارت غرناطة وأعمالها لأبي عبد الله، وصارت وادي أش Guadix وأعمالها للزغل[1].

أستفاد القشتاليون من هذه الفرصة، فاستولوا على لوشة، ثم زحفوا إلى مالقة، ولم يستطع الزغل نجدتها، فسقطت في أيدي الإسبان سنة 892هـ/ 1487م، وأتبعوها بالمُنَكَّب وبَسطَة Baza، ولم يتبقَّ سوى وادي أش، فلم يجد الزغل بدًّا من الاستسلام والرحيل إلى المغرب، وبرحيله دخل النصارى وادي أش، ودخلوا بعدها ألمرية.وفي عهدها الأخير ظهر في مملكة غرناطة تيار قوي، ينحو لطلب العون من السلطنة المملوكية بالقاهرة، ومن السلطنة العثمانية باستانبول، وتكرر هذا الطلب عدة مرات ولم تجاوز الاستجابة حد القول إلى الفعل[2].

وبعد أن تخلص الملكان الكاثوليكيان من خصمهما الزغل، لم يتبقَّ لهما سوى مدينة غرناطة وأحوازها. وكان يدافع عنها عشرون ألفًا من المقاتلة، يواجهون ما بين خمسين ألفًا إلى ثمانين من أعدائهم مزودين بالمدافع وآلات الحصار. وبدوره

(1) – **عُبادة كحُيلة**: القطوف الدواني في التاريخ الإسباني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2011، ص125،126.

(2) – **عبادة كحيلة**: المرجع نفسه، ص126.**واشنطن ايرفنغ**: سقوط غرناطة، المرجع السابق، ص291.

شرع فرناندو في تخريب حقول البشرات وفحص غرناطة لمنع القوات عن المدينة، وهي القوات التي دعتها إيزابيلا شَنْتَفى santa fe أي «الإيمان المقدس» ومنعت سفن النصارى الإمدادات الواردة من المغرب[1].

نهاية مملكة غرناطة.

بدأ حصار غرناطة في 12 جمادي الثانية 896هـ/ 23 أبريل 1491م، وطال عدة شهور، ولم يعد لدى المسلمين جلد على مجاهدته، وعرض النصارى معاهدة تضم ستًّا وخمسين مادة، بقي منها نصها العربي ونصها القشتالي. كما كشف خوسيه غوميث سوليني عن عثوره على وثيقة إنجليزية تؤكد أن سقوط غرناطة الإسلامية والحصار الذي عانت منه المدينة «كان أكثر شراسة مما هو معروف حتى الآن»، كما توضح مدى الترف والأبهة التي تميزت بها القصور الغرناطية والبلاط الملكي، وأثر الحصار الذي فرضته القوات الأسبانية على أهالي مدينة غرناطة، حتى اضطرهم إلى أكل الكلاب والقطط. وهو يخلص إلى أن العرب دفعوا ثمناً باهظاً للغاية بسقوط آخر جوهرة لهم في أوربا. وأضاف أن عدد القوات التي حاصرت غرناطة كان أكبر بكثير من عدد القوات الغرناطية، مخالفاً بذلك الرواية المتواترة من أن جيش غرناطة كان كبيراً. وتضيف الوثيقة أن «أهالي غرناطة مروا بمعاناة قاسية خلال أعوام الحصار، وقامت القوات الأسبانية بتحطيم وحرق الحقول المجاورة للمدينة، ما تسبب في مجاعة رهيبة بين سكان غرناطة، ولهذا السبب أكلوا الخيول والكلاب والقطط». وتتعرض الوثيقة أيضا للكنوز الهائلة التي حصل عليها الأسبان «ففي مسجد غرناطة كان هناك 300 مصباح من الذهب والفضة. وعثر ملك إسبانيا على كميات هائلة من الذهب وبها بنى الكنيسة مكان المسجد». ويذكر مؤلف إنجليزي إن «الملك فرناندو لم يسمح للمسلمين الا بما يستطيع كل واحد منهم ان يحمله على ظهره من حاجات، عدا الذهب والفضة والسلاح»،

(1) – **واشنطن ايرفنغ**: المرجع السابق، ص377.

ولهذا وجد الجيش الأسباني عند دخوله المدينة الآلاف من الأسلحة من سيوف ودروع ومناجيق. ويشير «غوميث سولينيو» إلى أن الوثيقة تذكر أن الاستيلاء على غرناطة تم عام 1491، والصحيح هو 1492، والسبب هو أن السنة الجديدة لدى الإنجليز كان تبدأ في 25 مارس وليس الأول من يناير، واختتم «سوليني»حديثه عن تبعات سقوط غرناطة بالإشارة إلى أن انهيار الحكم العربي في المدينة كان له صدى واسع للغاية، ليس فقط في إسبانيا، وإنما في كل أوربا، فأقيمت الصلوات في العديد من المناطق[1].

في البداية كانت الروح العامة للمعاهدة طيبة، حيث قررت بقاء المسلمين على حالهم التي كانوا عليها، وسمح لهم بحرياتهم الدينية كاملةً، وألا يؤدوا من الأموال إلا ما كانوا يؤدونه إلى ملوكهم، وأن يسيروا وفق شرائعهم، وسمح لمن أراد بالعبور إلى المغرب بأولاده وأمواله، وذُيلت المعاهدة بأن الملكين الكاثوليكيين يؤكدان هذا العهد ويضمنانه بدينهما وشرفهما الملكي[2].

وعند عرض الاتفاق على أهل غرناطة استقبلوه بوجوم، لكن المعارضة التي تزعمها موسى ابن أبي الغسَّان – وقد استشهد فيما بعد – كانت معارضة محدودةً. وفي 2 ربيع الأول 897هـ/ 2 يناير 1492م دخل الملكان الكاثوليكيان مدينة غرناطة، ونُصب صليب فضي كبير على برج الحراسة Torre de la vela وهو أعلى

(1) – **خوسيه غوميث سولينيو**: وثيقة انجليزية تكشف كيفية سقوط غرناطة، المؤتمر الثامن عشر للغة والأدب والمجتمع الأسبانى – مالقة 2006، تم نشرها فى: جريدة الشرق الأوسط العربية الدولية، الأحد 13 شوال1426هـ – 5 نوفمبر 2006، العدد 10204. وتشير الجريدة لمؤلف وثيقة «سقوط غرناطة» على أنه انجليزي متخصص بقوانين الكنيسة ويدعى **ويليام ويدمونهام**، وكان احد المدعوين لحضور الصلاة والاحتفال في كنيسة سان بابلو بمناسبة سقوط غرناطة الاسلامية.

(2) – **محمد عبد الله عنان**: نهاية الأندلس، مرجع سابق، ص245 – 250.**محمد عبد الله جمال الدين**: المسلمون المنصرون، دار الصحوة، القاهرة، 1991، ص22 – 32.**مرثيدس غارثيا**: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2003، ص31 – 35. تكونت معاهدة تسليم غرناطة من 52 بنداً، وسيتم ذكر بنودها في الملاحق.

الأبراج بقصر الحمراء، ورُفعت إلى جواره راية القديس يعقوب وراية قشتالة، وانطلق الرهبان يرددون «الحمد لله»[1] Te Deum Laudamus.

ثالثًا: تنصير مسلمي الأندلس ومعاناتهم في ضوء كتابات ورحلة مؤرخهم ابو القاسم الحجرى «افوقاي».

بعد سقوط غرناطة أخر معاقل المسلمين عام 1492م، ونقض معاهدة الصلح الذي أبرمت بين الطرفين، وبدأت بوادر التخلي عن هذه البنود في الأجراءات التي اتخذت من قبل محاكم التفتيش بخصوص المسلمين، وتمثلت هذه الأجراءات في التخلي عن اللغة والمعتقد والعادات والملبس، فبدأت قصة معاناة المسلمين من محاكم التفتيش إلى مراحل الإجبار على التنصير وفي النهاية الطرد النهائي، وهذا ما سنراه في هذا المبحث من وجهة مؤرخ وفقيه وهو أبو القاسم الحجري.

ابو القاسم الحجرى ما بين المولد والنشأة:

صاحب هذه الرحلة هو أحمد بن قاسم بن الفقيه قاسم بن الشيخ الحجري الأندلسي، يكنى بأبي العباس، كما يلقب كذلك بشهاب الدين أفوقاي بخارنو، أما اسمهُ المسيحي الذي حملهُ قبل الطرد فهو دياغو بخارانو. المولود سنة 977هـ، الموافق للنصف الثاني من سنة 1569 ميلادي. وتشير المراجع إلى أنه انتهى من تأليف كتابه في العشرين من رجب سنة 1051هـ[2].

ولد الحجري في تييرا دي باروس(Tierra de Barros)، التابعة لمقاطعة أكستريمادورا القريبة من غرناطة، وقضى طفولتهُ في قرية تسمى «الحجر الأحمر». ولما شب اشتغل في الترجمة من العربية وإليها. ورغم كل الامتيازات التي حظي بها في

---

(1) – **عبادة كحيلة**: مرجع سابق، ص126.

(2) – أحمد بن قاسم الحجرى الأندلسى: ناصر الدين على القوم الكافرين النسخة المصرية، تحقيق: حسام الدين شاشية، ط1، دار السويدى للنشر والتوزيع، ابو ظبى 2015.، ص10.

غرناطة، فإنه اختار الهروب إلى المغرب سنة 1598، تقريبا، في رحلة مُعقدة وخطيرة، في ظل القوانين الأسبانية التي كانت تمنع الموريسكيين من السفر، وكان عمرهُ تسعا وعشرين سنة، فحل في مراكش، ودخل في خدمة مولاي زيدان مترجما[1].

هجر المؤلف الأندلس ناجيا بعقيدته، كما عبر في نص رحلته، في ظل الاضطهاد التاريخي الذي شهدته الأمة الأندلسية، أما خروجه من المغرب في رحلته التي دونها فقد ترافق مع تدهور وضعية الموريسكيين في بعض المناطق المغربية، وتأزم علاقتهم بالجماعات الأخرى، كما هو الشأن بالنسبة إلى علاقة موريسكيي قصبة سلا بمحمد العياشي وجماعته، الذي اتهمهم بالخيانة والتحالف مع المسيحيين. وبعد خروجه من سلا استقر الحجري وعائلته لمدة بمدينة تونس، وهذا يؤكد أن تركه المغرب سنة 1635 لم يكن فقط بنية الحج[2].

توجه الرحالة بدايةً إلى مكة ومنها إلى المدينة مارًا في طريق عودته بمصر التي يبدو أنهُ استقر بها لبعض الوقت، مشتغلا كأمين بدكان محمد بن أبي العاصي الأندلسي، ومُنتقلاً بعد ذلك إلى تونس تقريبًا منذ أواخر سنة 1637، حيث توفي سنة 1641م[3].

ابو القاسم الحجرى معاناة موريسكى بين المغرب ورحلته إلى أوروبا:

اكتسب شهاب الدين معرفة ممتازة في اللغات مكنته من كسب موقع أفضل من عامة المجتمع الموريسكي الذي كان يتعرض لويلات محاكم التفتيش وأهوال الجرائم الإسبانية، إذ كانت السلطات الإسبانية تحتاج لمن يتقن اللغات اللاتينية والإسبانية والعربية لدعم عملية الترجمة ونقل المعارف. وفي السنوات الأخيرة من القرن السادس عشر، ضاقت الأندلس بما رحبت على شهاب الدين واشتد

(1) – الحجري: المصدر السابق، ص11.

(2) – الشهاب الحجري: أهم وثيقة تاريخية للأندلس، جريدة الاتحاد، تاريخ 20 أكتوبر 2012.

(3) – المرجع نفسه.

الخناق على روحه من المكوث في أوساط يسودها عصاب التنصير والموت، فقرر النجاة بنفسه ودينه والهجرة إلى عدوة المغرب[1].

انطلق أفوقاي من ميناء سانتا ماريا في قادش جنوب الأندلس مدعياً أنه عجوز نصراني، ونزل في ميناء مازاغان في المغرب الذي كان مستعمرة برتغالية أنذاك. وهناك بدأ مع رفيق له رحلة هروب تحفها الأهوال والمخاطر ويحفزها الشوق والأمل لبلوغ ديار الإسلام. تمكن شهاب الدين أخيراً من الوصول إلى أرض المسلمين وسجل في تدوينات رحلته كل مجريات الأحداث، واصفاً سعادته بلقاء أخوة الدين والنجاة من يد المجرمين. لدرجة أنه سمى كتاب رحلته بكتاب (رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب)[2].

وصل أفوقاي بلاد المغرب حين كان سلطانها أحمد المنصور الذهبي، وكان قد تولي منصبه في عام 1578 للميلاد وسط معركة وادي المخازن، والتي لقي فيها البرتغاليون على يد المسلمين هزيمة ساحقة، فلقب بالمنصور تيمناً بالنصر التاريخي، وكان عصره من أعظم عصور المغرب، وكان قد بلغت مدة حكمه حينما وفد عليه الشهاب الحجري أفوقاي أكثر من عشرين عاماً. فلما قدّم إليه قائده محمد بن إبراهيم الشعياني (وكان أثيراً لديه وموضع ثقته وتقديره لما أبداه في حكم منطقة أزمور التي نزل بها أفوقاي واستقر بها)، لما قدّم الشعياني أفوقاي للسلطان، وقف على قصته وما يتمتع به من براعة أدبية ولغوية، وأولاه عطفه وأمر بتعيينه مترجماً للبلاط، وأبدى الشهاب براعة في أعمال الترجمة من العربية إلى الإسبانية ومن الإسبانية إلى العربية، وأسبغ عليه لقب «ترجمان سلاطين مراكش» [3].

---

(1) – أحمد بن قاسم الحجرى: رحلة أفوقاى الأندلسى: مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب 1611 – 1613م، تحقيق: محمد رزوق، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005، ص25.

(2) – المصدر نفسه، ص22.

(3) – أحمد بن قاسم الحجرى: ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت 1999م، ص 13.

وكان يستعمله السلطان سفيراً عنه في بعض البلاد الأوروبية. ولما توفي السلطان أحمد المنصور في سنة 1603 للميلاد استمر الشهاب في عمله بالبلاط المغربي خلال الحرب الأهلية بين السعديين التي تلت وفاة المنصور ثم مدة أخرى في ظل ولده السلطان مولاي زيدان[1].

في مراكش تزوج الحجري، وكون أسرة. ولما استقر مولاي زيدان في مدينة مراكش، عين سكرتيراً ومترجماً للسلطان عام 1608م، وقام بدور مهم في الحياة الثقافية بالمدينة. ثم حدث طرد الموريسكيين بعد فترة زمنية قصيرة، وتعرض فوج منهم وهو في طريقه إلى المنفى على متن أربع سفن لواقعة سرقة فقد فيها أعضاء هذا الفوج أمتعتهم من قبل طاقم البحارة. ولما وصل هذا الفوج من الموريسكيين إلى المغرب، تقدم أعضاؤه بشكوى إلى مولاي زيدان، فقرر قبل أن يطالب السلطات الفرنسية، أن يبعث بأحمد بن قاسم الحجري إلى أوروبا، وتحديدًا إلى فرنسا وهولندا [2].

في هولندا أجرى الحجري اتصالات بأوائل المستشرقين في جامعة ليدن، وبالأمير موريسيو ناسو [الإنجليزية]، وكذلك أيضاً مع الجالية اليهودية الإسبانية والبرتغالية، حيث جمعت بينهم شراكة في اللغة، وأجرى معهم مناقشات وجدالاً دينياً. وكتب الحجري عن رحلته إلى أوروبا كتاباً على قدر كبير من الأهمية، تناول فيها تلك التجارب تفصيلاً. وبعد عودته إلى مراكش، تسلم مهامه سكرتيراً ومترجماً، واستمر في وضعه طوال فترات حكم السلاطين التاليين. وترجم أيضاً عدداً من المؤلفات العربية إلى اللغة الإسبانية، مؤلفات دينية، لكي يستعين بها الموريسكيون في المنفى الذين مازالوا يجهلون اللغة العربية حتى ذلك الحين. وترجم إلى العربية أيضاً، هذه المرة، في تونس، حيث أقام حتى وفاته، دليلاً عن المدفعية[3].

(1) – أحمد بن قاسم الحجرى، المصدر السابق ناصر الدين، ص 13.

(2) – مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات: موريسكيون في البلاط السعدي.

(3) – أحمد بن قاسم الحجرى: رحلة أفوقاى، المصدر السابق، ص52.

تعرف أفوقاي على المستشرق الهولندي توماس إربنيوس وعلمه القواعد العربية، كما التقى بالمستشرق الفرنسي إتيان هوبير دي اورليان، الذي كان طبيب السلطان المغربي أحمد المنصور في مراكش بين 1598 – 1601م. عرض اتيان هوبرت خدماته على الحجري بأن يكون ممثلا له أمام الأفراد والسلطات[1].

تعد القراءة والتمعن في النكبة الأندلسية وتهجير الموريسكيين بوابة لفهم نكبات وتغريبات مماثلة عاشتها شعوب مسلمة. تعددت النسخ المكررة من مأساة الأندلسيين وطردهم من بلادهم لنرى مثيلاتها في القوقاز والهند وبورما وفلسطين وغيرها من مكامن الوجع في الجسد الإسلامي وتاريخه الطويل.

ناصر الدين على القوم الكافرين. عنوان مثير لوثيقة فريدة عن حياة المورسكيين لم يصلنا أقدم منها ولا في أهميتها. إنه يوميات مورسكي ممن جرى تنصيرهم من الأندلسيين خلال نشاط ديوان محاكم التفتيش الكاثوليكي وأعماله الرهيبة بحق الأندلسيين الذين كان رجال الديوان يشتبهون بعدم الإخلاص المسيحي للأندلسيين المنصرين بالقوة.

أهم الاستنتاجات من رحلة أفوقاى:

أحمد بن قاسم الحجري الملقب بأفوقاي، الذي فر من الأندلس بعدما اشتدت الضغوط عليه وعلى أهله في أواخر عهد المنصور الذهبي، واشتغل في لديه في الترجمة سنة 1599 ميلادية. وواصل عمله في الترجمة لدى السلطان زيدان وولديه عبد الملك والوليد.

أوفده السلطان زيدان إلى فرنسا وهولندا ما بين 1611 و1613، وكانت هذه المهمة الدبلوماسية سبباً في تاليف كتاب سيكون اليوم أثمن وثيقة موريسكية على الإطلاق تشرح أحوال هذه الفئة المضطهدة من الأندلسيين. والكتاب الذي

(1) – أحمد بن قاسم الحجرى: ناصر الدين النسخة المصرية، المصدر السابق، ص15.

ألفه هذا الكاتب عثر عليه منسوخاً بخط يده، وهناك نسخة منه في القاهرة، فقد ألفه بطلب من عالم مصري هو الشيخ علي الأجهوري، على اثر مروره بمصر خلال رحلته إلى الحج.

تعكس لغة الكتاب الأحوال العصيبة التي كان المورسكيون يعيشون في ظلها. فقد جرى تنصيرهم وتحريم اللغة العربية، وتجريمهم في حال مارسوا عاداتهم الاسلامية، ما جعل لهم لغة خاصة هي الالخميادية، التي تكتب باللاتينية.

أفوقاي كتب بالعربية لكونه الف في مناخ إسلامي بعد خروجه من الأندلس، إنما يمكن الاستدلال على مورسكيته من خلال إخضاع بعض الألفاظ العربية للنظام الصوتي الإسباني، وانتشار الأخطاء اللغوية والتراكيب الأعجمية للغة العربية، واللفظ المورسكي كقوله هملة محل قوله حملة.

الأكثر أهمية في كتاب ناصر الدين على القوم الكافرين أنه يكشف عن نموذج موريسكي كامل إن على المستوى النحوي للغة العربية لدى المورسكيين، أو على مستوى الذهنية التي كانوا يفكرون فيها أو على مستوى الأخبار التي أوردها عن قومه، أو على مستوى الانعكاس الدولي لقضية المورسكيين، أو على مستوى المحاولات التي بذلها الأندلسيون فراراً من الأندلس نحو ديار الإسلام للنجاة بإسلامهم، أو للعودة إلى بلادهم، واستعادة بيوتهم واملاكهم وحقوقهم.

ويكشف الكتاب عن مواقف العلماء المسلمين وكذلك الحكام في المغرب وتونس ومصر خصوصاً من هذه القضية المعقدة والصعبة التي كان عنوانها المورسكيين. فقد بدت قضية ميؤوساً منها.. إنها تذكر في بعض الحالات بمواقف علماء وحكام عرب من قضية فلسطين. وهنا يمكن ان نستخلص عبرة اندلسية بينما نحن نفكر اليوم بقضية فلسطين رغم اختلاف الجغرافيا واختلاف الزمان.

أفوقاي أول شرقي يصل إلى لاهاي متظلماً ومستنجداً بالبروتستانت ليحصل منهم على سلاح ودعم لاستعادة بلاده من الكاثوليكيين الإسبان. لكن طلبه لم يتحقق.

يحفل كتاب أفوقاي بوصف بديع لباريس وآخر للاهاي، وبمناظرات مهمة مع علماء مسيحيين ويهود.

واجه الموريسكيون التنصر ومنع استخدام اللغة وكثير من الإجراءات بالتمرد والعصيان أحيانا، كما حصل فيما عرف بثورة الموريسكيين أو ثورة غرناطة الكبرى، أو بالتقية كما يقول الشهاب الحجري، صاحب رحلة أفوقاي، في هذا الصدد «وكانوا يعبدون دينين: دين النصارى جهرا ودين المسلمين في الخفاء من الناس، وإذا ظهر على شيء من عمل المسلمين يحكمون فيه الكفار الحكم القوي، يحرقون بعضهم كما شاهدت من عشرين سنة قبل خروجي منها».

بعد هذا الخروج الاضطراري جاءت مبادرة لرد الاعتبار، ليس فقط تعويضا عن أغراض ضاعت للموريسكيين في طريقهم إلى «دار الإسلام» بعد أن لفظتهم «دار أوطانهم الإسباني»، بل أرادها أبو القاسم الحجري محاولة لتجميع الطاقات من إسطنبول إلى أمستردام ضد عدو مشترك – إسبانيا – يقتضي منطق الثأر أن ينسج تحالف ضده. في هذه الرحلة التي تعكس تجربة حياة ومراس ومثاقفة، برزت شخصية السفير المناظر المفحم للخصوم، وتداخلت مرارة المعاناة الشخصية بعمق مأساة الجماعة، الموريسيكية، فاحتج وحاجج، رافع وناظر، طلب وتوسل.

رابعًا: الرؤية التاريخية للمؤرخين لطرد الأخير للموريسكيين 1604 - 1609م[1].

كان الطرد واحدًا من الحلول المختلفة والمتكاملة المطروحة منذ عقود للمشكلة التي يمثلها – بالنسبة للعقلية السياسية الدينية في ذلك العصر – وجود أقلية تدين بدين يختلف عن دين غالبية المجتمع الإسباني، لكن لا التوترات كانت مهمة ولا أنصار ذلك الحل كانوا كثيرين، لذلك يجب أن نعرض بإيجاز عناصر الأزمة والشخصيات أو المجموعات التي كانت تدافع عن ذلك الحل.

(1) عبداللطيف مشرف: الرؤية التاريخية للمؤرخين لطرد الأخير للموريسكيين 1604 – 1609م، بحث منشور في مجلة الأندلس الدولية، كلية دار العلوم جامعة القاهرة، القاهرة 2017.

مقدمات وأسباب الطرد:

كان أساس القضية فكرياً، ومواجهة بين مسلمين ومسيحيين، وكتب لوى كارديالك: «تلك الواجهة لم تكن حربية في الأراضي الإسبانية، وإن ترتب عليها مظاهر عسكرية. لم يكن هناك خطر على العقيدة المسيحية، لأن الموريسكيين لم يكونوا يجادلون المسيحيين ولم يكونوا يقومون بنشاط دعوى لتحويل المسيحيين إلى مسلمين»[1]. أما ميكيل دي إيبالثا فذكر أن الأمر عبارة عن رفض غالبية المسلمين الموريسكيين لأن يكونوا مسيحيين، كانت مشكلة دينية سببها عدم فعالية الجهود الكنسية لضم أولئك «الكفار» للمجتمع المسيحي الإسباني عن طريق تغيير دينهم. إن كل الوسائل التي وضعت لخدمة ذلك الهدف لم تكن ذات جدوى، أو كانت نتائجها ضئيلة في مجال التنصير الحقيقي لغالبية الموريكسيين: الوعظ والتعليم والتعميدالإجباري والمراقبة والمحاكمات اللينة، ثم الشدة أمام محاكم التفتيش، مع تشتيت الموريسكيين بين المجتمع المسيطر.كان في ذلك الاختلاف الديني واضحا»[2].

كانت الآراء متعددة في أوساط الكنيسة. ويرى البعض أن رئيس الكنيسة الكاثوليكية، وهو بابا روما، لم يكن له دور عدوانى في طرد الموريسكيين، كما أثبت بيريث بوستادانتى استنادًا إلى وثائق الفاتيكان. استشير البابا باولو الخامس بورغيس(1605 – 1621م) في طرد الموريسكيين. ولما لم يكن مؤيداً لذلك الإجراء، لم يتم إعلامه بقرار الطرد إلا بعد اتخاذه بالفعل. أما ميكيل دي إيبالثا فيرى أن البابا كان يتحرك من منطلق حب مخلص تجاه الموريسكيين، ويرغب في تجنبهم العقاب في الآخرة إن هم رحلوا إلى بلاد إسلامية، أكثر من رغبته في تجنب الصعوبات النى يمثلها طردهم من بلدهم.وليس من المستبعد كذلك

(1) – **لوي كارديالك**: الموريسكيون الأندلسيون،المرجع السابق، ص65.

(2) – المرجع السابق، ص150.

أن تكون السلطات البابوية في روما – التي كانت على علم بالمشاكل السياسية والاجتماعية والاقتصادية الإسبانية – قد وضعت في اعتبارها الآثارالاقتصادية السيئة التي يمكن أن يحدثها طرد الموريسكيين، من إسبانيا خاصة، على تمويل محاكم التفتيش وعلى دخل الكنيسة. وفي النهاية فإن البابا والفاتيكان لم يكونا من أنصار طرد الموريسكيين ولا عارضا ذلك الإجراء، ولم يقبلوا في دولتهم الموريسكيين المطرودين كما فعل أمراء إيطاليون لأسباب اقتصادية[1]. إن الآراء السابقة تعكس انحيازاً للبابا لإضفاء الروح الإنسانية على تصرفاته، فكيف لا يعلم بابا الكاثوليك بالطرد وهو الأصل والمرجع والمتحكم في كثير من أمور السياسة، وهذه سمة غالبة آنذاك، فإن لم يكن البابا يعلم فمن يعلم إذن؟!.

ومن بين الأساقفة الإسبان كان خوان دي ربيبرا أسقف فالنسيا وبطريرك أنطوكية أشد المتحمسين لقرار طرد الموريسكيين[2]، وبذل الأموال والجهود – الشخصية والكنسية – من أجل تنصير المسلمين.إن اقتناعه الشخصى بعدم جدوى الجهود الكنسية والمكانة السياسية التي تتمتع بها إنما جاء لأنه كان نائبًا للملك في فالنسيا لعدة سنوات. كل ذلك أدى إلى تحمسه لطرد الموريسكيين، رغم علمه بالنتائج الدينية والاقتصادية السلبية التي يمكن أن تترتب على ذلك القرار السياسي، وقد رأى هو نفسه بعض هذه النتائج السلبية قبل موته عام 1611م. وعند «ميكيل دي إيبالثا» أن معظم رجال الكنيسة لم يكونوا من أنصار قرار الطرد، مثل أساقفة فالنسيا وسيغوربى وأورى أويلا وطرسوس، ولكن كان هناك أساقفة يشاركون ربيبرا ضرورة الطرد. ومن بين هؤلاء رجل الكنيسة خايمى بليدا الذي كان متحمسًا بشدة لطرد الموريسكيين من إسبانيا.ويمكننا القول بأن

---

(1) – لوي كارديااك: الموريسكيون الأندلسيون، **المرجع السابق**، ص150، 151.

(2) – يرى **بيانوبيا** أن ربيرا كان مترددًا في اللحظة الأخيرة وأنه ندم على تأييد قرار الطرد. **القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى**، ترجمة: عائشة سويلم، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة،2005، ص152.

القساوسة الذين اتصلوا بالموريسكيين اتصالاً مباشرًا هم الذين اعترفوا بفشل عملية تنصيرهم وكانوا من أنصار عملية الطرد. كان هذا وضع كل من ريبيرا وبليدا، لكن هناك تقارير حول الموضوع – من بينها تقرير بدرو دي فالنسيا – كانت تعرض رأيا مختلفًا، ربما لأنها لم تكن متأثرة بفشل عملية التنصير[1].

ويرى البعض أيضاً أنه على مستوى إسبانيا كلها، لم يكن الرئيس العام لمحاكم التفتيش، الكاردينال نينيو دي غيبارا، من أنصار طرد الموريسكيين كلهم، فقد رفض الحل الذي قدمه بليدا. كانت هناك أسباب مادية وراء موقفه، منها الأثر المادى الذي يحدثه طرد الموريسكيين على تمويل محاكم التفتيش. من ناحية أخرى لم تكن أهداف محكمة التفتيش تجميع المخالفات و«الجرائم الدينية»، بل إنقاذ الأرواح من عذاب الآخرة بالمحافظة على سلامة العقيدة المسيحية، وثانيًا بمحاولة إقناع المذنب بالتوبة فينقذ نفسه من عذاب الآخرة. ومن وجهة نظر محكمة التفتيش كان طرد الموريسكيين هو الحل الأخير[2].

ويختلف الباحث مع هذا الرأي في تبريره لأهداف محاكم التفتيش، فكيف تكون الدعوة لدين وتعليمه بسلب الإبن والمال؟! وكيف يعلم دين بأبشع طرق التعذيب! هل هذا ما يدعو له الدين المسيحي؟!. الإجابة بالنفي، ولكن رجال الكنيسة شغلتهم الدنيا، فلم يهمهم إنقاذ روح ولم يشغلهم دخولهم في المسيحية، بدليل فشلهم في إقناع الموريسكيين بالتنصر. إن من دافعوا عن عدم الطرد، من الناحية الدينية، لم يكن من قساوسة الكنيسة، بل كانوا من خارجها.

كان الملوك الإسبان يعتبرون أن مستقبل الدين المسيحي يشكل إحدى قضايا الدولة التي عهد الله بهم إليهم. لذلك كان للملك فيليب الثالث والملكة مارغريتا دي أوستريا دور مهم في طرد الموريسكيين. كان القرار الأخير من

(1) – **ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا، المرجع السابق**، ص151، 153.

(2) – **ميغيل أنخيل بونيس إيبارا**: الموريسكيون في الفكر التاريخي، ترجمة: وسام محمدجزر، مراجعة: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2005، ص56.

اختصاصهما، وأحاطا نفسيهما بمستشارين دينيين ومدنيين وعسكريين، لكن الملكين كانا مقتنعين بأن الأمر له أهمية دينية، وكان القرار نابعًا من ضميريهما، كما تؤكد ذلك نصوص كتبت في تلك الفترة، خاصة نصوص قرار الطرد[1]. وهكذا فعند اتخاذ فيليب الثالث قرار طرد الموريسكيين، كان يحركه عامل الوحدة الدينية في ممالكه تحت راية العقيدة الكاثوليكية التي كان يدافع عنها من خلال السياسة الخارجية في أوربا وما وراء البحار. كان هناك من ينتقد الوضع المتناقض حينذاك، والمتمثل في ضم شعوب العالم الجديد إلى الكاثوليكية، في الوقت الذي يكون فيه في إسبانيا أناس من «الوثنيين» أو «الكفار»؟!. وربما يشير هذا إلى سماحة الحضارة الإسلامية وملوكها الذين أقاموا حضارة في نفس المكان، وكان يعيش في كنفها يهود ومسيحيين ومسلمين، الكل عاش في عدل ولم يجبر أحد على ترك دينه أو سلب ماله أو اضطهاده، وقامت حضارة تضم كل الأديان.

يقول خوان باوتستا بيلارإن السياسة الدينية للملك تأثرت بأنه في عام 1609م عقد اتفاقية سلام مع بروتستانت هولندا بعد سنوات من الحروب لفرض الكاثوليكية هناك، وأراد حينذاك إحداث توازن بين تلك الاتفاقية الناتجة عن توحيد العقيدة واتخاذ طرد المنشقين عن الوحدة الإسبانية من الموريسكيين، كما حدث مع اليهود والبروتستانت والايرازميين وغيرهم من المتهمين بإضعاف الصفة الكاثوليكية للمملكة الإسبانية[2].

كان الأطفال الموريسكيون – وهم غير مسئولين بحكم سنهم عن اتباع الإسلام – يمثلون دائماً موضوعاً للمناقشة: إذا انتزع الأطفال من أسرهم المسلمة فسيتحولون إلى مسيحيين مخلصين، وهكذا تنقذ أرواحهم في الآخرة. كانت المشكلة الرئيسية هي الأمل في تنصير الموريسكيين واندماجهم في المجتمع

(1) – **ميكيل دي إيبالثا**: الموريسكيون في إسبانيا، المرجع السابق، ص153.

(2) – **عادل بشتاوي**: المواركة، المرجع السابق، ص168.

المسيحي، وإذا لم يكونوا قد تنصروا حتى الآن، فإن هناك أمل في تنصيرهم عندما يريد الله ذلك[1]. ولقد كانت تلك التساؤلات الدينية مائلة في ذهن فيليب الثاني الذي قرر ترحيل الموريسكيين من غرناطة وتوزيعهم على أنحاء مملكة قشتالة بعد حرب البشرات، لتسهيل اندماجهم في المجتمع. لم يكن فيليب الرابع من أنصار طرد الموريسكيين، فقد امتنعت حكومته عن ملاحقة بقايا الموريسكيين ممن بقوا في إسبانيا أو عادوا إليها، أما بالنسبة لفليب ومارغريتا دي أوستريا فقد كانت لديهما أسباب عميقة لم تكشف عنها الوثائق، وربما لن نعرف ذلك أبدًا، إذ أنها أسباب تتعلق بالضمير الديني الداخلي، ولأنه ليس من الممكن توثيق المحادثات التي جرت بينهما وبين مستشاريهما المقربين[2].

من هنا، وإزاء تلك التساؤلات ذات الطابع الديني، غلبت على الملك عوامل المصلحة السياسية التي كانت تؤيد عملية الطرد. لقد كان الرأى العام، كما يثبت دومنغيث – فينسينت، قليل الأهمية عند اتخاذ قرارات من ذلك النوع. لم يكن الرأى العام يرغب في اختلاف الأديان والعادات، خاصة في حالة وجود خطر سياسي عسكري من جانب المسلمين والأتراك الذين كان الموريسكيون في تحالف طبيعي معهم. لكن المعارضة الموثقة لقرار الطرد كانت قليلة، وكانت المعارضة تأتى من قطاعات محلية في المجتمع الإسباني[3].

كان توزيع الموريسكيين بعد حرب البشرات هو الذي أسهم في تعريف قطاعات الشعب الإسباني بمدى تمسك الموريسكيين أو المسلمين المتخفين. لقد أثار الموريسكيون مشاكل اندماج في الأماكن التي ذهبوا إليها. ففي فالنسيا كانت العلاقة بين البرجوازية والقساوسة من جانب، والموريسكيين من جانب آخر، في غاية الصعوبة منذ حرب الجماعات. وكانت النصوص التي تدعو إلى

(1) – **ميكيل دي إيبالثا**: الموريسكيين في إسبانيا، المرجع السابق، ص154.

(2) – **خوليو كارو باروخا**: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص52.

(3) – **دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت**: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص87.

اتخاذ إجراءات ضد الموريسكيين في المجتمع الإسباني تقتصر على منع القرصنة في السواحل، والتي كانت تتم بتواطؤ الموريسكيين، وعلى عقوبة عمليات السلب في القرى، والتي انتشرت على يد الغرناطيين المبعدين من بلدهم، في المجتمع الطبقي في القرن السادس عشر. كانت هناك وسائل تمنع قيام «المسيحيين الجدد» بممارسة وظائف معينة أو مناصب عامة أو الانضمام إلى المنظمات الدينية. لم يكن ذلك سوى تعبير عن المنافسة والخصومة داخل المجتمع، ولا يبدو أن عدد الأيدي العاملةفي أوائل القرن السادس عشر كان كبيرًا، لكن قدرة الموريسكيين الفائقة على العمل ونجاح بعضهم أدى إلى خط الطبقات الشعبية الإسبانية[1]. لذلك نجد أنه لم تكن هناك مطالبة ملحة في أوساط الرأى العام بطرد الموريسكيين. كان المجتمع الإسباني يرى أهمية الوحدة الدينية والثقافية، لكن الوضع الاجتماعي للموريسكيين لم يكن مصدرًا للمشاكل أو لانعدام الأمن.إذن فلابد أن أسبابا خاصة بالسياسة العسكرية والدولية هي التي كانت العوامل الحاسمة في اتخاذ قرار طرد الموريسكيين الذي أيده مجلس الدولة في جلسته التاريخية المنعقدة في 4 أبريل 1609م، وكان دور كبير الوزراء، دوق ليرما، حاسمًا[2].

كانت علاقة الموريسكيين بأعداء المملكة معروفة، خاصة بالنسبة للعسكريين الإسبان الذين أذهلتهم شدة مقاومة الغرناطيين في حرب البشرات. وسواء في مشاكل الحدود مع فرنسا أيام هنري الرابع، أو في هجوم المسلمين على سواحل فالنسيا، كان الموريسكيون يمثلون خطرًا على أمن البلاد في نظر المسئولين الإسبان. ورغم أن الخطر التركي لم يعد كبيرًا في الجزء الغربي من البحر المتوسط، فإن فشل الحملة البحرية الإسبانية على الجزائر وانتهاء الحرب الأهلية في المغرب قد أديا إلى الخوف من تزايد ضغوط المسلمين على إسبانيا التي كانت جيوشها موزعة بين أوربا والعالم الجديد. كانت اتفاقية السلام الهدنة الموقعة في هولندا، والتي تستمر

(1) – **خوليو كارو باروخا**: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص82.

(2) – **ميكيل دي إيبالثا**: المرجع السابق، ص155.

اثنا عشر عامًا مع البروتستانت، تهيئ المناخ لكي يتفرغ الإسباني «للعدو الداخلي» في نظر بعض المسئولين الإسبان[1].

ولقد قدم الموريسكيون إعانات مالية كبيرة للخزينة الملكية ضمنت لهم البقاء في مأمن عن محاكم التفتيش لفترات من الزمن. ففي سنة 1525م،على سبيل المثال، دفع موريسكيو بلنسية 50 ألف دوكة، وحظيت الصفقة بقبول الكاردينال مطران وكاردينال أشبيلية ورئيس محكمة التفتيش[2].وتدل هذه السياسة على جشع الحكومة الإسبانية التي كانت في عوز دائم للسيولة النقدية، مما جعل الموريسكيين يلجأون كثيراً لتزوير النقود، كما هو الحال بالنسبة لموريسكيي هوناتشوس[3]. وإذا كانت لهذه السياسة إيجابياتها على خزينة الدولة، فإنها انعكست سلباً من الناحية الدينية، وساهمت في إخفاق التنصير الذي كان أهم شعار رفعته إسبانيا لتحرير البلاد من «الهرطقة».

ويصف المبعوث البندقي نافيخيرو Navigero الوضع الذي سنة 1526م بعد ثورة الإخوة Germania بقوله:«إن عناية أولئك المتنصرين بالدين المسيحي كانت قليلة جداً، وكان غرض رجال الدين الأعظم هو جمع المال، وهذا ما جعل العرب والمسلمين يبقون على إسلامهم أو دون دين، بل إن كثيرًا من المحققين لا يتورعون عن ارتكاب الغصب والرشوة وغيرها لملئ جيوبهم، فكانت بذلك أحكام الغرامات والمصادرات أخصب مورد لاختلاس المحققين وعمال الديوان وقضاته، وتنعمت الخزينة الملكية ذاتها بمئات الألوف من هذه الموارد[4].

لم تكتف سياسة إسبانيا بعمليات المصادرة وفرض الغرامات، بل أصبحت ترى في طرد الموريسكي أفضل حل لتحقيق المزيد من الثراء والحصول على موارد

(1) – **ميكيل دي إيبالثا**: المرجع السابق: ص156.

(2) – **ليونارد هارفي**: تاريخ المورسكيين، المرجع السابق، ص342.

(3) – **أحمد الكامونى – هاشم السقلي**: التأثير المورسكي، المرجع السابق، 65.

(4) – **لي هنري تشارلس**: العرب والمسلون في الأندلس، المرجع السابق، ص131.

أكثر أهمية، وبذلك أصبح قرار الطرد حجة تذرعت بها الحكومة الإسبانية باعتبار أنه القرار الكفيل بإنقاذها من الأزمة المالية التي تتخبط فيها الدولة، وتمكينها من تسديد ديونها الهائلة التي كانت تتعاظم عليها باستمرار. ولا شك أن الأموال التي حصلت عليها الدولة من أملاك المنفيين بطريقة جشعة، كانت عظيمة للغاية. فقد جاء في تقرير القسالمالي، في أكتوبر 1610م، أن معظم أملاك العرب المسلمين في أوكانا Ocana ومدريد بيعت، وبلغ ما أحرزته مالية الدولة من ذلك البيع مائتي ألف دوكة. لكن إذا كانت إسبانيا تدعى أن حل الأزمة رهين بطرد الموريسكيين، فهذا الادعاء كان مجرد شعار لتحقيق الثراء، ليس للبلاد وإنما لأشخاص معينين. فقد جاء في رسالتين للسفير الإنجليزي «السير فرانس مؤرختين» في 4 مارس، وفي 16 مايو 1028هـ/ 1616م أن المفوضين كانوا يرسلون إلى المقاطعات لبيع بيوت المنفيين ومزارعهم، وأن الملك لم يكن في نيته تخفيف العبء المالي عن الدولة، وإنما كان همه الوحيد توزيع المال من ذلك البيع على أصفيائه. فقد كان نصيب ليرما Lerma مئتين وخمسين ألف دوكة، ونصيب ابنه دوق أوسيدا مئة ألف، ونصيب ابنته دوقة ليموس Lemos خمسين ألف، ونصيب زوجها مائة ألف[1].

لم تكن هذه السياسة لتحقق النتائج المتوخاة، بل أبانت عن نتائج عكسية. فإذا كانت إسبانيا تراهن بالفعل على تجاوز أزمتها بمجرد طرد الموريسكيين، فإنها في حقيقة الأمر زادت من تعميق الأزمة، فأسفر الطرد عن نتائج وخيمة في مختلف الميادين. ومن هنا اعتبر العديد من الكتاب بأنه رغم إيجابيات النفي من الناحية السياسية والدينية في زمن فيليب الثالث وما بعده، فهو ضار إذا نظرنا إليه من الوجهة الاقتصادية والديمغرافية[2]، وكان بمثابة الضربة القاضية لرخاء إسبانيا ومواردها، فانحط الإنتاج الزراعي الذي برع فيه الموريسكيون، وخربت الضياع الكبيرة بفقد الأيدي الماهرة، وكسدت التجارة التي كان الموريسكيون من أنشط

(1) – **لي هنري تشارلس**: العرب والمسلون في الأندلس، المرجع السابق،ص112.

(2) – **محمد عبد الله جمال الدين**: الأندلسيين المنصرين، المرجع السابق، ص301.

عناصرها، وركدت الصناعة التي كان الموريسكيون أساتذتها[1]. كما تناقص عدد السكان وانكمشت المدن الكبرى وتراجع عمرانها، وتضاءلت موارد الخزينة العامة، وشلت جهود الإصلاح والتقدم، وعم الفقر والخراب مئات المناطق. كان كل ذلك ناتج عن تعصب إسبانيا وإصرارها على مطاردة وملاحقة الفلاحين والتجار الموريسكيين بأية وسيلة حتى لا يبقى أمامهم سوى خيار واحد: إما الاندماج أو الطرد[2]. لكن إذا كانت إسبانيا خسرت اقتصادياً من جراء طردها للموريسكيين، فهل استطاعت أن تنصر وتعمد أكبر عدد منهم؟!.

الطرد النهائي

من العرض السابق نجد أن ترتيبات إقصاء الموريسكيين الأندلسيين من إسبانيا وطردهم كان من أسبابه الجوهرية المقاومة المستمرة التي أبدوها طوال عدة أجيال 897 – 1018هـ/ 1492 – 1609م.وتوضيحاً لهذا الأمر الجلل الذي أحاط بالموريسكيين الأندلسيين عقب هذا التهجير والطرد النهائي من أراضيهم، نطرح هذا التساؤل: هل كانت قرارات الطرد النهائي دفعة واحدة؟ وهل مست جميع مسلمي الأندلس، أم تعرضت له كل مدينة على حدة؟ وما موقف الموريسكيين الأندلسيين من هذا القرار؟. لقد اختلفت الآراء،وكانت مقترحات رجال الحكومة الإسبانية حول هذا الأمر تدور في تسعة حلول[3].

الحل الأول: اقترحه الراهب «فرانسيكو دي رباس» سنة 990هـ/ 1582م، وألونسو كوتريس» سنة 995هـ/ 1588م، ويعتمد على جمع الموريسكيين الأندلسيين الذين يرفضون النصرانية.

---

(1) – **دومينغيث آورتيث برنارد فينسينت**: تاريخ المورسكيين، المرجع السابق، ص6.

(2) – **أحمد الكامونى – هاشم السقلي**: التأثير المورسكي، المرجع السابق، ص68.

(3) – **حنيفي هلايلي**: أبحاث ودراسات، المرجع السابق، ص102103، **مرثيدس غارثا**: المرجع السابق ص115، **عبد الله محمد جمال** الدين: المرجع السابق، ص152.

الحل الثاني: اقترحه الراهب «تريخوس» سنة 981هـ/ 1573م، واعتمد على اختطاف كل الأطفال الموريسكيين الأندلسيين الذين لا تتعدى أعمارهم 6 سنوات وتسليمهم للنصارى لتربيتهم على دين النصرانية.

الحل الثالث: اقترحه مطران «ربيرا» وهدف القضاء على الموريسكيين الأندلسيين بالاسترقاق وأخذ بضعة آلاف منهم كل سنة للعمل في السفن والمناجم حتى يتم إفناؤهم.

الحل الرابع: اقترحه بعض وزراء الملك فيليب الثاني،وقام على جمع كل الموريسكيين الأندلسيين وحملهم على السفن وإغراقهم في عرض البحر.

الحل الخامس: اقترحه «مارتين دي سالبيتيرة» أسقف «سقروبة» بمملكة بلنسية وقام على إخصاء كل الذكور الموريسكيين الأندلسيين.

الحل السادس: اقترحه أيضًا «ألونسو كوتريس» وقام كذلك على الإخصاء لتحديد نسلهم.

الحل السابع:بقتل الأندلسيين دفعة واحدة وقتل البالغين منهم واسترقاق الباقين وبيعهم.

الحل الثامن: اقترحه «بيدرو بونسى دي ليون» واعتمد على إرسال الشباب الموريسكي ممن تتراوح أعمارهم بين 18و40 سنة للعمل في السفن، وبذلك يقل عددهم وينقرضون بمرور الوقت.

الحل التاسع: وقام على طرد الأندلسيين خارج إسبانيا، وهو الحل الذي يتم تطبيقه عام 1609م.

اتخذ قرار الطرد في ربيع عام 1609م واستمر تنفيذه من خريف 1609م حتى عام 1614م. ويلخص «بيرنارد فينسنت» الجوانب الأساسية في القرار بالقول بأنه بينما كانت المناقشات الشكلية في المجتمع الكنسي تتواصل،اتخذ مجلس الدولة في 4 أبريل 1609م قرار الطرد. كان المستشارون هم: دوق آليا، وكونت

آلبا،وماركيز بيلادا قائد قشتالة، وقائد ليون، وكاردينال توليدو. ربما كان صوت دوق ليرما هو الذي قاد الأصوات الأخرى، حيث استند القرار إلى أمن البلاد واحتلت القضية الدينية مرتبة ثانوية، وكان ذلك في عهد الملك فيليب الثالث. أما إحدى الوسائل التي تم اتخاذها قبل نشر القرار فكانت جمع القوات العسكرية ووسائل النقل البرى الكافية لإتمام عملية الطرد. أحسن الموريسكيون بقرب إصدار قرار طردهم، فعمل الأغنياء منهم على أخذ إجراءات تنقذ ما يمكن إنقاذه، إما بالهروب بأموالهم أو بتسريب أموالهم خارج إسبانيا. كانت أول منطقة يتم فيها تنفيذ قرار الطرد مملكة فالنسيا، حيث أعلن نائب الملك ماركيز كاراثينا القرار في 22 سبتمبر،وشهدت موانى فالنسيا من أليكانتى حتى بينادوث رحيل أكثر من 120 ألف موريسكي في سفن ملكية وقوارب خاصة في جو من الكراهية والاعتداءات من جانب المواطنين المسيحيين، وكذلك أمكن إحضار ثلاثة آلاف طفل سرقوا من عائلات موريسكية وبقوا مع عائلات فالنسيا[1].

أما القرار الخاص بموريسكي أندلوثيا ومملكة قشتالة فلم يصدر قبل عام 1609م. كان القرار يشمل مصادرة جزئية لأملاك الموريسكيين لصالح الخزانة الملكية، بدلًا من بيع الممتلكات بشكل كلى كما حدث في فالنسيا. كما كان القرار يقضي بأن تتخلى الأسر الموريسكية عن أطفالها الذين تقل أعمارهم عن سبعة أعوام، إلا إذا توجهت الأسر إلى بلاد مسيحية. وقد أدى القرار إلى أن تتوجه الأسر الموريسكية إلى فرنسا، لكن السفن المتجهة إلى فرنسا غيرت طريقها في البحر واتجهت إلى السواحل المغربية. والجدير ذكره أنه لم تكن هناك مقاومة أثناء عمليات الترحيل في ملقة وأشبيلية، وهناك شواهد على حزن الناس على الموريسكيين المطرودين، وهو ما يتضح من اللوحة الأدبية التي رسمها غاسبار

(1) – **دومينغيث آورتيث برنارد فينسينت**: تاريخ الموريسكيين (مأساة أقلية)، المرجع السابق، ص7.

دي أغيلا والتي تحدثت عن الأمر بصورة مفزعة [1].

بعدها بدأت تنتشر قرارات الطرد في أنحاء المملكة، حيث إن موريسكي إكستريمادورا وقشتالة بدأوا هجرتهم منذ عام 1609 ونشر القرار في 10 يوليه 1610م، وتوجهواإلى فرنسا. وفي أراغون نشر القرار في 29 مايو وشمل بقاء الأطفال ممن تقل أعمارهم عن أربع سنوات. وفي 8 أكتوبر 1610م أعلن قرار طرد موريسكي مملكة مرسية واستثنى منه موريسكي وادي ريكوتى[2]. ويذكر بيرنارد فينسيت، على ضوء وثائق محفوظة في يورد، أن عدد الموريسكيين المطرودين بلغ 275 ألفاً.فإذا أضفنا من هاجر سراً، بلغ العدد الإجمالى 300 ألف[3].وهناك وثائق إسبانية تشير إلى أن العدد 277.576 ألف، بل وتحدد أعداد الموريسكيين في كل مدينة، وهو ما يوضحه الجدول التالي[4].

م	أعداد المنفيين	المنطقة الإسبانية المنفيين منها
1	117464ألف موريسكيًّا	منطقة فالنسيا
2	60818 ألف / /	منطقة أراغون

(1) لقد ورد فيها: «فرقة من المسلمين والمسلمات – تسير وهي تسمع من كل ناحية شتائم.الرجال يحملون الثروات والأموال. النساء يحملن أدوات الزينة والملابس.العجائز يمشين بحزن ويبكين،يجهزن الطعام وهن يتميزن غيطاً،كلهن يحملن الجواهر والأواني والقناديل.عجوز يأخذ طفلا من يده.طفل أخر على صدر أمه. شاب ثالث قوى مثل الطروادييلا يتأخر عن حمل أبيه. كم من الموريسكيات الضعيفات التعيسات.عندما رأين أن أهلهن لا يجدون من يحميهم،عانقن أطفالهن الصغار،وصعدت إلى قمم الجبال.كما باعوا من أبنائهم المحببين لهم إلينامقابل لقمة من الخبز». **ميكيل دياباالثا**: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق ص157.

(2) – **خوليو كارو باروخا**: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص62.

(3) – **دومينغيث أورتيث برنارد فينسينت**: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص762، 159، 300.

(4) – **ميغيل نخيل يونيس إيبارا**: الموريسكيون في الفكر التاريخي، المرجع السابق، 165.

3	44625 ألف / /	كاستيا وألستيا دورا – قشتالة
4	30000 ألف / /	من غرب الأندلس
5	13552 ألف / /	من مورسيا (موريثا)
6	3716 ألف / /	من إقليم كاثولونيا (قطالونيا)
7	2026 ألف / /	غرناطة (ويرجع ضائلة النسبة أن موريسكيًّا غرناطة قد نفوا من ضواحها وخاصة بعد ثورة 1568م تدريجيا طيلة القرن 16م

وفي محاولة لمعرفة أعداد ونسب المطرودين من الأندلس، والذين استقروا في المدن والموانئ المتوسطية الجنوبية منها والشمالية،ذكر «التميمي» الإحصائيات التي قدمها الفرنسي هنري لابيرى في دراسته المونغرافية: جغرافية إسبانيا الموريسكية والتي أكدت على أن المهجرين العرب من الأندلس بلغ عددهم 275،000 نسمة، وهو الرقم الذي اعتمده جل المؤرخين والدارسين لاحقاً. لقد أثبتت العديد من البحوث والدراسات أن عدة آلاف فقط من هؤلاء الموريسكيين استقروا بالموانئ والمدن الفرنسية والإيطالية والبلقانية.

الاستنتاجات

عند الحديث عن الأندلسيين فأننا بصدد تناول شعبًا كامًلا كان أرفع شعوب الأرض حضارة وأقدرها على الاستمرار وسط كل الظروف السلبية التى فرضوها على أنفسهم، أو جاءت نتيجة تدفق أمم أوروبية من الورعين والمجاهدين أو المرتزقة الذين أعمت ثروة الأندلس أبصارهم، وحول الجشع خوفهم إلى قوة.

ورب قائل أن تناحر الأندلسيين ونزعة حكامهم للاحتفاظ بملكهم، بغض النظر عن السبل، هو السبب في سقوط الأندلس وتبدد شعبها؛ وقائل أن الأدلس قامت كيانا غريبًا عن محيطه فكانت جزيرة وسط بحر لم يكن يحتمل دينا غير

النصرانية أو شعبا غير الأوربيين؛ وقائل أن انفصال الأندلس عن بقية الوطن العربى حمل إليها بذور الفناء، أو أن تلك الدولة ما كانت لتستمر قوية بعد أن ضعف الوطن العربى وتناهشته الشعوبية والمؤامرة وتكالب اعداؤه عليه من كل جانب، وربما زعم أخرون أن الأندلسيين أخفقوا لأنهم كانوا مستعمرين، وكان عليهم الجلاء عندما توفر لشمال النصرانى العزم على طردهم، أو أن الوجود الإسلامى في شبه جزيرة ايبرية كان تجربة نمت وتقوت واستمرت وأنجزت، ثم هبطت وخارت قواها عندما تخلت عن الأسس التى قامت عليها.

ولكن لماذا استمرت السيطرة الإسلامية على تركيا والقسطنطينية وزالت عن الأندلس، لماذا يكون الجرمان أهل البلاد الأصليين وهم لم يمكثوا في الأندلس ثلث عمر سيرة الأندلسيين في شبه الجزيرة؟ ولماذا يكون لسكان قمم فنترية مالم يسمح به لأهل وديان الجنوب؟ وهى مجرد أسئلة لن تعيد الأندلس ولن تلم شمل أهلها، ولكنها تساهم في رسم صورة المأساة التى لم يعرف الوطن العربى مأساة بحجمها من قبل، وقد لا يعرف مأساة مشابهة لو تنبه المخلصون اليوم، واختلاف الأسئلة والاجابات لا ينفى حقيقة واضحة وهى أن الأندلس العربية الإسلامية تقوضت، كما سبق وتقوضت كل الممالك والامبراطوريات التى عرفها العالم منذ أقدم العصور.

أهم النتائج والاستخلاصات:

- أهم المشاكل التي واجهت غرناطة وعجلت في سقوطها

- كانت من أهم الأسباب الاقتصادية التي أثرت في غرناطة وعجلت في سقوط وإنهيار أركان هذه الدولة التي هى آخر معاقل المسلمين في الأندلس مشكلة التصدير حيث وجود غرناطة على الحدود مع العدو المسيحي وعلى مسافة بعيدة من البلاد، وهذا ترتب عليه تحكم المسيحين في في عبور التجارة والتجار الغرناطين من أراضيهم وكان على أثر ذلك يحملون هدايا من الأبل

والنعام للملوك المسيحين، مما يدل على الضعف في أركان الدولة وعدم السيطرة على أركانه ومصادره الاقتصادية مما جعلها لقمة سهلة في أيدى الملوك المسيحين وعجل في سقوط المملكة.

– التنافس بين ملوك غرناطة بسبب التنافس على النساء، حيث وقعت الحرب بين أبو الحسن الملك المحب وابن أخيه أبو عبد الله أو الصغير، وهذا ما استفاد منه فيرناندو الكاثوليكي من هذه الصراعات الداخلية وأتحدت الممالك المسيحية لسقوط هذه المملكة المنهكة من الصراعات.

– أنهكت غرناطة الصراعات الداخلية والفقر وزيادة السكان بسبب لجوء المسلمين إليها فأستسلمت 28 نوفمبر 1491 م.

– ضعف حليف قوى لغرناطة في المغرب وهو دولة بنى مرين، ثم وجود حليف ضعيف آخر وهم بنى وطاس وهم ليسوا بالقوة والبأس ليمدوا يدى العون لغرناطة، نرى تخاذل من العثمانين والعالم العربي اتجاه غرناطة وأهلها، ونرى هذا التخاذل من العرب بأعيننا الأن أمام القضايا العربية وكأنا التاريخ يعيد نفسه.

وإلى البعد الآخر في الأسباب التي أدت لسقوط الأندلس عدة عوامل أتحدث مع بعضها البعض في سقوط دولة الإسلام في الأندلس التي تمثل الوجود الإسلامي في على أرض إسبانيا.

ومن هنا نذكر بعض الأسباب الت أدت بالأندلس إلى السقوط والانهيار المؤلم لآخر معالم الإسلام في أوروبا في ظل الصمت الإسلامي الذي لم يقدم يد العون لممثلى الإسلام في أوروبا

الأسباب التي آدت بالأندلس إلى السقوط:

– تفتت كيان الشمال الأفريقى بعد سقوط دولة الموحدين حيث تحملت دولة بنى مرين حمل الجهاد وحدها في الأندلس، إلا أنها ضعفت وعجزت عن أداء رسالتها الجهادية في الدفاع عما تبقى للأسلام في الأندلس.

– سعى ممالك إسبانيا نحو الأتحاد وثم ذلك في الزواج السياسي الهام الذي تم بين فريناند والذي أصبح ملكا لأراجوان وأيزابيلا التي تبوأت عرش قشتالة ثم إتحدت المملكتان القضاء على سلطان المسلمين السياسي.

– الأنغماس في الشهوات والركون إلى الدعة والترفة وعدم إعداد الأمة للجهاد.

– الاختلاف والتفرق بين المسلمين.

– موالاة النصارى والثقة والتحالف معهم.

– التخاذل عن نصرة من يحتاج إلى النصرة من ممالك الإسلام.

– غدر النصارى ونقضهم للعهود.

– إلغاء الخلافة الأموية وبداية عهد الطوائف.

– عدم سماح ملوك الطوائف لنصح العلماء بالمزاودة والدفاع عن الإسلام والأتحاد في وجه الممالك المسيحية القائمة.

– الرضا بالخضوع والذل تحت حكم النصارى والطاعة لهم.

– سوء سياسة الولاء وإرهاق الأمة بالجبايات.

– الثورات الداخلية في الأندلس.

– الابتعاد عن تحكيم شرع الله على مسلمى الأندلس، وبهذه الأسباب إنتهى حكم الإسلام في الأندلس

دوافع فيليب الثالث في أخذ قرار طرد الموريسكيين:

– أُشير للملك فيليب الثالث أن الموريسكيين لا يزالون مشدودين بالحنين إلى ماضيهم أكثر من رغبتهم في الاندماج في هذه الديار الكاثوليكية، وهذا ما يدفعهم في المستقبل إلى التحالف مع المغرب والإمبراطورية العثمانية التي أصبحت سيدة البحر الأبيض المتوسط وكانت سفنها تغير على شواطئ شبه الجزيرة الأيبرية.

– رغبة الملك فيليب الثالث وضع حد لضغط بابا الفاتيكان، ناهيك عن

الاتهامات الرائجة في باقي دول أوروبا التي تعتبر إسبانيا الدولة الكاثوليكية الوحيدة التي تعيش بين ظهرانيها أقلية مسلمة؛ ومن ثم أخذ قرار الطرد.

– نجد أن الكاتب الإسباني الكبير «خوان غويتيسولو» يقول إن قرار وعملية الطرد تمثل أول تصفية عرقية ودينية تشهدها أوروبا.

– نجد أن بداية ومقدمات الطرد كما يذكر الحجري عندما أمر فيليب الثاني 1592م أمرًا بأجراء إحصاء سكاني لجميع المسلمين في الأندلس كما ذكر، وبعد 17 عام أخذ خليفته قرار الطرد.

– فتح مجال الدراسات الأندلسية في كافة المعاهد والكليات ومراكز الدراسات لأهمية هذه الفترة وما لها من تشابه في أحداث العالم الإسلامي الأن، حيث أن هناك بالفعل دراسات حول الأندلس ومجال أكاديمي، ولكن ما أعنيه هو الأهتمام بفترة ما بعد السقوط وهي فترة الموريسكيين المسلمين الذين أجبروا على التنصير حيث أنها فترة تاريخية كبيرة إلا أنها فترة مهملة بحثيًا وأكاديميًا.

– اخذ الدروس المستفادة من سقوط الأندلس، ودعوة للتعاون بين أطياف الأمة الإسلامية بمختلف ايدلوجياتها الفكرية وعقائدها الدينية، تحت مظلة تعاونية قوة قائمة على الأحترام والأخوة والموطنة السليمة، تحت هذف واحد وهو السلام والعبور بأمان من هذه الفترة العصيبة في حياة الشعوب، ومن ثم رفعة الأوطان والأمة.

– التعلم من درس الأندلس وأخذ الحيطة والحذر في التعامل مع الجانب الغربي، وكيفية تسيير الأمور السياسية والفكرية والثقافية بين الأطراف بشكل يضمن حق الجميع وفي أطار سياسي سليم يحافظ ويحترم ثقافة الأخر وعقيدته.

– دعوة لفتح حوار بين دول العالم الإسلامي لإزالة الخلافات ودعوة لتوحد الأفكار، لنقوي ببعضنا البعض لا بغيرنا، حيث أن قوتنا وسلامتنا في قبضة يدنا على يد البعض وليس في يد الغير، ولعل هذا أهم دروس التاريخ من فترة ملوك الطوائف وسقوطها

الملاحق

ملحق: رقم 1 : غلاف ومقدمة كتاب ابو القاسم الحجرى

اسم الكتاب: ناصر الدين على القوم الكافرين *

المؤلف: احمد بن قاسم بن احمد بن الفقيه قاسم

المقدمة: من نعم الله على بان جعلنى مسلما فى بلاد الكفار منذ ا عرف نفسى ببركة الوالدين

الخاتمة: وحصلت لى فايدة بالبرهان ان الله يريد من الانسان قولا باللسان واخلاصاً بالقلب وعملا بالجوارح... تسليماً كثيرا ابدا الى يوم الدين

رقم النسخة: - - 307014

عدد الأوراق: 38 ورقة/ ورقات

عدد الملفات المرفقة: 04 ملف/ ملفات

مصدر المخطوط: موقع مخطوطات الأزهر الشريف مصر جزى الله القائمين عليه خيرا

عنوان موقع مخطوطات مكتبة الأزهر: http://www.alazharonline.org

الملحق رقم: 2 - صور من مخطوطة الأحاطة لأبن الخطيب

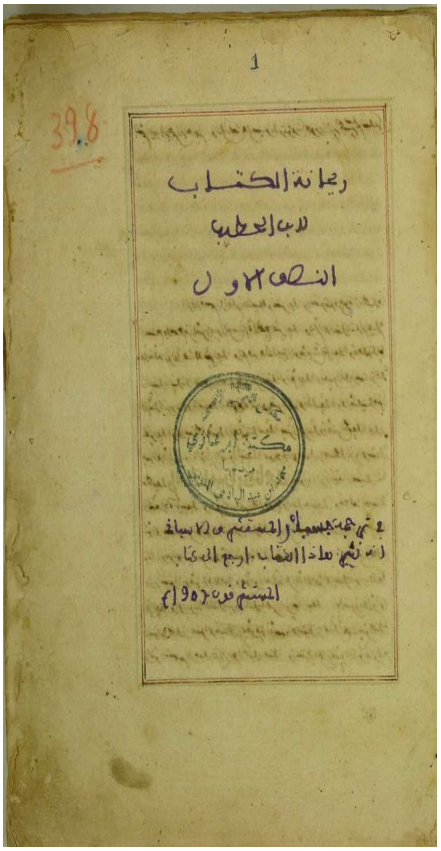

الرقم

2933

الرقم2

23571 ح عربى

اسم المؤلف: لسان الدين ابن الخطيب

اسم الناسخ

المكتبة: دار الكتب المصرية

تاريخ النشر

البل: دمصر

عدد الأوراق: 618

ملحق رقم 3: وثيقة تسليم غرناطة

وثيقه تسليم غرناطه

تم التوقيع عليها من قبل الملك أبو عبد الله الصغير والملك فرديناند وإيزابيل في الثانى من شهر يناير عام 1492م.. وبموجبها دخل فرديناند وإيزابيل قصر الحمراء ليعلنا إنتهاء دوله الإسلام في شبه الجزيرة الإيبيريه بعد أن إستمرت قرابه الثمان قرون

الوثيقه محفوظة بمتحف مدريد.. إسبانيا.

من هنا المأساة.... أن أمة أقرأ لا تقرأ وإذا قرأت لا تفهم وأن فهمت لا تعمل بما فهمت، فالمأساة الحقيقية أن لا نتعلم من التاريخ ودروسه، من المأساة أن ندرس التاريخ كقصص وحكايات لا عبرة وحكمة وبرهان لواقع نعيشه نستطيع من خلال رؤية مستقبل بعيدًا عن أخطاء الماضي.

من هنا المأساة... أن يفتقد التاريخ وكتابته في واقعنا المعاصر اليوم، مؤرخين عظماء أمثال ابن الخطيب وأبو القاسم الحجري، فكانوا يكتوبون أوجاع شعوبهم ويتناولون قضيتهم ومأسيها، حتى تتعلم الأجيال لا من أجل أن يتلمقوا وينافقوا سلطة ويخدعو الأجيال ويرضون الدنية في أمانتهم العلمية وخلقهم، من هنا المأساة عندما تفقتد الأمة لعلماء حقيقين صادقين ينقدون بصدق يضعون الحلول والرؤية، فبلعلم تبنى الأمم لا بالجهل والاستبداد والنفاق، فهل من معتبر يا قارىء التاريخ وكاتبه؟

قائمة المصادر والمراجع:

المخطوطات:

1 – احمد بن قاسم بن احمد بن الفقيه قاسم:**ناصر الدين على القوم الكافرين،** رقم النسخة 30701، عدد الأوراق 38 ورقة/ ورقات، موقع مخطوطات الأزهر الشريف بمصر.

2 – لسان الدين ابن الخطيب: **الاحاطة فى اخبار غرناطة،** الرقم 2933، الرقم223571 ح عربى، عدد الأوراق 618، المكتبة: دار الكتب المصرية.

3 – وثيقه تسليم غرناطه: الوثيقه محفوظة بمتحف مدريد.. إسبانيا

المصادر:

1 – أحمد بن قاسم الحجرى الأندلسى: **ناصر الدين على القوم الكافرين النسخة المصرية،** تحقيق: حسام الدين شاشية، ط1، دار السويدى للنشر والتوزيع، ابو ظبى 2015.

2 – ---------: **ناصر الدين على القوم الكافرين،** تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت 1999م، ص 13.

3 – ----------: **رحلة أفوقاى الأندلسى: مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب 1611 – 1613م،** تحقيق: محمد رزوق، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005.

4 – ابن الخطيب: **الإحاطة في أخبار غرناطة،** تقديم وتحقيق: محمد عبد الله عنان،ط2، مكتبة الخانجي، ج1، القاهرة 1973م.

5 - ---------: «**كناسة الدكان بعد انتقال السكان» (ألفه بسلا)**، تحقيق: محمد شبانه، مراجعة: حسن محمود، دار الكاتب العربي، ط1966.

6 - أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبدالمنعم الحميرى: **الروض المعطار في خبر الأقطار**، تعليق وتصحيح: ليفي بروفنسال، ط2، دار الجبل، بيروت 1988.

المراجع العربية:

1 - حسن مراد: **تاريخ العرب في الأندلس**، دار الفرجاني، القاهرة 1984.

2 - حنيفي هلايلي: **أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي**، دار الهدى، الجزائر2010.

3 - عادل سعيد بشتاوي: **الأندلسيون المواركة**، دار أسامة للنشر، ط1، القاهرة 1983.

4 - عُبادة كحُيلة: **القطوف الدواني في التاريخ الإسباني**، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2011.

5 - عبدالجليل التميمي: **الدولة العثمانية وقضية الموريسكين الأندلسين**، منشورات مركز الدراسات والبحوث العثمانية والموريسكين زغوان، تونس 1989م.

6 - ----------: **تأثيرات الموريسكيين - الأندلسيين في المجتمع المغاربي. إيالة تونس نموذجًا**، كتاب العربي الكويتي - حوار المشارقة والمغاربة،ج1، الطبعة الأولى - مجلة العربي الكويتي،الكويت 2006.

7 - عبدالواحد طه دنون: **أهمية الكتب الفقهية في دراسة تاريخ الأندلس نموذج تطبيقي عن كتاب المعيار**، ضمن أعمال الندوة الدولية حول حضارة الأندلس في الزمن والمكان، الرباط 1992.

8 - محمد رزوق: **الأندلسيون وهجراتهم إلى المغرب خلال القرن 16 - 17، أفريقيا الشرق**، الدار البيضاء 1991.

9 – محمد عبد الله عنان: **أندلسيات، سلسلة** «كتاب العربي»، الكويت، رقم20، يوليو 1988.

10 – ----------: **نهاية الأندلس وتاريخ العرب المتنصرين**، ج4، مكتبة الخانجى، القاهرة 1997م.

11 – محمد عبد الله جمال الدين: **المسلمون المنصرون**، دار الصحوة، القاهرة 1991.

12 – محمد عبده حتاملة: **التهجير القسرى لمسلمى الأندلس فى عهد فيليب الثانى (1527 – 1598)**، عمان – الأردن 1982م.

13 – مولاي أحمد الكامون – هاشم السقلي: **التأثير المورسكي فى المغرب**، مركز الدراسات والبحوث الإنسانية والاجتماعية، وجدة، المغرب 2010.

14 – مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات: **موريسكيون في البلاط السعدي**.

المراجع الأجنبية المترجمة إلى العربية:

1 – خوليو كاروباروخا: **مسلم مملكة غرناطة بعد عام 1492**، ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط1، المركز القومي للترجمة، القاهرة2003.

2 – دومنيغيث أورتيث – برنارد فينسينت: **تاريخ الموريسكيين مأساة أقلية**، ترجمة: عبدالعال صالح، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، الطبعة الأولى، المجلس الأعلى للثقافة، القاهرة 2007.

3 – دون باسكوال بورونات إى براتشينا: **الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم**، ترجمة: كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة، ج1، المغرب 2012.

4 – لوى كارديالك: **الموريسكيون المسيحيون والأندلسيون – المجابهة الجدلية(1492 – 1640) مع ملحق لدراسة عن الموريسكيون فى أمريكا**، ترجمة

وتقديم: عبدالجليل التميمى، منشورات المجلة التاريخية – وديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، تونس 1983.

5 – لي هنري تشارلس: **العرب والمسلمون في الأندلس بعد سقوط غرناطة،** ترجمة حسن سعيد الكرمى، ط1، دار لبنان للطباعة والنشر، بيروت 1988.

6 – ليونارد باتريك هارفى: **تاريخ الموريسكيين السياسى والاجتماعي والثقافى،** ضمن أعمال الحضارة العربية والإسلامية في الأندلس، ترجمة عبدالواحد لؤلؤة، ط1، مركز دراسات الوحدة العربية، بيروت 1998، ج1، ص114.

7 – ميغيل أنخيل بونيس إيبارا: **الموريسكيون في الفكر التاريخي،** ترجمة: وسام محمدجزر، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة2005.

8 – ميكيل دى إيبالثا: **الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى،** ترجمة: جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، القاهرة 2005.

9 – مارمول كارباخال: **وقائع ثورة الموريسكيين،** ترجمة: وسام محمد جزر، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ج1، القاهرة2012.

10 – مرثيدس غارثيا: **الموريسكيون الأندلسيون،** ترجمة: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2003.

11 – واشنطن ايرفنغ: **سقوط غرناطة،** ترجمة: هلاني يحيى نصري، ط1، مؤسسة الانتشار العربي – لندن 2000م.

المراجع الأجنبية:

1 - Bennassar.Bartolome، **Histoire des Espagnoles(v1 - xv11 Siecle)**،Editeur Armand Colin، parism1985،T،i

2 - Circourt. Marie Joseph Albert، **Histoire des mores Mudjares et des morisquesou des Arabes d، ESPAGNE Sous la domination des**

chretiens، paris 1846، T.3، P.219.

3 - **Henri Lapeyre: Georaphie de I Espagne Morisque**

بحوث ومقالات:

1 – امحمد بن عبود: **ابن الخطيب مؤرخاً للأندلس في عهد الطوائف**، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

2 – الشهاب الحجري: **أهم وثيقة تاريخية للأندلس**، جريدة الاتحاد، تاريخ 20 أكتوبر 2012.

3 – حسن الوراكلي: **لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين (دراسة وبيبليوجرافيا)**، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

4 – خوسيه غوميث سولينيو: **وثيقة انجليزية تكشف كيفية سقوط غرناطة**، المؤتمر الثامن عشر للغة والأدب والمجتمع الأسبانى – مالقة 2006، تم نشرها فى: جريدة الشرق الأوسط العربية الدولية، الأحد 13 شوال1426هـ – 5 نوفمبر 2006، العدد 10204.

5 – عبد الهادي التازي: **ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً**، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

6 – فريد أمعضشو – **المغرب: ابنُ الخَطيب الأندلسي وإحاطته**، العدد 70، عود الند مجلة ثقافية فصلية K لناشر: د. عدلي الهواري.

7 – محمد الكتاني: **ابن الخطيب والمذاهب الفكرية في عصره**، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

8 – محمد المنوني: **محاولة لقراءة جديدة في التراث التاريخي لابن الخطيب**، مجلة كلية الآداب بنطوان، ع.2، س.2، تطوان 1987.

المأساة الثانية عشر:
تهجير أقلية ومغادرة الوطن

الوجود الأندلسي والموريسكي في مصر[1]

المهجرون الأندلسيون المنصرون»الموريسكيون». هم بقايا المسلمين الذين بدأت عمليات تهجيرهم من الأندلس، بعد سقوط الدولة الإسلامية بالأندلس 1492م، واستمرت طوال القرن السادس عشر، نتيجة لعمليات الاضطهاد، التى كانت تتبعها محاكم التفتيش إزاء المسلمين من أبناء الأندلس، حتى توجهت هذه العمليات فى آخر الأمر بقرار الطرد النهائى فى عام 1609م، الذى نص على تهجير هؤلاء الموريسكيين إلى الموانئ المغربية، مع السماح لهم بحمل ما يستطيعون من أموالهم المنقولة، وأن يحظر عليهم إخفاء أى شىء من أموالهم لا يستطيعون حمله، كما يحظر عليهم إتلاف بيت أو مزرعة أو أى شىء من الممتلكات، ومن يتخلف عن تنفيذ القرار، يعرض نفسه للموت المحقق.

أولاً - هجرات الأندلسيين المنصرين (الموريسكيين) اتجاه مصر وأماكن توطنهم بها.

أسباب توجههم إلى مصر:

وقد كان المهجرون من أبناء الأندلسين المضطهدين، يأتون إلى سواحل بلاد المغرب العربى كما نص قرار الطرد، ومنها إلى سواحل مصر وبلاد الشام، وكانت

(1) عبداللطيف مشرف: الوجود الأندلسي والموريسكي في مصر، بحث منشور في مجلة مركز بحوث الشرق الأسط، التابع لجامعة عين شمس، في مؤتمر شباب الباحثين الأول، القاهرة 2017.

الثغور المصرية، وبخاصة الإسكندرية، ورشيد، ودمياط، وأيضاً من المراكز الرئيسية الكبرى، مثل: القاهرة، والمنصورة، والسويس، واندمجوا وتعايشوا مع أبناء المجتمع المصرى.

والواقع أن صلة أهل الأندلس بمصر تعود إلى فترة طويلة سابقة على انهيار الدولة الإسلامية 1492م، وعمليات الاضطهاد التى تلتها، ولذا فإن أبناء الأندلس أمُّوها حينما حلت بهم محنة الاضطهاد، وفضلوا الإقامة بصفة خاصة بثغر الإسكندرية، على زعم أنها ثغر رباط، أى جبهة قتال، مدفوعين فى ذلك برغبة صادقة، فى مواجهة أخطار العدو البحرى وحث الناس على الجهاد، من أجل استرجاع فردوسهم الفقود[1].

كانت الإسكندرية والقاهرة من المراكز التجارية والحضارية المهمة، وكانت مصر أيضاً ممراً ضرورياً للمسلمين القادمين من المغرب والأندلس لأداء فريضة الحج، إن الموريسكى الحجرى بيخارانو فى رحلة الحج إلى مكة من المغرب قد مر بمصر، وفى عودته التقى بمفكرين مصريين وكتب بعضاً من مؤلفاته فى مصر قبل أن يعود إلى تونس، وقد أرسل نصوصاً جديدة إلى أصدقائه[2].

أهم أماكن توطنهم بمصر:

جدير بالذكر أن المصادر لا تحدد أعداد الموريسكيين المهاجرين إلى مصر، ويوضح المقرى وهو نفسه موريسكى هاجرإلى مصر - أن عدداً منهم هاجر إلى مصر واستقر بها فيقول:«ووصل جماعة إلى القسطنطينية العظمى وإلى مصر

---

(1) - **عبدالحميد سعد زغلول**: الأثر المغربى والأندلسى فى المجتمع السكندرى فى العصور الإسلامية الوسطى، ضمن مجموعة ندوات ومحاضرات فى جامعة الإسكندرية1973ـ والجمعية التاريخية، مطبعة الإسكندرية 1975م، ص245.

(2) - **ميكيل دى إيبالثا**: الموريسكيون فى إسبانيا وفى المنفى، ترجمة: جمال عبدالرحمن، المشروع القومى للترجمة، القاهرة 2005، ص341

والشام وغيرها من بلاد الإسلام[1].وعلى الرغم من قلة المصادر التى تتحدث عن هذا الموضوع،إلا أن الوثائق تشير إلى أن مصر كانت واحدة من أهم الأقاليم التى استقبلت الهجرة الموريسكية. ولذا يجب محاولة فهم طبيعة حديث الوثائق عن هؤلاء الموريسكيين وكيف كانت تتحدث عنهم هذه الوثائق، يتبين لنا أن لقبين هما الأندلسى والقطورى كانا هما اللقبين اللذين لقب بهما الموريسكيين فى الوثائق[2]. وكلمة القطورى من المصدر يقطر أى يتتبع ويلحق، وتوجد أدلة عديدة من خلال الوثائق على ارتباط هذا اللقب بالعائلات الموريسكية منها أن عائلات عديدة نعرف جيداً أنها موريسكية كانت تلقب بهذا اللقب مثل عائلة المقرى فالشيخ الشهير أحمد بن محمد المقرى مؤلف كتاب» نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب «تلقب الوثائق عائلته بالقطورى حيث أقامت عائلة المقرى فى الإسكندرية [3] فترة طويلة إلى أن انتقل عدد من أفرادها إلى القاهرة، ومن الغريب أنه عند تسجيل تركة الشيخ أحمد نجد أن الوثائق تلقبه بالتلمسانى وهو ما يعكس المحاولات المستمرة من جانب الموريسكيين للتخلص من الماضى الذى كان يعتبره العامة فى المجتمع نوعاً من الكفر أو التنصر[4] ونجد فى كثير من البلدان التى هاجروا إليها مثل هذه المحاولات، وفى طولون أيضا أنشأ الموريسكيون درب عرف بدرب القطرى وفى بولاق حوش القطرية[5]، إن المنطقة الشمالية من الدلتا الواقعة فى شمال إقليم الغربية (محافظة كفر الشيخ الحالية) كانت هى أكثر المناطق

(1) – **شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى**: نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، الجزء الثانى، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1968،ص617.

(2) – **محكمة الصالحية النجمية الشرعية**: س508، ص303، م 921 بتاريخ 1107/ 16م؛ محكمة الباب العالى الشرعية: س9، ص1437،373 بتاريخ 951هـ/ 1544م.

(3) – **حسام محمد عبدالمعطى**: العائلة والثروة – البيوت التجارية المغربية فى مصر العثمانية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 2008، ص18.

(4) – **حسام محمد عبالمعطى**: المرجع السابق، ص 19.

(5) – **حسام محمد عبدالمعطى**: المرجع السابق، ص19

التى تركز فيها الموريسكيون، حيث كانت هذه المنطقة منخفضة الكثافة السكانية أو معدومة، حيث أنشأ الموريسكيون عدداً كبيراً من القرى فى هذه المنطقة، وبالتالى أطلقوا عليها أسماء أقرب إلى أسماء مدنهم فى الأندلس[1]. ويمكن ذكر أسماء بعض القرى التى على الأرجح أن مؤسسيها هم الموريسكيون[2]:

اسم القرية	الموقع الحديث	اسم القرية	الموقع الحديث
الحمراء	تقع كل هذه القرى فى مركز	سد خميس	مركز سيدى سالم
الحمراوى	كـفـر	أبو غنيمة	مركز سيدى سالم
إسحاقة	الـشـيـخ	الحدادى	مركز سيدى سالم
أريمونة	مـحـافـظـة	الناصرية	مركز بيلا
محلة موسى	كـفـر	قطور	مركز بالغربية
سيدى غازى	الـشـيـخ	المنيل محلة دياى	مركز دسوق
كفر الشيخ		كفر مجر	مركز دسوق

وفى الإسكندرية استقر الموريسكيون فى شمال المدينة القديمة وعمروا جزءاً رئيساً من المنطقة التى تطلق عليها الوثائق «الجزيرة الخضراء»، ويطلق عليها المؤرخون المدينة التركية[3]، ففى سنة 1033هـ / 1623م اشتكى أهالى الثغر السكندرى إلى الديوان فى القاهرة بأن المغاربة القادمين من المغرب بنوا بيوتهم بجزيرة الثغر حتى تعدوا على مقابرهم، ورغم ذلك فقد جاءت أوامر الباشا بعدم التعرض للمغاربة وعدم منعهم البناء، وكانت حارة البلقطرية واحدة من تسع

(1) – **محكمة الباب العالى**: س38، ص89 – م392 بتاريخ 984هـ/ 1576م.

(2) – **حسام محمد عبدالمعطى**: المرجع السابق، ص19

(3) – **محكمةالأسكندرية الشرعية**: س40، ص405، م 1055 سنة 1033هـ / 1623م.

حارات تتكون منهما الإسكندرية [1].

وكان الوجود القطورى مهماً جداً فى رشيد أيضاً، كما شهدت مدينة طنطا هجرة واسعة من جانب الموريسكيين بوصفها معقلاً لأحد أهم المشايخ المغاربة وهو السيد البدوى.

وفى القاهرة تركز الموريسكيون فى منطقة بين القصرين وفى منطقة باب الشعرية[2]وهو ما سوف يُعزز هذا الحى سكانياً، فتتسع مساحته، ولا يزال هذا الحى يحتفظ بحارة مهمة تسمى حارة المغاربة.

وبعد أن استقر هؤلاء المهجرون فى مصر، بدأوا يمارسون مختلف الأنشطة الاقتصادية والاجتماعية والثقافية التى كانوا يمارسونها فى مواطنهم الأصلية بإسبانيا، وخلال القرنين السادس عشر، والسابع عشر، اندمجوا فى المجتمع المصرى، وبدأ تأثيرهم يظهر على وجه الحياة فى مصر اقتصادياً، واجتماعيا، وثقافياً، ووثائق المحاكم الشرعية المصرية تحتوى على كم ضخم من المواد المتعلقة بالمهجرين الأندلسيين، مصورة أوضاعهم ونشاطاتهم المختلفة التى كانوا يمارسونها[3].

ثانياً - أحوال الأندلسيين المنصرين (الموريسكيين) فى ضوء الوثائق المصرية

ونظرا لضخامة أرشيف المحاكم الشرعية المصرية، خلال الفترة العثمانية، فقد ركزنا فى بحثنا هذا على وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية على أمل معالجة وثائق المواد المتعلقة بالمهجرين الأندلسيين (الموريسكيين)، ونجد أنه أرشيف مهم للبحث عن وجود هؤلاء فى مصر ويحتاج إلى الكثير من المجهود والبحث ونحن

(1) – **محكمة الأسكندرية، إشهادات**: س18، ص30،29م بدون 1222هـ/ 1807م.

(2) – **باب الشعرية**: س608، ص 22، م 105 بتاريخ 1027هـ/ 1617م

(3) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: وثائق محكمة الأسكندرية الشرعية عن المغاربة فى مصر، السجل التاسع، المجلة التاريخية المغربية، العدد(27 – 28)، ص323

بصدد هذا وفى طريقنا إلى العناية والبحث والتدقيق فى هذا الأرشيف المصرى خدمة لقضايا الوجود الموريسكى فى مصروأوضاعهم داخل القطر المصرى.

أنواع الوثائق المتعلقة بالمهجرين الأندلسيين:

تنحصر هذه الوثائق فى الأنواع التالية:

(أولا): عقود الزواج، وعقود الطلاق، الخاصة بأندلسيين وأندلسيات.

(ثانياً): مواد خاصة بالأعمال التجارية والمهنية، ومختلف المعاملات الأخرى، التى كان يمارسها الأندلسيون، سواء فيما بينهم، أو بينهم وبين وأبناء الجاليات الأخرى المستقرة بالإسكندرية.

(ثالثا): وثائق خاصة بشراء، أو بيع، أو امتلاك العقارات وتأجيرها، وكان الأندلسيون طرفا فيها.

(رابعا): وثائق بإنهاء بعض النزاعات بين الأندلسيين فيما بينهم، أو بينهم وبين أبناء الجاليات الأخرى.

(خامسا): وثائق خاصة بالتركات ومخلفات بعض هؤلاء المهجرين الذين استقروا بالإسكندرية، وجميع هذه الأنواع المختلفة من الوثائق، هى عبارة عن مواد شرعية، كانت تتم على يد قضاة الشرع، على مختلف مذاهبهم السنية، وتسجل فى سجلات المحاكم الشرعية كما كان متبعا أنذاك.

والدراسة التى نقدمها هنا، متعلقة بوثائق محكمة الإسكندرية الشرعية الشرعية كنموذج لما يحتويه الأرشيف المصرى من وثائق متعلقة بوثائق محكمة الإسكندرية الشرعية كنموذج لما يحتويه الأرشيف المصرى من وثائق متعلقة بالمهجرين الأندلسيين مع ملاحظة أن هؤلاء المهجرين:

لم ينسوا أو يتناسوا أبدا نسبتهم إلى الأندلس، فهم حريصون دائما على ذكر هذه النسبة مقترنة بأسمائهم وجعلها صفة من صفاتهم (فلان بن فلان الأندلسى).

إذا كان أحدهم قد استقر به المقام، قبل وصوله إلى مصر، فى إحدى البلدان المغربية فإنه يحرص دائما على أن يقرن اسمه بنسبه «المغربى الأندلسى»[1].

ونلتمس من خلال أرشيف محكمة الإسكندرية الشرعية، ازدياد أعداد هؤلاء المهجرين منذ بدايات عمليات الاضطهاد الإسبانى للمسلمين فى إسبانيا، كما أن هذه الوثائق تثيرأمامنا كثيراً من القضايا والتساؤلات المتعلقة بهم، وكيفية وصولهم إلى ثغرر الإسكندرية، والمدن المصرية الأخرى.

فتشير بعض الوثائق أن كثيرًا من هؤلاء المهجرين وقع فى الأسر قبل وصوله إلى السواحل المغربية، وعملوا على افتداء أنفسهم، فى جزيرة جربة بالذات، نظير مبلغ من المال (10 سندانوه) من بعض المغاربة على أساس تسديده لهم فى مدينة الإسكندرية التى كانوا يتجهون إليها، وهذا ما حدث بالفعل كما تنص الوثائق[2] أما البعض الأخر فقد استقر بهم المقام أولا فى المدن المغربية، ومنها انتقلوا إلى الإسكندرية، والمدن المصرية الأخرى، لممارسة نشاطاتهم المختلفة فيها، حيث وجدوا فيها المجال الرحب لممارسة نشاطاتهم المختلفة فيها، حيث وجدوا فيها المجال الرحب لممارسة أعمالهم التى كانوا يمارسونها فى بلادهم قبل وصولم إلى مصر.

(اولا): وثائق الزواج، وثائق الطلاق:

عن طريق هذه الوثائق، ندرك أن هؤلاء المهجرين، لم يكونوا يعيشون فى عزلة عن أبناء الجاليات العربية الأخرى التى كانت تعيش فى الإسكندرية، وبخاصة الجالية المغربية، وإنما كانوا يتزوجون من بنات هذه الجاليات، ويزوجون بناتهم

(1) **عبدالرحيم عبدالرحمن**: وثائق محمكة الاسكندرية - السجل التاسع - المرجع السابق، ص324.

(2) - **عبدالرحيم عبدالرحمن**: محكمة الأسكندرية والجزيرة الخضراء الشرعية، السجل الأول 957هـ - 958هـ / 1550 - 1551م، المجلة التاريخية المغربية العدد 25 - 26، ص165 - 184.

لأبناء هذه الجاليات فنجد مثلا أن «عبدالرحمن بن أحمد بن عبدالرحمن المغربى الطرابلسى، المعروف «بالديلاوى» يتزوج بمخطوبته فاطمة المرأة ابنة محمد عمر المغربى الأندلسى». وقد كان لهذه الزوجة الأندلسية الأصل، اشتراطات قاسية على زوجها، موضحة فى عقد الزواج، وربما كان لوضعية هؤلاء المهجرين أثر فى تشددهم بالزواج من أبناء أو بنات الجاليات الأخرى ضمان لمستقبلهم، بعد طردهم من بلادهم، والشروط التى اشترطتها هذه الزوجة خير دليل على ذلك[1]. كذلك نجد أن أندلسيا يتزوج بمصرية كانت تعمل فى أحد الحمامات، فينص عقد الزواج «تزوج محمد بن على بن محمد المغربى الأندلسى، بمخطوبته عايشة المرأة بنت عبدالله المدولبة» وواضح أن هذا الأندلسى، أتى عن طريق بلاد المغرب، فهو يذكر فى نسبته»المغربى الأندلسى»، وقد كان لهذه الزوجة كذلك اشتراطات على زوجها هذا، مما يدل على وضعية هؤلاء المهاجرين الاجتماعية عند ارتباطهم بعمليات التزواج مع الجاليات الأخرى، أو مع أبناء أو بنات المجتمع المصرى[2]، وتتكرر هذه الحالات وعلاقات التزواج فنجد أن «فاطمة بنت حمزة بن عبدالله المتونية» تدعى أن زوجها الحاج على دقناش المغربى المنناوى» قد وكل الحاج أحمد بن محمد بن سعيد المغربى الأندلسى» فى التصرف فى شئونه بالثغر، وأن زوجها المتغيب بجزيرة جرية، قد أوقع عليها الطلاق، وأن رسالة وصلتها منه تفيد ذلك، وأنها تطالب الوكيل الأندلسى بمؤخر صداقها، ومقداره خمسة دنانير ذهباً أكرونيا[3]، وهذا دليل على أن بعض المهجرين الأندلسين قد حازوا

(1) – **دار الوثائق المصرية**: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س1، بتاريخ 957هـ/ 1550م، ص162

(2) – **دار الوثائق المصرية**: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س2، بتاريخ 962هـ/ 1555م، ص256

(3) – **دار الوثائق المصرية**: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س1، بتاريخ 958هـ/ 1551م، ص239

ثقة أبناء الجاليات الأخرى، وبخاصة الجالية المغربية، فأوكلوا إليهم أمر التصرف فى شئونهم أثناء تغيبهم عن مصر.

وتستمر وثائق أرشيف محكمة الإسكندرية، ترصد لنا الكثير من عقود الزواج والطلاق المتعلقة بالأندلسين والأندلسيات حتى نهاية القرن الثامن عشر؛ ففى تاريخ 5ذى الحجة 1184هـ/ 10مارس 1772م، نجد إحدى الوثائق تسجل» سألت مبننة المرأة بنت إبراهيم الجربوعى الحاضرة بالمجلس الإشهاد، زوجها الحاج محمد بن المرحوم أحمد الأندلسى السوسى، الحاضر معها بالمجلس المرقوم، أن يطلقها من عصمته طلقة واحدة أولى على البراءة الشرعية، من ساير حقوقها الشرعية[1]، وتستمر وثائق محكمة الإسكندرية الشرعية فى تسجيل الكثير من ذا النوع من الوثائق، التى يستطيع الباحث عن طريقها أن يقف على كثير من التفاصيل التى تتعلق بالصداق، مقدمه ومؤخره، وحقوق الزوجة قبل زوجها فى حالتى الطلاق والوفاة، كما يقف الباحث منها على كثير من العادات والتقاليد الاجتماعية التى يتمسك بها أبناء الجالية الأندلسية[2]،والتى توضح إلى حد كبير أوضاع هؤلاء المهجرين من أبناء الأندلس، داخل المجتمع المصرى، ومدى تكيفهم مع هذا المجتمع والجاليات الأخرى التى كانت تعيش وتتعامل مع هذا المجتمع، سواء الجاليات العربية أو الأوربية.

(ثانياً): الوثائق المتعلقة بالأعمال التجارية والمهنية:

عن طريق هذا النوع من الوثائق، نقف على كثير من الحقائق التى نلقى الضوء على أوضاع المهجرين الأندلسين داخل المجتمع السكندرى، والمهن التى كانوا يشتغلون بها سواء أكانت أعمال تجارية أو مهنية، والتى توضح لنا الوضع

(1) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: محكمة الإسكندرية الشرعية والجزيرة الخضراء – السجل الاول – المرجع السابق،ص 174

(2) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: المرجع السابق، ص174

الاقتصادى الذى أصبح عليه هؤلاءالمهجرون، فقد عمل «الرايس على بن الحاج أبو النصر بن محمد المغربى الأندلسى» فى النقل البحرى ما بين ثغر الإسكندرية وأفريكة»تونس» ذهاباً وإياباً[1]، وكانوا يملكون المراكب الخاصة بهذا النقل البحرى، هذا فضلا عن اشتغالهم بالعمل التجارى فى الأحرمة الصوفية وغيرها من المصنوعات المغربية، فتسجل إحدى الوثائق أن «حموه بن جعفر المغربى الأندلسى» كان يعمل بهذه التجارة[2]، كما أن بعضهم كان يمتلك الحوانيت للعمل فيها بالتجارة بالثغر السكندرى، فمثلا «يوسف ابن يوسف بن عبدالله المغربى الأندلسى»، استأجر حانوتا بسوق باب البحر للانتفاع به فى العمل التجارى لمدة عامين، كما عمل بعضهم بالمتاجرة فى الطيب، والزنجبيل والعمل، وغير ذلك من المواد التى كانت تعرف بالعطارة، والخردة وغيرها[3].

أما الحرف المهنية فتطالعنا النصوص بكثير من الحرف التى كان يشتغل بها المهجرون الأندلسيون، والذين يحملون الألقاب المهنية التى كانت تطلق على المشتغلين بهذه المهن، مثل «معلم»و»أسطى»و»صبى»، وهكذا، فالأسطى «إبراهيم الأندلسى» كان يمتهن حرفة التجارة، مع الحاج عبدالقادر النجار[4] وهلم جرا.

وهكذا يعيننا هذا النوع من وثائق المحاكم الشرعية على فهم جانب من جوانب أوضاع المهجرين الأندلسيين الاقتصادية، وكيف أن أبناء الطوائف المهنية من المصريين أتاحوا لهم فرصة الاشتغال بهذه المهن فى ظل النظام الصارم الذى

---

(1) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء – السجل الأول – المرجع السابق، ص174.

(2) – **دار الوثائق القومية المصرية**: محكمة الإسكندرية الشرعية، س2، بتاريخ 962هـ/ 1555م، ص536

(3) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: محمكة الإسكندرية والجزيرة الخضراء – المرجع السابق، ص175

(4) – **دار الوثائق القومية المصرية**: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س5، ص157.

كانت تفرضه الطوائف على أبنائها والراغبين فى الالتحاق بإحداها، وبخاصة إذا كان الراغب فى الانضمام إلى طائفة من غير أبنائها[1] ومع ذلك فإننا نجد كثيراً من النصوص التى تؤكد حقيقة انضمام أبناء المهجرين الأندلسيين إلى هذه الطوائف المختلفة، مثل التجارة والدولبة فى الحمامات، ومهن النقل والحياكة والخبازة أى صناعة الخبز، والحلاقة، وصناعة الملابس، وغير ذلك من المهن.

(ثالثا): الوثائق الخاصة بشراء، أو بيع، أو امتلاك العقارات وتأجيرها:

هذا النوع من الوثائق يلقى الضوء على جانب أخر من جوانب أوضاع المهجرين الأندلسيين، وكيف أنهم بعد أن استقر بهم المقام فى المدن المصريةن عملوا على أن تكون لهم ملكيتهم الخاصة، سواء فى ملكية العقارات أو وسائل النقل وغيرها، وأنهم أصبح لهم دورهم فى بناء الاقتصاد المصرى، فمثلا»على بن محمد على الأندلسى «، كان يمتلك مركبا، من النوع الذى يسمى «غليون»، وأنه عمل على تجديد هذا المركب وطلائه «جلفطته»، عند شخص رشيدى يدعى «المعلم على بن محمد الفقيه الجلفاط»[2]، وهذا يدل على ملكية الأندلسيين لوسائل النقل البحرى، التى كانوا يشتغلون بها ما بين ثغر الاسكندرية، والثغورالمغربية بالدرجة الأولى.

كما أن النصوص تثبت لنا أن «الحاج سعيد بن محمد بن على المغربى الأندلسى» كان يمتلك الدور والغيطان المنسوبة إليه بالثغر السكندرى، وكان يقوم بتأجيرها والانتفاع بها، كما كان يقوم بتأجير الغيطان عن طريق نظام المشاركة فكان يقوم بتأجير الدار المنسوبة إليه، والكائنة داخل الثغر، من غربه، بالقرب من زاوية المحرس التى كانت تنسب لهذا الأندلسى كذلك، وأنه كان يقوم بمشاكة الحاج منصور بن على بن أحمد المغربى التونسى على زراعة الغيط، الذى كان تابعا للدار،

(1) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء – المرجع السابق،176.

(2) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء – المرجع السابق، ص176.

على أساس تقسيم ما يتحصل من الغيط أثلاثاً، الثلث للحاج منصور بن على بن أحمد بالحقل لريه، والثلث للحاج سعد بن محمد بن على الأندلسى، نظير ملكيته للغيط[1] ومن خلال هذه الوثائق نقف على كثير من الحقائق المتعلقة بالأندلسيين، وكيفية معاملتهم مع أبناء المجتمع السكندرى من المصريين وغيرهم، وعمليات بيعهم وشرائهم للعقارات وغيرها وتأجيرها للعقارات التى كانوا يمتلكونها، وأن ملكية بعضهم كانت كبيرة إلى حد ما، حتى أن بعض الزوايا والحارات داخل الثغر السكندرى، أصبحت تنسب إلى أشخاص من الأندلسيين مثل «زاوية المحرس» التى كانت تنسب للحاج «سعد بن محمد بن على الأندلسى»، السابق الذكر [2]، وأن امتلاكهم لهذا العقارات لهذه العقارات أصبح يدر عليهم دخلا اقتصاديا كبيرا، سواء عن طريق المتاجرة فى هذه العقارات بيعا أو شراء، أو عن طريق تأجيرهم للآخرين مع الاحتفاظ بملكيتها، وهكذا كان للمهجرين الأندلسيين وضعهم الاقتصادى داخل المجتمع المصرى.

(رابعا): الوثائق الخاصة بتسوية النزاعات بين الأندلسيين فيما بينهم، وبينهم وبين الآخرين:

يلقى هذا النوع من وثائق المحاكم الشرعية الضوء على علاقات الأندلسيين بعضهم ببعض، وعلاقاتهم بالفئات الأخرى، التى كانت تعيش داخل المجتمع المصرى، سواء أكانت هذه العلاقات اقتصادية أم اجتماعية، فهى توضح مدى ارتباط الأندلسيين بغيرهم عن طريق المعاملات التجارية أو المهنية، فكثيرا ما كانت النزاعات تثور بينهم وبين غيرهم، حول الديون أو الأجور أو أسعار بعض السلع، أو حول بعض الودائع، وفى أثناء الاحتكام إلى قاضى الشرع، كانت تذكر التفاصيل الكثيرة التى توضع أوضاع المهجرين الاقتصادية والمهنية،

(1) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء، ص177.

(2) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: المرجع السابق، ص177.

والفئات التى كانوا يتعاملون معها من أبناء الجاليات العربية،والأوربية، التى كانت تتواجد بالمجتمع السكندرى وتوضح أسلوب تعامل الأندلسيين مع هذه الفئات، كما أن بعضهم عمل كوكلاء لأشخاص آخرين، وبخاصة من المغاربة، مما يدل على أنهم كانوا يحوزون ثقة أبناء الجالية المغربية المقيمة بالإسكندرية، كما يمكن من خلال هذا النوع من الوثائق تحديد أماكن تواجد هؤلاء الأندلسيين بالإسكندرية، فهى تسجل لنا أسماء بعض الزوايا والحارات الواقعة داخل الثغر السكندرى، أو فى ظاهره، والتى كانت تنسب إلى بعض الأفراد من الأندلسيين، كما تحدد هذه الوثائق موقع هذه الزوايا والحارات وإن كانت فى غالبها توجد فى الجانب الغربى من الثغر[1].

أما عن توضيحها لعلاقات الأندلسيين الاجتماعية بالفئات الأخرى، فعمليات النزاع بين الأزواج حول الصداق ومؤخره، وما تراكم على الأزواج للزوجات من نفقة فمنها يمكن أن يقف الباحث على كيفية ارتباط الأندلسيات بأزواج من الفئات الأخرى، وبخاصة من أبناء الجالية المغربية، وكيف أن الأندلسيات كثيرا ما كانوا يضعون شروطاً قاسية على أزواجهن، خوفا على مستقبلهن، كما أننا نجد أن الأندلسيين كثيرا ما كانوا يتزوجون من بنات الجاليات الأخرى، مغربيات ومصريات، إلى جانب زواج بعضهم بالطبع من الأندلسيات، وهذا يتضح من النزاعات المتعلقة بمثل هذه الزيجات[2]، مما يدل على مدى ارتباط هؤلاء الأندلسيين الاجتماعى بغيرهم من الفئات الاجتماعية الأخرى التى كانت تعيش داخل المجتمع السكندرى، وطبعا ترتب على ذلك تأثرهم بعادات وتقاليد هذه الفئات وتأثيرهم فيها، وبذلك نقف عن طريق هذه الوثائق على جانب

(1) – **دار الوثائق القومية المصرية**: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س8، ص317، بتاريخ 973هـ/ 7فبراير1565م.

(2) – **دار الوثائق: سجلات محكمة الأسكندرية الشرعية**، س2، ص 456، 962هـ / 3يوليه 1555م.

مهم من جوانب أوضاع المهجرين الأندلسيين فى مصر، وهو جانب علاقاتهم الاقتصادية والاجتماعية.

(خامساً): وثائق التركات ومخلفات بعض هؤلاء المهجرين الأندلسيين:

هذه النوع من وثائق المحاكم الشرعية، مصدر هام من مصادر دراسة أوضاع المهجرين الأندلسيين، الاقتصادية والاجتماعية، فهى من الناحية الاقتصادية تحوى تفاصيل كاملة عن تركة المتوفى، من عقارات، وأموال نقدية، وأثاث المنزل، والملابس التى كان يمتلكها المتوفى سواء أكان رجلا أو امرأة، فان الوثائق إلى جانب ذلك تذكر الحلى والأحجار الكريمة التى كانت تمتلكها، وتنص الوثيقة على أصحاب الحق الشرعى فى إرث التركة، ونصيب كل منهم فى هذه التركة، ومنها نقف على حجم الثروات التى كان يمتلكها المهاجرون، والأنشطة الاقتصادية التى كانوا يستثمرون فيها هذه الثروات، والفئات التى كانوا يتعاملون معها، ونوعية التعامل سواء أكان تجاريا، أو مهنيا، فهى تنص على توظيف بعض ثروات هؤلاء المتوفين فى بعض الأنشطة الصناعية والمهنية[1].

أما الناحية الاجتماعية: فهذا النوع من الوثائق جد نافع، فمن خلاله يقف الباحث على العادات والتقاليد التى كان يتبعها هؤلاء المهجرون فى حياتهم الخاصة، وفى تعاملهم مع أبناء المجتمع المصرى، وأبناء الجاليات الأخرى التى كانت تتواجد بالمجتمع المصرى بعامة ومجتمع الإسكندرية بخاصة، كما أن بعضها ينص على كيفية وصول أبناء الجالية

الأندلسية إلى الإسكندرية، وكيف أن بعضهم وقع فى الأسر «على يد نصارى» وكيف أنهم عملوا على افتداء أنفسهم باقتراض بعض النقود من أبناء» جزيرة جربة» التى كانت دائما تتم فيها عملية الافتداء التى كانت دائما تتم فيها

(1) – **دار الوثائق القومية: محكمة الأسكندرية الشرعية**، س4، ص253، بتاريخ973هـ / 1564م.

عملية الافتداء، فلما توفى هؤلاء طالب الدائنون الورثة بمالهم فى ذمة المتوفين، وكذلك عن طريق هذه الوثائق، يظهر مدى اندماج هؤلاء الأندلسيين اجتماعيا مع أبناء المجتمع عن طريق التزواج مع الجاليات الأخرى[1]، وبخاصة الجالية المغربية، وواضح تماما أنهم كانوا منفتحين على بقية طوائف المجتمع، ولم يحاولوا أن يفرضوا على أنفسهم عزلة اجتماعية.

ثالثاً أثر المهجرين الأندلسيين فى المجتمع المصرى: اقتصاديا، واجتماعيا، وثقافيا

من العرض السابق لوثائق محكمة الإسكندرية الشرعية – كنموذج لما يحويه أرشيف المحاكم الشرعية المصرية من وثائق، تعتبر مصدرا من المصادر الرئيسية لدراسة أوضاع المهجرين الأندلسيين، الذين أموا بلاد المشرق العربى – ومنها مصر – نستطيع أن نؤكد أن هؤلاء المهجرين كان لهم تأثيرهم فى المجتمع المصرى، اقتصاديا واجتماعيا وثقافيا.

ففى الناحية الاقتصادية: ثبت لنا أنهم عملوا فى المجالات الاقتصادية المختلفة التجارية، والزراعية، واشتغلوا بالمهن المختلفة، ووظفوا رءوس أموالهم فى مختلف المجالات الاقتصادية، ولعبوا دورهم فى الحياة الاقتصادية المصرية خلال العصر العثمانى الأول(1517 – 1798م)، ولاشك أنه كان لهذا النشاط الاقتصادى أثره على المجتمع المصرى، مما قوى روابطهم بهذا المجتمع، وجعلهم يتعايشون مع أبنائه اقتصاديا، وبرزت آثارهم الاقتصادية فيه[2].

أما من الناحية الاجتماعية: فقد سبقت الإشارة الى اندماج هؤلاء الأندلسيين اجتماعيا مع أبناء المجتمع المصرى، وأبناء الجاليات الأخرى المتواجدة فيه

(1) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: المرجع السابق، ص177.

(2) – **عبدالرحيم عبالرحمن**: محكمة الأسكندرية الشرعية والجزيرة الخضراء – المرجع السابق، ص178.

واختلاطهم بجميع هذه الفئات عن طريق التزواج من ناحية، والاندماج معها عن طريق التعامل اليومى، والاشتراك فى الأعمال المختلفة المهنية وغيرها، وتأثرهم بتقاليد وعادات هذه الفئات، ونشر بعض عاداتهم وتقاليدهم، التى أتوا بها من بلادهم بين أبناء المجتمع المصرى، إلى حد تأثر المجتمع السكندرى بالذات بكثير من العادات والتقاليد الأندلسية والمغربية التى لاتزال قائمة حتى يومنا هذا[1].

أما الأثر الثقافى: فهذا واقع ملموس لايزال قائم حتى اليوم، فالثقافة الصوفية التى انتشرت فى الإسكندرية، كانت على يد متصوفة أندلسيين، وكم علم هؤلاء المتصوفة من أجيال، من أبناء المجتمع السكندرى، وجميع مقامات الأولياء الصالحين القائمة فى الإسكندرية، لأولياء من أقطاب المتصوفة الأندلسيين، ومما يدل على تأثير هؤلاء المهجرين الأندلسيين، أن اللهجة الأندلسية المغربية لاتزال غالبة على أبناء المجتمع السكندرى[2]، هكذا نرى أنه كان لأبناء الأندلس الذين أتوا مصر منذ مطلع القرن السادس عشر، على أثر انهيار الدولة الإسلامية فيها عام 1492م، تأثيرهم على مختلف نواحى الحياة فى المجتمع المصرى بعامة، ومجتمع الإسكندرية بصفة خاصة.

(1) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: المجلة التاريخية المغربية، عدد (10 – 11)، يناير 1978، ص67.

(2) – **عبدالرحيم عبدالرحمن**: المجلة التاريخية – المرجع السابق، ص64 – 67.

المأساة الثالثة عشر:
مبـاركة الطـرد باسم الـرب

مذكرة حول طرد الموريسكيين والوسائل اللازمة معالجة الوضع فى المملكة أرسلها إلى البلاط الملكى الأب سوبرينو فى سبتمبر 1609م [1].

باسـم الرب

سيـدى: أمس أطلعنى السيد كونت كاستيار على مذكرة يرسلها إلى جلالتكم وفحواها أن طرد الموريسكيين سيكون سبباً فى خراب المملكة، وقد أسس رأيه على أن الحياة فى الممالك تقوم على الخدمات التي يؤديها الموريسكيين، فإذا طردوا فستتوقف إيرادات السادة والقساوسة والتجار، ولن تكون هناك تبرعات للفقراء والمستشفيات والكنائس، وستتوقف الحرف الميكانيكية، وبناء على هذا فإن الحياة فى جميع أنحاء المملكة ستتوقف. تفترض المذكرة أن جلالتكم لم تكونوا على علم بكل ذلك حين اتخذتم قراركم، وتخلص المذكرة إلى القول بأنه ليس من المناسب تنفيذ قرار طرد الموريسكيين تجنباً لكل هذه الأضرار.

– وعلى العكس فإنه يقول إن القرار الذي اتخذه صاحب الجلالة قرار حتمى، ورغم أن القرار يستند إلى مصلحة الدولة العليا، فإننى أرى (كما كتبت بالأمس إلى سيادتكم) أنه قرار السماء التي يرتفع إليها دعاء من المملكة يطلب الإنتقام، والعناية الإلهية بدلاً من أن تمطر غضباً تمطر رحمة، وتكتفى بأن نتوب عن ذنوبنا، ونتخلص من أذى قبيح سمح به صبرها. الذي تسامح إزاء شرور الموريسكيين،

(1) – **مرثيدس غارثيا**: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط 1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة 2003. ص225 – 227.

الذين كانوا يتمتعون بحماية سادتهم والذين يبدو لهم أن السادة لن يستطيعوا العيش بدونهم، وأن الملك والبابا لن يستطيعوا المساس بهم، ويبدو أنهم يستندون إلى شيئ ما، فإذا تحدثنا عن إخلاص النبلاء المحمود للملك فسنرى ما يرون و(ستتفهم) محاولتهم الاحتفاظ برعاياهم.

من المؤكد أنه لو تحول الموريسكيون حقيقة إلى المسيحية فى ظروف صعبة كهذه فإن ذلك سيكون غاية ما نتمناه – لكنهم حتى لو تحولوا إلى المسيحية حقيقة فإننا لن نكون متأكدين من أنهم لن يتراجعوا إذا ما طلب الأعداء الخارجيون مساعدتهم – بل سيتمردون إشباعاً لرغبتهم فى السيطرة على إسبانيا، ونظراً لحبهم المتأصل فى العيش كمسلمين فهم مغرمون بشريعتهم، ولهذا فأنا أعتقد أنهم لا يريدون أن يكونوا مسيحيين، ولا جلالة الملك سيقبل عرضهم إذا تقدموا به، ولذلك فإن قرار الطرد حتمى لا رجعة فيه. ولكى تهدأ النفوس الحزينة فى هذه المملكة فقد أمرتم يا جلالة الملك بمنحهم الأمن والفرح والسلوى، وأنا على يقين من أنكم ستستخرجون من صفاء ذهنكم ومن حكمتكم المنطق الذي تطمئنون به قلوب أبنائهم، بل وتملأونها بالسلوى.

إننى أرى أن الحديث عن خراب المملكة بعد طرد الموريسكيين حديث منطقى لو أنهم سيحملون معهم أشجار الزيتون والكروم والأراضى والمزارع. أما وإن أراضى المملكة التي وهبتنا السماء إياها ستبقى فلن نموت، يقولون إنه حتى لو أقام فى المملكة أناس آخرون فسيحل الخراب أيضاً. ولملئ الفراغ فمن المناسب جلب مواطنين من قشتالة، وأراغون، ونابار، وإغرائهم بالحديث عن خصوبة الأراضى واعتدال المناخ وجمال الحياة وإننى أرى أنه لن يأتى الفقراء المحتاجون فقط. بل سيأتى أيضاً أولئك الذين يرغبون فى تحسين جودة أراضيهم، أو التخلص من أعباء الضرائب، والله سيجلب الناس إلينا وسيملأ هؤلاء المسيحيين القدامى جزءاً كبيراً من الفراغ. وسيرى السادة أن قراهم قد امتلأت بالرعايا المخلصين، وهكذا سيجعلهم الله أكقر سعادة وثراءً، وسنسير فى المملكة

دون أن نخشى هجوم المسلمين براً وبحراً (فعندما لا يكون للأعداء أعوان هنا فلن يأتوا) وسنعبد الله، وسيرى أعداء إسبانيا الذين يأملون فى وضع أقدامهم هنا بمعاونة هؤلاء اللصوص أن الأمر ليس له علاج. هذا بالإضافة إلى خيرات كثيرة، رغم أننا قد نخسر شيئاً. ألا تزال مملكة غرناطة قائمة وقد حدث فيها نفس الشيئ بالأمس؟ لم يمت السادة ولا الرعايا، ولا القساوسة، ولا رجال الدين، ولا التجار، ولم تهلك المزارع.

– يقولون إن من أنفقوا أموالهم على الجماعات، ويعيشون على إيرادها سيخسرون برحيل الموريسكيين. أقول إن كل من يطلبون تعويضاً مقابل هذا الضرر، سيعوضهم مندوب الملك عن خسارتهم من نقود وأثاث الموريسكيين بحيث يشترون الدواب ريثما يصل السكان الجدد ويشتغلون فى الأراضى ويحفظونها، والأهم من ذلك كله – كما أقر المجلس الملكى – أن تظل هيبة السادة وشرفهم محفوظين، ولكى يحدث ذلك فهناك أمران:

* **أولهما**: ألا يغضب الله كما كان يحدث مع هؤلاء الرعاع.

* **ثانيهما**: أن يُطاع الله وتُحترم قوانينه فى كل هذه الممالك.

من هنا المأساة....

أن تفرض فكرك وعقيدتك بالقوة وبالقتل والتشريد وتظن أن هذا الإصلاح وأن مفاتيح الجنة أنت من تملكها، فكان رجال الكنيسة يظنون ذلك تجاه الموريسكيين فلذلك استخدموا كل وسائل التعذيب والاضطهاد ليأخذوا هذا الشعب معهم إلى الجنة كما يظنون.... أي عقل يقبل هذا الفكر المبني على الجهل والدليل ما ذكروه لأصدار مذكرة الطرد في حق هذا الشعب فقالوا: هكذا نفوز بشيء آخر هو العناية الإلهية لمن يحبون الله ويطيعونه، أما من يعصونه فسيرسل عليهم النكبات والعقاب... إن كل الكتاب المقدس يحفل بالإشارة إلى أن الذنوب والمعاصى تجلب الخراب والضياع، وأن السعادة الحقيقية إنما هى مع حب الله

وطاعته، إن من يقولون إنهم يخشون أن ينتقم الله من عملية الطرد يجب أن يخشوا شيئاً أكبر لو بقى الموريسكيين - عسى الرب أن تمضى العملية كما نتمنى، وأن يحفظكم لنا. خادمكم الراهب أنطونيو سوبرينو 21 سبتمبر 1609م».

من هنا المأساة....

أن يكون التطرف نابع من رجال الدين بدلا من أن يكون التسامح والحسنة، فقال الله تعالي في كتابه (ادْعُ إِلَىٰ سَبِيلِ رَبِّكَ بِالْحِكْمَةِ وَالْمَوْعِظَةِ الْحَسَنَةِ وَجَادِلْهُم بِالَّتِي هِيَ أَحْسَنُ إِنَّ رَبَّكَ هُوَ أَعْلَمُ بِمَن ضَلَّ عَن سَبِيلِهِ وَهُوَ أَعْلَمُ بِالْمُهْتَدِينَ - النحل - 125)، فهنا يكمن الفرق بين الإسلام وغيره، هنا يكمن الاعتدال في الدين الإسلامي عن غيره، فكانت حضارة الإسلام حضارة إنسانية أما حضارة الغرب اليوم هي حضارة مادية بحتة، ولعل لنا في فيروس كورونا مثال، حيث تخلت الكثير من الدول عن شعوبها، من أجل بقاء قوتها ووجودها، فهذا ليس عجيب على الغرب بأن يضهد ويهرب غيره بل يجبره على ترك دينه والإيمان بمعتقده هو، بحجة أنه الصالح والذي يأخذه إلى الجنة، كأنهم هم فقط من يمتلكون مفاتيح الجنة، فاليوم بنفس المبدأ نجد الصراع الرأسمالي الاشتراكي فمن لم يساند أي من هذه الأيدلوجيات ضعيف ومتخلف بل يداس عليه باسم القوى الدولية، عالم لا تحكمه مبادىء بل تحكمه مصالح، فمن المأسي أن يدخل الدين في السياسة من أجل السيطرة لا من أجل الإصلاح، وهذا ما نراه بأعيوننا اليوم سواء في الشرق أو في الغرب، ما أسوء أن يذهب رجل الدين لرجل السياسة ليكب مكانة لديه لا من أجل أن يقول الحق ويعليه، فعندما يفسد رجال الدين يفسد الحكم والسياسة وأخلاق العامة، بل تظلم وتسبد الشعوب وتنهب ثرواتها باسم الدين وبمباركة رجاله الفاسدين، فكان شعب الأندلس ضحية لتطرف وفساد رجال الدين، واليوم نرى الكثير من الشعوب الإسلامية والشرق أوسطية تعاني من نفس هذا المرض ويكون هو أيضًا سببا في دمارها، فهل من معتبر يا قارىء التاريخ وكاتبه.

المأساة الرابعة عشر:
رسالة ملكية بالطرد النهائي

قرار طرد موريسكيى فالنسيا أعلن فى فالنسيا فى 22 سبتمبر 1609من صاحب الجلالة الملك[1]:

– وباسمه السيد لويس كاريو دى توليدو ماركيز كاراثينا وسيد مدن بنتو وأنيس..... والقائد العام لهذه المدينة ومملكة فالنسيا والنائب عن جلالة الملك.

– إلى السادة والأساقفة، والقضاة، وممثلى المدن والقرى، والحكام، ومندوبى جلالة الملك والمواطنين، خاصة مواطنى هذه المملكة.

– جاء فى رسالة ملكية من صاحب الجلالة مؤرخة فى 4 أغسطس الماضى من هذا العام، وموقعة من سكرتيره أندريس دى برادا:

– إلى ابن عمى: ماركيز كاراثينا والقائد العام لمملكة فالنسيا.

– قد علمت أننى على مدى سنوات طويلة حاولت تنصير موريسكى هذه المملكة ومملكة قشتالة، كما علمت بقرارات العفو التي صدرت لصالحهم والإجراءات التي اتخذت لتعليمهم ديننا المقدس، وقلة الفائدة الناتجة من كل هذا، فقد لاحظنا أنه لم يتنصر أحد، بل زاد عنادهم. ورغم الخطر والأضرار التي تترتب على استعمال السياسة معهم إلا أنه منذ أيام ألتقيت بكثير من العلماء والمتدينين، وقد رجونى أن أعالج موضوع الموريسكيين بما يرضى ربنا – الذي اشتد غضبه على الموريسكيين – وأكدوا لى أنه يمكن معاقبة الموريسكيين فى

(1) – **مرثيدس غارثيا**: الموريسكيون، المرجع السابق، ص229 – 232.

أموالهم وأشخاصهم، لأن الاستمرار فى ارتكاب الجرائم يؤكد أنهم ملحدون، لا يحترمون الله ولا الانسان، ورغم أنه كان بالإمكان معاقبتهم كما تستحق جرائمهم إلا أننى إزاء الرغبة فى إتباع اللين معهم أمرت بعقد إجتماع اللجنة فى هذه المدينة، والتي حضرتموها أنتم والبطريرك وقساوسة آخرون وأشخاص مثقفون للنظر فيما إذا كان من الممكن تجنب طرد الموريسكيين من هذه الممالك. لكننى علمت أن أهل قشتالة مستمرون فى محاولتهم الضارة. فهمت من مصادر مؤكدة أنهم حاولوا - ويحاولون - من خلال سفرائهم، ومن خلال طرق أخرى الإضرار ببلادنا، ورغبة من فى القيام بواجبى نحو الحفاظ على أمن البلاد - خاصة مملكة فالنسيا، ونحو رعاياها المخلصين لأن الخطر أقرب إليهم... فقد قررت طرد كل موريسكى من هذه المملكة، ونفيهم إلى بلاد البربر.

- ولكى يتم تنفيذ هذا القرار، وأموامر صاحب الجلالة فقد أمرنا بنشر القرار التالى:

1 - يخرج كل موريسكيى هذه المملكة - رجالاً ونساءاً - وأبناؤهم كذلك، ومن فالنسيا فى خلال ثلاثة أيام اعتباراً من نشر هذا القرار فى الأماكن التي يعيشون فيها، ويذهب الجميع إلى حيث يستقلون السفينة فى الميناء الذي يحدده المفوض، ويحمل كل موريسكى كل ما يستطيع من أمتعة شخصية، ويستقل المركب أو السفينة التي تحمله إلى بلاد البربر فينزل منها دون أن يتعرض لسوء المعاملة أو المضايقات، وننبه إلى أننا سنوفر لكل منهم ما يحتاجه من ملابس خلال الرحلة، وبإمكان كل واحد منهم أن يحمل ما يستطيع، ومن لا ينفذ هذا البند ويخالف هذا القرار يتعرض لعقوبة الإعدام التي ستنفذ لا محالة.

2 - أى موريسكى - بعد نشر القرار ومرور ثلاثة أيام على نشره - يتواجد خارج محل إقامته أو فى الطرقات قبل إبحار السفينة، يستطيع أى شخص إلقاء القبض عليه، وتجريده من متاعه، وتسليمه إلى العدالة فى أقرب مكان، وإذا دافع الموريسكى عن نفسه فبإمكان المواطن أن يقتله دون أن يتعرض لعقوبة.

3 – بعد نشر القرار يُحظر على الموريسكى مغادرة محل إقامته إلى مكان آخر، بل يظل فى مكانه حتى يصل إلى القرية المفوض الذي يقتادهم إلى السفينة.

4 – أى موريسكى يدفن متاعاً له، أو يخفيه – لأنه لا يستطيع أن يحملة مع، أو يضرم فيه النار أو يتلف الزرع أو الأشجار أو البيوت توقع عليه عقوبة الإعدام، ويقوم بتنفيذها المواطنون المقيمون فى موقع ارتكاب الجريم. نأمر بذلك لأن صاحب الجلالة قد تفضل بمنح سادة الموريسكيين الأمتعة التي لا يستطيع حملها معهم.

5 – من أجل الحفاظ على البيوت وعلى محصول الأرز، وإبلاغ ذلك إلى السكان الجدد، استجاب صاحب الجلالة لطلبنا، وقرر بقاء ستة أفراد بعائلاتهم فى كل قرية بها مائة بيت، على أن يقوم سادة الرعايا باختيار الأفراد الذين سيبقون فى القرى التابعة لصاحب الجلالة فسنقوم نحن باختيارهم، وننبه إلى أنه يفضل أن يكون الأشخاص الذين سيبقون من كبار السن، وأن تكون حرفتهم الوحيدة هى الزراعة، وأن يكونوا قد أبدوا ميلاً إلى إتباع المسيحية.

6 – لا يقوم أحد المسيحيين القدامى أو الجنود بإساءة معاملة الموريسكيين أو إيذائهم باللفظ، أو الإضرار بممتلكاتهم أو بزوجاتهم وأبنائهم.

7 – يجب ألا يُخفى أحد فى بيته موريسكياً، ولا يساعده على الإختفاء وإلا عُوقب من يفعل ذلك بالسجن لمدة ست سنوات، وبعقوبات أخرى نراها.

8 – لكى يفهم الموريسكيين أن رغبة جلالة الملك هى طردهم من البلاد، وأنه لن يقع عليهم إيذاء أثناء السفر، وأنهم سينقلون إلى بلاد البربر – فإننا نسمح بعودة عشرة أشخاص من الذين سافروا مع الفوج الأول لكى يخبروا الآخرين بذلك، ونسمح بأن يتم ذلك مع كل فوج،

ونأمر بأن يبلغ ذلك إلى قباطنة السفن لكى يأمروا به، ولكى يحُولوا دون أن يقوم الجنود والبحارة بإيذاء الموريسكيين باللفظ أو بالفعل.

9 – الصبية دون الرابعة عشرة الذين يفضلون البقاء، ويوافق أولياء أمورهم على ذلك لا يُطردون.

10 – الأطفال دون السادسة من أبناء المسيحيين القدامى يبقون فى إسبانيا، وتبقى أمهاتهم معهم حتى لو كن موريسكيات، أما إذا كان الأب موريسكى والأم مسيحية قديمة فسيُطرد الأب، ويبقى الأطفال دون السادسة مع أمهم.

12 – يبقى أيضاً الأشخاص الذين عاشوا مدة عامين بين مسيحيين قدامى، ولم يحضروا اجتماعات موريسكية.

من هنا المأساة....

أن تطرد شعب كاملًا من أرضه وتسلب ماله وذاته بل تسلب منه فلذة قلبه ولده، كل ذلك من أجل تطرفك الديني، كل ذلك من أجل فرض دينك ومذهبك عليه بالقوة والإجبار، فأين هنا تسامح الأديان..... أين هنا تسامح الدين المسيحي..... أين هنا تسامح رجال الدين؟ بل المأساة الأكبر أن من يقود هذا التطرف آنذاك هم رجال الدين ذاتهم تحت رعاية السلطة والكنيسة، فهل هذه هي دعوة الرب لكم، بأن تجبر إنسان أن يتخلي عن وطنه عن ذاته عن روحه عن ماله عن ذكرياته عن أصله حضارته، هل دعوة الرب إليكم هي الطرد والتشريد لكل من لايقبل الدين؟... أظن لا أنها دعوة متسامحة في كل الأديان، إنما من يحولها لمصالح ذاتية ومنفعة شخصية دوما فساد رجل السياسة بدعم وفساد رجل الدين، فطرد الموريسكيين سبب خسائر اقتصادية لإسبانيا، سبب فراغ حضاري، ولكن التطرف الفكري والعقدي شرد شعب كامل بسبب تطرف السلطة وفساد وجهل رجل الدين، ولعل نرى هذه المأساة في شعب سوريا حيث يريد الحاكم بمعاونة النظام الخامئني الشيعي فرض التشيع على الشعب بل على دول الجوار، فطرد شعب عندما قاوم وترك أرضه وماله، بل في إيران نفسها أعدم الألاف من سنة الأحواز رغم أنهم أصل إيران، ومناطق ثرواتها، يبقى السؤال هل الدين فعلا الدافع وراء مثل هذه التصرفات المتطرفة أم مصلحة فئة معينة من أجل

سيطرة ومصالح اقتصادية... فيكون العنوان لهذه التصرفات الطرد باسم الرب والدين، ولكن الله في كل الأديان برىء من كل تصرفات الحمقى، الأديان بريئة من تطرفات رجال الدين، فالمنهج سليم ولكن الفساد يكمن في القائمين عليه والمتحدثين باسم رجال الدين، فدومًا السمكة تفسد من رأسها، فكذلك السياسة أم تصلح من الرأس أو تفسد من الرأس.

من هنا المأساة....

أن تتكرر أدوات وطرق الأذلال لكثير من الشعوب الإسلامية وبنفس المنطق، ولكن ما زلنا نشاهد بصمت، كأن ذنب هؤلاء هو دخولهم الإسلام، ولكن من جمال هذه العقيدة ومتانتها نجد أن كل من يدخل فيها يترك روحه ولا يترك دينه الإسلامي، فالموريسكيين نكل بهم وعذبوا وطردوا ولم يتزحزحوا عن دينهم لحظة، بل تحايلوا على السلطة بالتظاهر بأنهم مسيحيين، ولكن في الحقيقة بنوا السرادين لأقامة الصلوات، أخترعوا لغة الأخميادوا ليعلموا الفقه لأولادهم دون أن تدري محاكم التفتيش ما هذه اللغة.... أنها العربية مكتوبة بحروف إسبانية، وعندما علمت السلطة والكنيسة، ونفذت كل المحاولات لتنصير هذا الشعب أو المسيحيين الجدد كما كانوا يسمونهم قاموا بطردهم، فكان طرد شعب الموريسكيين لسبب ديني، فليعلم هؤلاء أن الأديان والشرائع جاءت لخدمة الإنسان والبشرية لا أن تكون سببًا في تشريده وظلمه.

فالمأساة الأن والمستمرة بيننا وفي عصرنا الواقع أن الكثير يستخدم الدين لأ من أجل الدين والإصلاح إنما من أجل كسب ود الشعوب لمصالح سيساسية أو مكاسب شخصية، ولنا في الحروب الصليبية مثال وفي الصهيونية مثال أكبر وفي حلم التمدد الشيعي خير دليل، وللأسف الشديد ما زالت الشعوب في الشرق والغرب تصدق هتافات رجال السياسة بالدين وبالرب، فيكونا هما الضحايا ووقود هذه الحروب، فصدق من قال: «أن الدين أفيون الشعوب».... فهل من معتبر يا قارىء التاريخ وكاتبه؟

الخاتمة:

لم تكتفي السلطات في إسبانيا بما فعله اجداداهم الأوائل من جرائم إبادة وتهجير قصري بحق مسلمي دولة الأندلس المعروفين بالموريسكيين، والذين تعرضوا للتعذيب والطرد بعد سقوط غرناطه اخر معاقل المسلمين في الأندلس في عام 1492، فعادت في الوقت الحاضر لتفتح هذا الجرح الغائر مره اخرى بسن تشريعات وقوانين من شأنها ان تزيد من مآسي أحفاد المسلمين الاندلسيين بشكل كبير.

فبعد المآسي التي لحقت بالموريسكيي المسلم على يد المؤسسه الكنسية والملكية في إسبانيا في الماضي جاء الدور على المؤسسة التشريعية في الوقت الحاضر حيث صادق البرلمان الإسباني مؤخرا على تعديل للقانون المدني الإسباني مكن أحفاد ضحايا التهجير القسري من اليهود السفارديم من الحصول على الجنسية الإسبانية مستثنياً غيرهم من ملايين المورسيكيين المسلمين الذين تحملوا نفس الألم وعاشوا ويلات تلك المأساة، وذلك فقط لأنهم مسلمين، فالقوة تحرك القرارات الدولية، والضعف يجعل الشعب أقلية حتى على أرض وطنه، فتسلب خيراته وهويته ويشكك في عقيدته عندما يفقد قوتها وقوة قراره السياسي، فهذا ما حدث مع الموريسكيين قديماً ويتكرر اليوم في واقعنا المعاصر.

وقد لاقى هذا التشريع الانتقائي ردود فعل غاضبة في عدد من الدول والمؤسسات المعنية بحفظ حقوق وتاريخ الموريسكين، ففي المغرب وهي احد البلدان التي استقبلت موجات كبيرة من الاندلسيين المهجرين، شنت مؤسسة ذاكرة الاندلسيين والتي تعني لي بحفظ تاريخ وتراث المغاربة المنحدرين من أصل موريسكي، هجوماً حاداً على قرار البرلمان الإسباني واعتبرت انه تصرف عنصري ينم عن فكر تمييزي مخالف للشرائع الدولية المانعة لكل أشكال التمييز حتى تلك

المبنية على أساس ديني حسب وصف المنظمة. ومع أن المؤسسة قد رحبت بخطوة البرلمان الإسباني من حيث إنها خطوه تصحيحية من شأنها التكفير عن المأساة التاريخية التي تسبب بها الإسبان بحق اليهود السفارديم، لكنها انتقدت تجاهل هذة الخطوة التشريعية الجرائم نفسها التي ارتكبتها السلطات الإسبانية في حق مواطنيها الموريسكيين والذين طردوا ظلما بشكل جماعي يكاد يتطابق مع تلك الطريقة التي طرد بها اليهود السفارديم (تقرير عن cnn العربية عن الموريسكيين).

كما ويرى البعض عدم دستورية هذا التعديل التشريعي الذي قام به البرلمان الإسباني والذي ينص على إمكانية منح الجنسية الإسبانية لليهود السفارديم بمجرد انحداره من يهود الأندلس المهجرين منذ عام 1492 بغض النظر عن إقامته لمدة معينة على التراب الإسباني وهو مايخالف بنود الدستور الإسباني الذي ينص على أن إسبانيا دوله لادينية اي انها لاتعتمد على الدين كمعيار في تقييم ومنح المواطنة.

وقد أكد على نفس هذه الفكرة محمد نجيب رئيس مؤسسة ذاكرة الاندلسيين بالمغرب، حيث أشار في ندوة بالرباط حول التأصيل القانوني لقضية الموريسكين إلى أنه من الايجابي ان تقوم إسبانيا بعملية تصحيحية لجرم اقترافته في حق شريحة من مواطنيها لكنها لايمكن أن تتوقف حصرا عند اليهود وإلا كانت في وضع مناف للشرائع الدولية.

وعلى الجانب الآخر تم تبرير استفادة اليهود السفارديم من هذا التعديل التشريعي دون غيرهم من أبناء الأندلس الذين لاقوا نفس المصير بأن السفارديم قد حافظوا على الرابط اللغوي مع الأندلس من خلال لهجة اللادينو، إلا ان هذا لايمكن أن يصلح دليلاً او تبريرا كافياً يسمح بمرور هذا التشريع دون ابداء اي اعتراضات، وذلك لوجود روابط ثقافية قويه حافظ عليها الموريسكيون المسلمون على مدى قرون بداء باسمائهم العائلية التي تحيل إلى أماكن وأسر مازالت شواهدها قائمة حتى اليوم، فضلا عن التراث الموسيقى الأندلسي والنمط المعماري وغيرها

من الأمور. وعليه فالاعتماد على عامل اللغة كمعيار وحيد لتبرير حصر الجنسية على اليهود السفارديم دون غيرهم هو مجرد تحايل لتغطية التمييز والعنصرية في التعامل بين فئتين تشاركا نفس المعاناة وواجها نفس المصير.

وفي تعليق على هذا الجدل الذي أثاره التعديل التشريعي البرلماني، قال الباحث المغربي المختص في الشؤون الاسبانية، نبيل دريوش، إن التمييز يبدو واضحا في تعامل الدولة الاسبانية مع إرث مرحلة الاسترداد، فرغم أن اليهود السفارديم كانوا أول من لحقته موجة التنكيل والطرد الجماعي عام 1492 على يد الملكة ايزابيل وزوجها فيرديناند ولم يلحق ذلك المسلمين إلا عام 1609 على يد الملك فليبي الثالث حفيد الملكين الكاثوليكيين، إلا أن الإجحاف الذي لحق المسلمين يعدّ أكثر بكثير ممّا لحق اليهود، كما أن أعداد المسلمين كانت أكبر بكثير(تقرير عن cnnالعربية عن الموريسكيين).

ويضيف الباحث بقوله ان إسبانيا قررت التعامل مع اليهود من باب المصلحة لا بواجب تصفية التركة التاريخية لحقبة سوداء، فاليهود اليوم هم اقلية موزعون على دول مثل أمريكا وفرنسا وإسرائيل وبعضهم يعد لوبيا متحكما في دواليب القرارت الدولية وبعض الشركات العالمية الكبرى، وحملهم للجنسية الإسبانية لن يكون ثقلا على مدريد، عكس الملف الموريسكي، فالموريسكيون يزيد عددهم اليوم عن 5 مليون شخص يوجد معظمهم في المغرب ثم الجزائر وتونس وتركيا ومالي، وتصفية مثل هذه التركة يطرح اشكاليات مازالت الدولة الاسبانية تفتقد للشجاعة اللازمة للغوص فيهاوفي نهاية الأمر طالب عدد كبير من الباحثين على مستوى الدول والمؤسسات المعنية بقضايا الموريسكين، بضرورة احترام السلطات الإسبانية لمقتضات الدستور الاسباني لسنة 1978 الذي ينص على ان إسبانيا دولة لا دينية. بمعنى أنه لا يمكن اعتبار الانتماء الديني قاعدة محددة للانتماء الى الوطن الاسباني، وهو ما يلزم المشرعين الاسبان باعادة النظر في صياغة القانون، مؤكدًا أن على اسبانيا أن تضطلع بواجب الذاكرة تجاه الموريسكيين كما قامت به تجاه ضحايا

الحرب الاهلية وسن قانون يتعلق بذاكرة الأندلسيين ومنع الاحتفاليات الرسمية التي تمجد عمليات القمع والطرد التي ذهبت باكثر من 600 الف موريسكي وتجريم الكتابات والتصريحات التي تعلل الطرد أو تشيد به أو تشكك في حجمه.

ومن هنا نجد أن شعب الموريسكيين أصبح أقلية في وطنه الأصلي إسبانيا وكذلك في كل بلاد المهجر التي هجر إليها فمن وحهة نظرى أنها أعظم مأساة لشعب في العصر الحديث تحتاج إلى العديد من الدراسات والمحاولات القانونية حتى يعود هذا الشعب لوطنه الإسباني مرة أخرى، حيث أن السبب في هذه المأساة الجهل من قبل الكنيسة ومحاكم التفتيش وضيق فكر السلطة الحاكمة في إسبانيا آنذاك، فوجب على أجيال وأقليات المسلمين في كل مكان أن تتعلم وتعي درس شعب الموريسكيين جيدًا، فهل من معتبر يا قارىء التاريخ؟

المصادر والمراجع

[1] انظر: عبداللطيف مشرف: هجرات الموريسكيين، دار الربيع العربي، ط1، القاهرة 2017؛ موسوعة المعرفة الأندلسية: من هو الموريسكي؛ ليونارد باتريك هارفي: الحضارة العربية الإسلامية في الأندلس، ج1، مركز دراسات الوحدة العربية، ط2، بيروت 1999.

[2] ليونارد باتريك هارفي: الحضارة العربية الإسلامية.

[3] مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات: من هو الموريسكي، موقع المعرفة الأندلسية.

[4] https: / /www.noonpost.com /content /21790 – مقال منشور في عدة صحف ومواقع إلكترونية – بقلم: عبداللطيف مشرف – نون بوست – الموريسكيون صفحات من قضايا التاريخ المنسي.

[5] – عبداللطيف مشرف: الفرق بين الموريسكي والمدجن، ساسة بوست، https: / /www.sasapost.com /opinion /the – hidden – history/

[6] عبداللطيف عبدالغني مشرف: ابن حيان مؤرخ الأندلس وصف تداعيات سقوط العرب قديمًا وحديثًا، نون بوست. https: / /www.noonpost.com /content /26551

[7]عبداللطيف مشرف: قراءة ونقد معاهدة سقوط غرناطة آخر معاقل المسلمين في الأندلس فصول من الخيانة، ساسة بوست https: / /www.sasapost.com /opinion /end – of – granada/

[8] عبداللطيف مشرف: مواقف حكام المغرب العربي من الأندلس حتى

سقوطها، ساسة بوست. - https: / /www.sasapost.com /opinion /the
positions - of - the - rulers - of - morocco - from - andalusia -
/between - the - answer - and - disintegration

[9] عبداللطيف مشرف: مواقف المماليك والعثمانيين وتبخر حلم الأندلس، مجلة شجون عربية، مركز بيروت لدراسات الشرق الأوسط، https: / /arabiyaa.
d8%.a7%.-81%.82%.d9%.88%.d8%.a7%.d9%.85%.d9%.com /articles /%.d9
d9%. - 83%.8a%.d9%.84%.d9%.85%.d8%.a7%.d9%.85%.d9%.84%.d9%.%.d9
86%.d%.85%.d8%.a7%.d9%.84%.d8%.b9%.d8%.ab%.d9%.88%.d8%.a7%.d9%.
88%.d8%.aa%.d8%.a8%.d8%.ae%.d8%.b1%.d9%. - 86%.8a%.d9%.8a%.d9%.9
85%.84%.d9%.- %.d8%.ad%.d9

[10] انظر: محمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس، 7/ 254، 265؛ المقري: نفح الطيب، 4/ 524 - 527؛ راغب السرجاني: موسى ابن غسان، موقع قصة الإسلام.

[11] انظر: مجهول نبذة العصر ص119 وما بعدها؛ ومحمد عبد الله عنان: دولة الإسلام في الأندلس 7/ 245 وما بعدها؛ مروان خنفر: موسى ابن غسان، موقع فنجان.

[12] انظر: مروان خنفر: موسى ابن غسان، موقع فنجان؛ مؤلف مجهول: نبذة العصر ص121 وما بعدها.

[13] عبداللطيف مشرف: ثورة البشرات ما بين عريضة المثقف مولاي وتعسف الملك فيليب الثاني وظلمه، موقع ساسة بوست، https: / /www.
/sasapost.com /opinion /albasharat - revolution - in - andalusia

[14] - حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي، دار الهدى، الجزائر2010، ص94.

[15] – ليلى الصباغ: ثورة مسلمي غرناطة عام 976هـ أواخر عام 1568م والدولة العثمانية، مجلة الأصالة، عدد27، الجزائر، 1975م، ص117. ولقد ذكرت ما أورده المقري: أزهار الرياض، المصدر السابق، ص109

سلام كريم دائم متجدد خص به مولانا خير خليفة
سلام عليكم من عبيد تخلفوا بأندلس بالغرب من أرض غربة
وقد بدلت أسمائنا وتحولت بغير رضا وغير إرادة

[16] – جوزيف بيريز: التاريخ الموجز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، ترجمة: مصطفى أمادي، هيئة أبوظبي للسياحة والثقافة، أبوظبي، ط1، 2012، ص61.

[17] – مارمول كاراخال: وقائع ثورة الموريسكيين، المصدرالسابق، ص147.

[18] – بدرو لونغاس: حياة الموريسكيين الدينية، ترجمة وتحقيق: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2010، ص34 – 35.

[19] – محمد رزوق: الأندلسيون وهجراتهم، مرجع سابق، ص89.

[20] – حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات في التاريخ الأندلسي، مرجع سابق، ص95.

[21] – Braudel(F): Laméditeranée.، Op،Cit،T p118،2.

[22] – جوزيف بيريز: التاريخ الموجز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، مرجع سابق، ص61.

[23] – جوزيف بيريز: المرجع نفسه: ص61، 62.

[24] – المرجع السابق: ص62.

[25] – المرجع السابق، ص63.

[26] – مرثيدس غارثيا أرينال: محاكم التفتيش، المرجع السابق، ص56.

[27] – جوزيف بيريز: المرجع السابق، ص64.

[28] – المرجع السابق: ص 65.

[29] – جوزيف بيريز: التاريخ الموجز لمحاكم التفتيش بإسبانيا، المرجع السابق، ص64.

[30] – المرجع نفسه: ص64.

[31] – مرثيدس غارثيا أرينال: محاكم التفتيش، المرجع السابق، ص 57.

[32] – لوي كارديالك: الموريسكيون، المرجع السابق، ص72.

[33] – لوي كارديالك: حياة الموريسكيين الدينية، عامل تماسك لطائفة كانت تشكل أقلية في إسبانيا في القرن 16م، في: محاضرات ومناقشات الملتقى العاشر للفكر الإسلامي، وزارة التعليم والشئون الدينية، عنابة – الجزائر، 1976، مج 3، ص882.

[34] – محمد علي قطب: مذابح وجرائم محاكم التفتيش في الأندلس، الناشر دار الكتب المصرية، القاهرة1985، ص116.

[35] – المرجع السابق: ص117.

[36] – المرجع السابق: ص117

[37] – محمد علي قطب: مذابح وجرائم محاكم التفتيش، المرجع السابق، ص118.

[38] عبداللطيف مشرف، مسلمو إسبانيا.. ما بين التنصير بالإجبار والحفاظ على الهوية، مدونات الجزيرة، https: / /www.aljazeera.net /blog
– 88٪.85٪.D9٪.84٪.D9٪.85٪.D8٪.B3٪.D9٪.D9٪. /6 /5 /s /2019
8A٪.D8٪.A7٪.86٪.D9٪.D8٪.A5٪.D8٪.B3٪.D8٪.A8٪.D8٪.A7٪.D9٪.
D8٪.A7٪.D٪. – 86٪.8A٪.D9٪.85٪.D8٪.A7 – ٪.D8٪.A8٪.D9٪.– ٪.D9
8A٪.D8٪.B1 – ٪.D8٪.A8٪.٪.86٪.D8٪.B5٪.D9٪.84٪.D8٪.AA٪.D9٪.9

84%D8%A5%D8%AC%D8%A8%D8%A7%D8%B1%D8%A7%D9

[39] عبداللطيف مشرف: الرؤية التاريخية لأحوال الأندلس الأخيرة (1492 – 1609م) في ضوء كتابات «ابن الخطيب وأبو القاسم الحجري» دراسة مقارنة بكتابات ومؤرخي الأندلس وإسبانيا المعاصرين، مجلة الجمعية التاريخية، عدد 2017، مؤتمر الرحالة والتاريخ، القاهرة 2017

[40] – عبد الهادي التازي: ابن الخطيب سفيراً ولاجئاً سياسياً، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، 1987، ص ص41 – 42.

[41] – عبدالهادي التازي: المرجع السابق، ص 43.

[42] – حسن الوراكلي: لسان الدين بن الخطيب في آثار الدارسين (دراسة وبيبليوجرافيا)، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، 1987، ص113.

[43] – عبدالهادى التازى: المرجع السابق: ص 44.

[44] – يمكنك أن تقرأ لابن الخطيب رسائل أخرى، سلطانية وغير سلطانية، في كتابه «كناسة الدكان بعد انتقال السكان» (ألفه بسلا)، تحقيق: محمد شبانه، مراجعة: حسن محمود، دار الكاتب العربي، ط1966.

[45] – فريد أمعضشو – المغرب: ابنُ الخَطيب الأندلسي وإحاطته، العدد 70، عود الند مجلة ثقافية فصلية K لناشر: د. عدلي الهواري.

[46] – فريد أمعضشو – المغرب: ابنُ الخَطيب الأندلسي وإحاطته، المرجع السابق.

[47] – محمد الكتاني: ابن الخطيب والمذاهب الفكرية في عصره، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، 1987، ص40.

[48] – فريد أمعضشو: المرجع السابق.

[49] – محمد الكتاني: المرجع السابق.

[50] – محمد عبد الله عنان: أندلسيات، سلسلة «كتاب العربي»، الكويت، رقم20، يوليو 1988، ص66.

[51] – محمد عبدالله عنان: المرجع السابق نفسه، ص66.

[52] – أحمد مختار العبادي: لسان الدين بن الخطيب وكتاباته التاريخية، مجلة «عالم الفكر»، الكويت، ع.2، مج.16، صيف 1985، ص47.

[53] – محمد المنوني: محاولة لقراءة جديدة في التراث التاريخي لابن الخطيب، مجلة كلية الآداب بنطوان، ع.2، س.2، 1987، ص152.

[54] – من مصادر ابن الخطيب، في «اللمحة»، كتابٌ يظهر من عنوانه أنه يؤرخ لغرناطة، هو «الإماطة عن وجه الإحاطة فيما أمكن من تاريخ غرناطة»، نسبه إلى نفسه. ولكنه لم يذكره، إطلاقاً، ضمن ثبت مؤلفاته الوارد في آخر «الإحاطة»، ولا في ترجمته لنفسه في «نفاضة الجراب»! كما أن المهتمين بدراسة التراث الأدبي الأندلسي ونشْره لم يقفوا على مخطوطة للإماطة في أيٍّ من المكتبات التي تحتفظ بكتب هذا التراث! الأمر الذي جعل محمد عنان يرجِّح أن يكون العنوان المذكور عنوانًا آخرَ للإحاطة، أو مختصرًا لقِسْمها الأول فقط. (انظر تقديمه للإحاطة، 1/ 58 – 59).

[55] – فريد أمعضشو: المرجع السابق.

[56] – محمد بن عبود: ابن الخطيب مؤرخاً للأندلس في عهد الطوائف، مجلة كلية الآداب بتطوان، ع.2، س.2، 1987، ص183.

[57] – ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، تقديم وتحقيق: محمد عبد الله عنان،ط2، مكتبة الخانجي، القاهرة 1973م،ج1.

[58] – فريد أمعضشو: المرجع السابق.

[59] – ابن الخطيب: الإحاطة في أخبار غرناطة، 1/ 85..

[60] – المصدر نفسه.

[61] – ابن الخطيب: المصدر نفسه: 1/ 87.

[62] – إلبيرة وبالإسبانيةElvira مدينة رومانية قديمة كانت تُسمى أيام الرومان lliboris وكانت عاصمة للولاية التي تُسمى بهذا الاسم، وكانت أيام الفتح الإسلامي مدينة كبيرة عامرة. أبو عبد الله محمد بن عبد الله بن عبدالمنعم الحميري: الروض المعطار في خبر الأقطار، تعليق وتصحيح: ليفي بروفنسال، ط2، دار الجبل، بيروت 1988، ص29 – 30.

[63] – لسان الدين الخطيب: المصدر السابق، ص100 – 104.

[64] – المصدر نفسه، ج1، ص158. ج2، ص59.

[65] – ابن الخطيب، المصدر السابق: ص65.

[66] – حسن مراد: تاريخ العرب في الأندلس، دار الفرجاني، القاهرة 1984، ص133. ولقد كانت تخترق مملكة غرناطة من الوسط جبال سيرًا نفادا (جبل شلير) الشاهقة، وهضاب البشرات الوعرة وبسائطها الخضراء، كما تخترقها عدة أنهار منها شنيل فرع الوادي الكبير ونهر أندرش الصغير، وفي الشرق نهر المنصورة، وكانت خواصها الطبيعية تجمع بين المروج والوديان الخصبة، والجبال والهضاب الوعرة، تمدها بثروات زراعية ومعدنية حسنة، ينميها ويضاعفها الشعب الأندلسي الموهوب بذكائه ونشاطه وبراعته المأثورة، وهكذا كانت مملكة مملكة غرناطة الصغيرة تستمد من مواردها الطبيعية أسباب القوة، والمنعة، والرخاء. محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، ج4، نفسه: ص55.

[67] – حسن مراد: المرجع السابق، ص144، 145.

[68] – دون باسكوال بورونات إى براتشينا: الموريسكيون الإسبان ووقائع طردهم، ترجمة: كنزة الغالي، مركز العمودي للترجمة، ج1، المغرب 2012، ص110.

[69] – مارمول كارباخال: وقائع ثورة الموريسكيين، ترجمة: وسام محمد

جزر، مراجعة وتقديم: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة2012، ج1، ص54.

[70] – دون باسكوال بورنات: المورسكيون الإسبان، المرجع السابق، ص111.

[71] – واشنطن إيرفنغ: سقوط غرناطة، ترجمة: هلاني يحيى نصري، ط1، مؤسسة الانتشار العربي – لندن 2000م، ص206.

[72] – مارمال كارباخال: المصدر السابق، ص80.

[73] – دون باسكول بورنات: المرجع السابق، ص113.

[74] – عُبادة كحُيلة: القطوف الدواني في التاريخ الإسباني، الهيئة العامة للكتاب، القاهرة، 2011، ص126،125.

[75] – عبادة كحيلة: المرجع نفسه، ص126. واشنطن إيرفنغ: سقوط غرناطة، المرجع السابق، ص291.

[76] – واشنطن ايرفنغ: المرجع السابق، ص377.

[77] – خوسيه غوميث سولينيو: وثيقة إنجليزية تكشف كيفية سقوط غرناطة، المؤتمر الثامن عشر للغة والأدب والمجتمع الأسباني – مالقة 2006، تم نشرها في: جريدة الشرق الأوسط العربية الدولية، الأحد 13 شوال1426هـ – 5 نوفمبر 2006، العدد 10204. وتشير الجريدة لمؤلف وثيقة «سقوط غرناطة» على أنه انجليزي متخصص بقوانين الكنيسة ويدعى ويليام ويدمونهام، وكان أحد المدعوين لحضور الصلاة والاحتفال في كنيسة سان بابلو بمناسبة سقوط غرناطة الإسلامية.

[78] – محمد عبد الله عنان: نهاية الأندلس، مرجع سابق، ص245 – 250. محمد عبد الله جمال الدين: المسلمون المنصرون، دار الصحوة، القاهرة، 1991، ص22 – 32.مرثيدس غارثيا: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة: جمال عبد

الرحمن، المركز القومي للترجمة، القاهرة، 2003، ص31 – 35. تكونت معاهدة تسليم غرناطة من 52 بنداً، وسيتم ذكر بنودها في الملاحق.

[79] – عبادة كحيلة: مرجع سابق، ص126.

[80] – أحمد بن قاسم الحجري الأندلسي: ناصر الدين على القوم الكافرين النسخة المصرية، تحقيق: حسام الدين شاشية، ط1، دار السويدي للنشر والتوزيع، أبو ظبي 2015.، ص10.

[81] – الحجري: المصدر السابق، ص11.

[82] – الشهاب الحجري: أهم وثيقة تاريخية للأندلس، جريدة الاتحاد، تاريخ 20 أكتوبر 2012.

[83] – المرجع نفسه.

[84] – أحمد بن قاسم الحجري: رحلة أفوقاي الأندلسي: مختصر رحلة الشهاب إلى لقاء الأحباب 1611 – 1613م، تحقيق: محمد رزوق، ط1، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، بيروت 2005، ص25.

[85] – المصدر نفسه، ص22.

[86] – أحمد بن قاسم الحجري: ناصر الدين على القوم الكافرين، تحقيق: أحمد حسن بسج، دار الكتب العلمية، بيروت 1999م، ص 13.

[87] – أحمد بن قاسم الحجري، المصدر السابق ناصر الدين، ص 13.

[88] – مركز دراسات الأندلس وحوار الحضارات: موريسكيون في البلاط السعدي.

[89] – أحمد بن قاسم الحجري: رحلة أفوقاي، المصدر السابق، ص52.

[90] – أحمد بن قاسم الحجري: ناصر الدين النسخة المصرية، المصدر السابق، ص15.

[91] عبداللطيف مشرف: الرؤية التاريخية للمؤرخين لطرد الأخير للموريسكيين 1604 – 1609م، بحث منشور في مجلة الأندلس الدولية، كلية دار العلوم جامعة القاهرة، القاهرة 2017.

[92] – لوي كارديالك: الموريسكيون الأندلسيون،المرجع السابق، ص65.

[93] – المرجع السابق، ص150.

[94] – لوي كارديالك: الموريسكيون الأندلسيون، المرجع السابق، ص150، 151.

[95] – يرى بيانوبيا أن ريبرا كان مترددًا في اللحظة الأخيرة وأنه ندم على تأييد قرار الطرد. القضية الموريسكية من وجهة نظر أخرى، ترجمة: عائشة سويلم، المشروع القومي للترجمة، المجلس الأعلى للثقافة،2005، ص152.

[96] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا، المرجع السابق، ص151، 153.

[97] – ميغيل أنخيل بونيس إيبارا: الموريسكيون في الفكر التاريخي، ترجمة: وسام محمد جزر، مراجعة: جمال عبد الرحمن، المركز القومي للترجمة، ط1، القاهرة، 2005، ص56.

[98] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون في إسبانيا، المرجع السابق، ص153.

[99] – عادل بشتاوي: المواركة، المرجع السابق، ص168.

[100] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيين في إسبانيا، المرجع السابق، ص154.

[101] – خوليو كارو باروخا: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص52.

[102] – دومنغيث أورتيث – برنارد فينسنت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص87.

[103] – خوليو كارو باروخا: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص82.

[104] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق، ص155.

[105] – ميكيل دي إيبالثا: المرجع السابق: ص156.

[106] – ليونارد هارفي: تاريخ المورسكيين، المرجع السابق، ص342.

[107] – أحمد الكاموني – هاشم السقلي: التأثير الموريسكي، المرجع السابق، 65.

[108] – لي هنري تشارلس: العرب والمسلمون في الأندلس، المرجع السابق، ص131.

[109] – لي هنري تشارلس: العرب والمسلمون في الأندلس، المرجع السابق،ص112.

[110] – محمد عبد الله جمال الدين: الأندلسيين المنصرين، المرجع السابق، ص301.

[111] – دومينغيث آورتيث برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص6.

[112] – أحمد الكاموني – هاشم السقلي: التأثير الموريسكي، المرجع السابق، ص68.

[113] – حنيفي هلايلي: أبحاث ودراسات، المرجع السابق، ص102103، مرثيدس غارثا: المرجع السابق ص115، عبد الله محمد جمال الدين: المرجع السابق، ص152.

[114] – دومينغيث آورتيث برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين (مأساة أقلية)، المرجع السابق، ص7.

[115]لقد ورد فيها: «فرقة من المسلمين، والمسلمات – تسير، وهي تسمع من كل ناحية شتائم الرجال يحملون الثروات، والأموال، النساء يحمِلن أدوات الزينة، والملابس، العجائز يمشين بحزن، ويبكين، يجهزن الطعام، وهن يتميزن غيظًا، كلهن يحملن الجواهر، والأواني، والقناديل، عجوز يأخذ طفلاً من يده، طفل آخر على صدر أمه، شاب ثالث قوي مثل الطرواديين لا يتأخر عن حمل أبيه، كم من الموريسكيات الضعيفات التعيسات، عندما رأين أن أهلهن لا يجدون من يحميهم، عانقن أطفالهن الصغار، وصعدت إلى قمم الجبال. كما باعوا من أبنائهم المحبين لهم إلينا مقابل لقمة من الخبز». ميكيل ديإيبالثا: الموريسكيون في المنفى، المرجع السابق ص157.

[116] – خوليو كارو باروخا: مسلم مملكة غرناطة، المرجع السابق، ص62.

[117] – دومينغيث أورتيث برنارد فينسينت: تاريخ الموريسكيين، المرجع السابق، ص762، 159، 300.

[118] – ميغيل نخيل يونيس إيبارا: الموريسكيون في الفكر التاريخي، المرجع السابق، 165.

[119] عبداللطيف مشرف: الوجود الأندلسي الموريسكي في مصر، بحث منشور في مجلة مركز بحوث الشرق الأوسط، التابع لجامعة عين شمس، في مؤتمر شباب الباحثين الأول، القاهرة 2017.

[120] – عبدالحميد سعد زغلول: «الأثر المغربي والأندلسي في المجتمع السكندرى فى العصور الإسلامية الوسطى»، ضمن مجموعة ندوات ومحاضرات في جامعة الإسكندرية 1973 والجمعية التاريخية، مطبعة الإسكندرية 1975م، ص245.

[121] – ميكيل دي إيبالثا: الموريسكيون فى إسبانيا وفي المنفى، ترجمة: جمال

عبدالرحمن، المشروع القومي للترجمة، القاهرة 2005، ص341

[122] – شهاب الدين أحمد بن محمد المقرى: نفح الطيب فى غصن الأندلس الرطيب وذكر وزيرها لسان الدين ابن الخطيب، الجزء الثاني، تحقيق د. إحسان عباس، بيروت، 1968،ص617.

[123] – محكمة الصالحية النجمية الشرعية: س508، ص303، م 921 بتاريخ 1107/ 16م؛ محكمة الباب العالي الشرعية: س9، ص1437،373 بتاريخ 951هـ/ 1544م.

[124] – حسام محمد عبدالمعطى: العائلة والثروة – البيوت التجارية المغربية فى مصر العثمانية، الهيئة المصرية للكتاب، القاهرة 2008، ص18.

[125] – حسام محمد عبدالمعطي: المرجع السابق، ص 19.

[126] – حسام محمد عبدالمعطي: المرجع السابق، ص19

[127] – محكمة الباب العالي: س38، ص89 – م392 بتاريخ 984هـ/ 1576م.

[128] – حسام محمد عبدالمعطي: المرجع السابق، ص19

[129] – محكمة الإسكندرية الشرعية: س40، ص405، م 1055 سنة 1033هـ/ 1623م.

[130] – محكمة الإسكندرية، إشهادات: س18، ص30،29م بدون 1222هـ/ 1807م.

[131] – باب الشعرية: س608، ص 22، م 105 بتاريخ 1027هـ / 1617م

[132] – عبدالرحيم عبدالرحمن: وثائق محكمة الأسكندرية الشرعية عن المغاربة فى مصر، السجل التاسع، المجلة التاريخية المغربية، العدد(27 – 28)، ص323

[133] عبدالرحيم عبدالرحمن: وثائق محكمة الاسكندرية – السجل التاسع – المرجع السابق، ص324.

[134] – عبدالرحيم عبدالرحمن: محكمة الأسكندرية والجزيرة الخضراء الشرعية، السجل الأول 957هـ – 958هـ/ 1550 – 1551م، المجلة التاريخية المغربية العدد 25 – 26، ص165 – 184.

[135] – دار الوثائق المصرية: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س1، بتاريخ 957هـ/ 1550م، ص162

[136] – دار الوثائق المصرية: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س2، بتاريخ 962هـ/ 1555م، ص256

[137] – دار الوثائق المصرية: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س1، بتاريخ 958هـ/ 1551م، ص239

[138] – عبدالرحيم عبدالرحمن: محكمة الإسكندرية الشرعية والجزيرة الخضراء – السجل الأول – المرجع السابق،ص 174

[139] – عبدالرحيم عبدالرحمن: المرجع السابق، ص174

[140] – عبدالرحيم عبدالرحمن: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء – السجل الأول – المرجع السابق، ص174.

[141] – دار الوثائق القومية المصرية: محكمة الإسكندرية الشرعية، س2، بتاريخ 962هـ/ 1555م، ص536

[142] – عبدالرحيم عبدالرحمن: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء – المرجع السابق، ص175

[143] – دار الوثائق القومية المصرية: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س5، ص157.

[144] – عبدالرحيم عبدالرحمن: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء –

المرجع السابق،176.

[145] – عبدالرحيم عبدالرحمن: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء – المرجع السابق، ص176.

[146] – عبدالرحيم عبدالرحمن: محكمة الإسكندرية والجزيرة الخضراء، ص177.

[147] – عبدالرحيم عبدالرحمن: المرجع السابق، ص177.

[148] – دار الوثائق القومية المصرية: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س8، ص317، بتاريخ 973هـ/ 7فبراير1565م.

[149] – دار الوثائق: سجلات محكمة الإسكندرية الشرعية، س2، ص 456، 962هـ/ 3يوليه 1555م.

[150] – دار الوثائق القومية: محكمة الإسكندرية الشرعية، س4، ص253، بتاريخ973هـ/ 1564م.

[151] – عبدالرحيم عبدالرحمن: المرجع السابق، ص177.

[152] – عبدالرحيم عبدالرحمن: محكمة الأسكندرية الشرعية والجزيرة الخضراء – المرجع السابق، ص178.

[153] – عبدالرحيم عبدالرحمن: المجلة التاريخية المغربية، عدد (10 – 11)، يناير 1978، ص67.

[154] – عبدالرحيم عبدالرحمن: المجلة التاريخية – المرجع السابق، ص64 – 67.

[155] – مرثيدس غارثيا: الموريسكيون الأندلسيون، ترجمة وتقديم: جمال عبد الرحمن، ط 1، المشروع القومي للترجمة، القاهرة 2003. ص225 – 227.

[156] – مرثيدس غارثيا: الموريسكيون، المرجع السابق، ص229 – 232.

فهرس الموضوعات

تقديم: 5
مقدمة: 8
المأساة الأولى: صفحات منسية من التاريخ 12
المأساة الثانية: أزمة مصطلح الموريسكي، والمدجن 17
المأساة الثالثة: بداية النهاية 24
المأساة الرابعة: نهاية حضارة ونهاية أمير 29
المأساة الخامسة: ضياع الحلم والكثير يشاهد
«مواقف حكام المغرب العربى من الأندلس حتى سقوطها» 34
المأساة السادسة: تبخر الحلم وتقاعس الكبار 40
المأساة السابعة: مأساة بطل لم ينصفه التاريخ... آخر مجاهدي الأندلس 46
المأساة الثامنة: نهاية ثورة الأبطال «ثورة البشرات آخر ثورات
المسلمين من أجل العقيدة، والتراث» 71
المأساة التاسعة: إرهاب أوروبا في العصور الحديثة «محاكم التفتيش،
وإجبار الأندلسيين على التنصير» 77
المأساة العاشرة: مأساة أقلية بين التنصير، والحفاظ على العقيدة، والهوية 87
المأساة الحادية عشر: مشاهد سقوط حضارة في عيون مؤرخيها 93

المأساة الثانية عشر: تهجير أقلية ومغادرة الوطن 147
المأساة الثالثة عشر: مبـاركة الطـرد باسم الـرب 163
المأساة الرابعة عشر: رسالة ملكية بالطرد النهائي 167
الخاتمة: 172
المصادر والمراجع 176